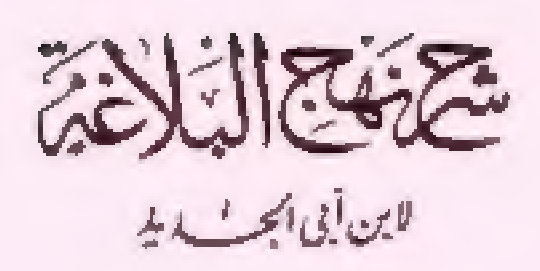


لابن أبي الحديد

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

(١٩٦٧م — ١٣٨٧هـ)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) وبه نثق الحمد لله الواحد العدل (١)

القول فى أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه به فى المعركة يوم الحرب

قال الواقدى[٢]: تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلّى الله عليه وسلم عبدُالله بن شهاب الزُّهرىّ وابنُ قَمِيئة[٣] أحدُ بنى الحارث بن فِهر، وعُتبة بن أبى وقّاص الزُّهرىّ، وأُبَىّ بن خلَف الجُمَحِىّ. فلمّا أتى خالدُ بن الوليد من وراء المسلمين، واختلطت الصّفوف، ووضع المشركون السيفَ فى المسلمين، رمى عُتْبة بن أبى وقّاص رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم بأربعة أحجار، فكسر رباعيتَه، وشجّه فى وجهه حتى غاب حَلَق المِغفر فى وجنتيه[٤]، وأدمى شفتيه[٥].

قال الواقدىّ: وقد رُوِىَ أنّ عتبة أشْظَى[٦] باطنَ رباعيَته السّفلى. قال: والثَّبت عندنا أنّ الذى رمى وجنتىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ابنُ قَمِيئة، والذى رمى شفته وأصاب رَباعيَته عُتبة بن أبى وقّاص.

قال الواقدىّ: أقبل ابنُ قَمِيئة يومئذ وهو يقول: دُلّونى على محمد، فوالّذى يُحلَف به! لئن رأيتُه لأقتلنه، فوصل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فعَلاه بالسّيف، ورماه عتبةُ

(١-١) ا: «وبك اعتمادى يا كريم».

(٢) انظر أخبار غزوة أحد فى الجزء الرابع عشر من ص ٢١٣ إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب.

(٣) قيئة؛ كسفينة، وهو عمرو بن قيئة، ذكره صاحب تاج العروس، وقال: «شاعر؛ وهو الذى كسر رباعية النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد». (٤) كذا فى ا، وهو الوجه والذى فى ب «وجبته»؛ تحريف.

(٥) مغازى الواقدى ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٦) أشظى رباعيته: كسرها.

ابنُ أبي وقّاص في الحال التي جلّله ابنُ قَمِيئة فيها السيفَ ، وكان عليه السلام فارسا ، وهو لابسُ دِرْعين مُثقَل بهما ، فوقع رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفرَس في حُفرة كانت أمامه .

قال الواقديّ : أصيبَ رُكبتاه ، جُحِشتا [1] لما وقَع في تلك الحفرة ، وكانت هناك حُفَر حفَرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم واقفا على بعضها وهو لا يَشعُر [2] ، فجُحِشت رُكبتاه ، ولم يصنع سيفُ ابنُ قَمِيئة شيئاً إلّا وهز [3] الضَّربة بثِقل السَّيف ، فقد وقع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ثمّ انتهض وطلحةُ يحمِله من ورائه ، وعليّ عليه السلام آخذٌ بيديه حتى استوى قائما .

قال الواقديّ : فحدّثني الضّحّاكُ بنُ عثمانَ عن حمزةَ بنِ سعيد،عن أبي بشر المازنيّ ، قال : حضرتُ يومَ أُحُد وأنا غلام،فرأيتُ ابنَ قَمِيئة علَا رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالسّيف ، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقَع على ركبتيه في حفرةٍ أمامَه حتّى توارى في الحفرة ، فجعلت أصيح وأنا غلام حتى رأيتُ النّاس ثابُوا إليه .

قال : فأنظُر إلى طلحةَ بن عُبيد الله آخِذا بحضْنِه حتّى قام .

قال الواقديّ : ويقال : إنّ الذي شجّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في جبهته ابنُ شِهاب ، والّذي أشظَى رَباعيتَه وأدمَى شفَتيه عتبةُ بنُ أبي وَقّاص،والّذي أدمَى وَجْنَتَيه حتى غاب الحلَق فيهما ابنُ قميئة ، وإنه سال الدمُ من الشّجّة التي في جَبهته حتى أخضلَ لحيتَه . وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة يَغسل الدمَ عن وجهه ورسولُ الله صلّى الله عليه ، يقول : كيف يُفلح قومٌ فعلوا هذا بنبيّهم ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى ! فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ . . . ﴾ [4] الآية .

(١) الجحش : الخدش ، أو فوقه .
(٢) الواقدي : « ولا يشعر به » .
(٣) كذا في الواقدي . ويقال : وهزه ، أي ضربه بثقل يده ، وفي الأصول : « وهن » تحريف .
(٤) سورة آل عمران ١٢٨ .

قال الواقدى : وروى سعدُ بنُ أبى وقاص قال [١] : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اشتدَّ غضب الله على قوم دمّوا فا رسول الله صلى الله عليه وآله ، اشتد غضبُ الله على قوم دمّوا وجه رسول الله ، اشتدّ غضبُ الله على رجل قتله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد شفانى من عتبة أخى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد حرَصتُ على قتله حِرْصا ماحَرَصتُ على شىء قط ، وإن كان ماعلمتُ لعاقًا بالوالد ، سيّئ الخُلق ، ولقد تخرّقتُ صفوفَ المشركين مرّتين أطلبُ أخى لأقتلَه ، ولـكنه راغ منّى روَغانَ الثعلب ، فلما كان الثالثة قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ياعبدَ الله ماتريد ؟ أتريد أن تقتل نفسك ؟ فكففتُ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهم لاتُحولنَّ الحَوْلَ عَلَى أحدٍ منهم . قال سعد : فوالله ماحالَ الحَوْلُ عَلَى أحدٍ ممن رَماه أو جرحه . مات عتبةُ ، وأما ابنُ قَمِيئة فاختُلِف فيه ، : [فقائل يقول : قتـل فى المَعرَك و] [٢] قائل [يقول] [٢] : إنه رمى بسَهْم فى ذلك اليوم فأصاب مصعبَ بنَ عُمَير فقتله ، فقال : خُذْها وأنا ابنُ قَمِيئة ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أقمأه الله ، فعَمَد إلى شاة يحتلبها فتنطحه بقَرْنها وهو معتلِقها [٣] فقتلته . فوُجِد ميتا بين الجبال لدعوةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عدوّ الله رجع إلى أصحابه فأخبرهم أنه قتل محمدا. قال : وابن قميئة رجل من بنى الأدْرَم من بنى فِهر .

وزاد البلاذُرىّ فى الجماعة التى تعاهدتْ وتعاقدتْ عَلَى قتل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد عبدَ الله بنَ حُمَيد بن زهير بن الحـارث بن أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ [٤] .

قال : وابن شهاب الّذى شَجّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فى جَبْهته هو عبدُ الله

---

(١) الواقدى : « سمعته يقول : اشتد . . . » .
(٢) من الواقدى . والمعرك والمعترك : موضع القتال .
(٣) كذا فى ا وهو الصواب ، والذى فى ب « معتقلها » ، تصحيف .
(٤) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

ابن شهاب الزُّهْرى ، جدُّ الفقيه المحدِّث محمد بن مسلم بنِ عبيدالله بنِ عبدالله بن شهاب[1] ، وكان ابنُ قَميئة أَدْرَم ناقصَ الذَّقَن ، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقدىّ أيضا .

***

قلتُ : سألت النقيبَ أبا جعفر عن اسمه فقال : عمرو ، فقلتُ له : أهو عمرو بن قَمِيئة الشاعر ؟ قال : لا ، هو غيرُه . فقلت له : مابالُ بنى زُهرة فى هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله صلّى الله عليه وسلم وهم أخواله ، ابنُ شهاب وعتبةُ بنُ أبى وقّاص ! فقال : يابنَ أخى ، حرَّكهم أبو سفيانَ وهاجَهُم على الشرّ لأنّهم رجعوا يومَ بدر من الطريق إلى مكّة فلم يَشهدُوها ، فاعترض عِيرَهم ومنَعهم عنها ، وأغرى بهاسفهاءأهلِ مكة،فعيَّروهم برُجوعهم ، ونسبوهم إلى الجُبْن وإلى الإدْهان فى أمرِ محمد صلّى الله عليه وسلم،واتفق أنّه كان فيهم مثل هذين الرجلين ، فوقع منهما يومَ أُحُد ماوقع .

***

قال البَلاذُرىّ : مات عتبة يومَ أُحُد من وجعِ أليمٍ أصابه ، فتعذّب به ، وأصيب ابنُ قميئة فى المعركة ، وقيلَ : نطحتْه عنْز فمات .

قال : ولم يذكر الواقدىّ ابنَ شهاب كيف مات ، وأحسب ذلك بالوَهْم منسه .
قال : وحدّثنى بعضُ قريش أنّ أفعى نهشتْ عبدَ الله بنَ شهاب فى طريقه إلى مكة ، فمات . قال : وسألتُ بعضَ بنى زُهرة عن خبره ، فأنكروا أن يكون رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله دعا عليه ، أو يكون شَجَّ رسول الله صلّى عليه وآله . وقالوا : إن الذى شجّه فى وجهه عبد الله بنَ حُمَيد الأَسَدى[2] .

فأمّا عبدُ الله بنُ حُميد الفِهرىّ ، فإنّ الواقدىّ وإن لم يذكره فى الجماعة الذين

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

تعاقدوا على قتلِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلا أنّه قد ذَكَر كيفيّة قتلِه .

قال الواقديّ : ويقبِل عبدُ الله بن حُميد بن زهير حين رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله على تلك الحال ـ يعني سقوطَه من ضربةِ ابن قميئة ـ يركض فرسه مقنّعا في الحديد يقول : أنا ابن زهير، دُلُّوني على محمد، فوالله لأقتلنه أو لأموتنّ دونه ! فتعرّض[1] له أبو دُجانة فقال : هلُمّ إلى مَن يَقِي نفسَ محمد صلّى الله عليه وآله بنفسِه ، فضرب فرسه فعرقبها ، فاكتَسعتْ ، ثم علاه بالسّيف وهو يقول : خذها وأنا ابن خَرَشة ، حتى قتلَه ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وآله ينظر إليــه ويقول : اللهمّ ارضَ عن ابن خَرَشة كما أنا عنه راضٍ . هــذه رواية الواقديّ ، وبها قال البَــلاذُريّ : إنّ عبد الله بنَ حُميد قتلَه أبو دُجانة[2] .

فأما محمد بنُ إسحاق فقال : إنّ الذي قتَل عبدَ الله بنَ حُميد عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام[3] . وبه قالت الشّيعة .

وروَى الواقديّ والبَلاذُريّ أنّ قوما قالوا : إنّ عبدَ الله بنَ حُميد هذا قتِل يومَ بدر . فالأوّل الصحيح أنه قُتِل يومَ أُحُد . وقد روَى كثيرٌ من المحدّثين أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلامُ حين سَقَط ثم أُقيم : اكفِنِي هؤلاء ـ لجماعة قصدتْ نحوَه ـ فحَمَل عليهم فهزَمَهم ، وقَتَل منهم عبدَ الله بن حميد من بني أسَد بن عبد العُزّى ، ثم حملتْ عليه طائفةٌ أخرى، فقال له : اكفِني هؤلاء ، فحَمَل عليهم فانهزَموا من بين يديه ، وقَتَل منهم أميّة بنَ أبي حذيفة بن المغيرة المخزوميّ .

قال : فأمّا أُبيّ بن خلف فروَى الواقديّ أنه أقبل يركُض فرسَه ؛ حتى إذا دنا من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، اعترضَ له ناس من أصحابه ليقتلوه ، فقال لهم : استأخِروا

---

(١) ا والواقدى : « ليعرض » .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٨٢ .

عنه . ثم قام إليه وحَرْبَتُهُ في يده ، فرماه بها بين سابغة البَيْضة والدِّرْع[1] ، فطعنه هناك ، فوقع عن فرسه ، فانكسر ضِلع من أضلاعه ، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلا[2] حتى وَلَّوْا قافلين ، فمات في الطريق ، وقال : وفيه أنزلت : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3] ، قال : يعني قَذْفه إيّاه بالحَرْبة .

قال الواقديّ : وحدّثني يونسُ بنُ محمّد الظَّفَريّ ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله ابنِ كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أُبَيُّ بن خَلَفٍ قدم في فداء ابنه ، وكان أُسير يومَ بَدْر ، فقال : يا محمّد ، إنّ عندي فرسا لي أعلفها فَرْقًا[4] من ذرة كلّ يوم لأقتلك عليها . فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : بل أنا أقتلكُ عليها إن شاء الله تعالى .

ويقال : إنّ أُبيًّا إنما قال ذلك بمكّة ، فبلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة كلمته فقال : بل أنا أقتلهُ عليها إن شاء الله . قال : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله في القتال لا يَلْتفِت وراءه ، فكان يومَ أُحُد يقول لأصحابه : إنّي أخشى أن يأتيَ أُبيُّ بن خَلَف من خَلْفي ، فإذا رأيتموه فآذِنوني ، وإذا بأُبيّ يَرْكُضُ على فرسه ، وقد رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فعرفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمّد لا نجوتُ إنْ نَجَوْتَ ! فقال القوم : يارسول الله ما كنتَ صانعا حين يغشاك أُبيّ ؟ فاصنع ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأبَى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ودَنا أُبيّ ، فتناول رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه الحَرْبة من الحارث بن الصِّمَّة ، ثم انتَفَض كما ينتفض البعير . قال : فتطايَرْنا

---

(١) الدرع السابغة : التي تجرها في الأرض وعلى كعبيك طولا وسعة ، وسابغة البيضة : ما توصل به البيضة من حلق الدروع فتستر العنق .

(٢) ثقيلا : مشرفا على الموت .

(٣) سورة الأنفال ١٧ .

(٤) الفرق ، بسكون الراء وفتحها : مكيال ضخم لأهل المدينة معروف .

عنه تطايرُ الشَّعارِيرِ[١] ، ولم يكن أحدٌ يُشبِهُ رسولَ الله صلى عليه وآله إذا جدّ الجِدّ ، ثم طعنه بالحربة فى عنقه وهو على فرسه لم يَسقط ، إلا أنه خارَ كما يخور الثَّوْر ، فقال له أصحابه : أبا عامر ، والله مابك بأسٌ ، ولو كان هذا الذى بك بعين أحدِنا ماضَرّه . قال: واللّات والعُزّى ، لو كان الّذى بى بأهل ذى الحجاز لماتوا كلُّهم أجمعون ، أليس قال:لأقتلنّه ! فاحتملوه ، وشغَلَهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى التحَق[٢] بمعظم أصحابه فى الشِّعب .

قال الواقدىّ : ويقال : إنّه تناول الحربةَ من الزُّبير بن العوّام . قال : ويقال إنّه لما تناول الحربة من الزُّبير حمل أبىٌّ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله ليضرِبه بالسيف ، فاستقبله مصعبُ بنُ عُمَير حائلا بنفسه بينهما ، وإنّ مصعبا ضَرَب بالسيف أبيّا فى وجهه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وآله فُرجةً من بين سابغة البَيْضة والدِّرْع ، فطعنه هناك، فوقع وهو يخور .

قال الواقدىّ : وكان عبدُ الله بنُ عمرَ يقول : مات أبىُّ بنُ خَلَف ببطن رابغ[٣] منصرَفهم إلى مكّة . قال : فإنّى لأسيرُ ببطن رابغ بعد ذلك ، وقد مضى هُوِىٌّ من اللّيل إذا نارٌ تأجّجُ ، فهِبْتُها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يصيح: العطَش ، وإذا رجل يقول : لا تَسقِه ، فإن هذا قتيلُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا أبىُّ بنُ خَلَف، فقلتُ : ألا سُحْقا ! ويقال : إنه مات بسرِف[٤] .

* * *

---

(١) الشعارير : الذباب . (٢) ا والواقدى : « لحق » .

(٣) بطن رابغ : واد من دون الجحفة ، قال الواقدى : هو على عشرة أميال من مكة . ياقوت .

(٤) سرف ، ككتف : موضع على سبعة أميال من مكة ، تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ؛ وهناك توفيت ـ ياقوت .

القول فى الملائكة نزلت بأحُد وقاتلت أم لا

قال الواقدى : حدثنى الزُّبيرُ بنُ سعيد ، عن عبدِ الله بن الفَضْل ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وآلِه مصعبَ بنَ عمير اللواء فقتل،فأخذَه ملَك فى صورة مُصعب فجَعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له فى آخر النهار : تقدّم يامصعب ، فالتفت إليه الملَك ، فقال : لستُ بمصعبٍ ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآلِه أنّه ملَكَ أُيِّد به .

قال الواقدىّ : سمعتُ أبا معشر يقول مِثلَ ذلك .

قال : وحدثتنى عبيدةُ بنتُ نائل ، عن عائشةَ بنت سعد بن أبى وقاص ، عنه ، قال : لقد رأيتُنى أرمى بالسّهم يومئذ، فيردّه علىّ رجلٌ أبيضُ حسن الوجه لا أعرفه،حتى كان بعد ، فظننتُ أنه ملَك .

قال الواقدىّ : وحدثنى إبراهيم بنُ سَعْد،عن أبيه ، عن جدّه سعدِ بن أبى وقاص، قال : رأيتُ ذلك اليومَ رَجُلين عليهما ثيابٌ بيض : أحدُهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخَر عن شماله يقاتلان أشدَّ القتال ، مارأيتُهما قبلُ ولا بعدُ . قال : وحدّثنى عبدُ الملك بنُ سليمانَ ، عن قَطَن بن وَهْب،عن عُبيد بن عمَير ، قال : لمارجعتْ قريشٌ من أُحُد جعلوا يتحدّثون فى أنديتهم بما ظَفِروا ، يقولون : لم نرَ الخيلَ البُلْق ولا الرِّجال البيض الّذين كنّا نراهم يومَ بدر .

قال : وقال عُبيدُ[1] بنُ عمير : لم تقاتل الملائكةُ يومَ أحُد .

قال الواقدىّ : وحدثنى ابن أبى سَبْرة ، عن عبد الحميد بن سُهَيل ، عن عُمَر بن الحكم، قال : لم يُمَدّ رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ أحُد بملَك واحد،وإنما كانوا يومَ بدر . قال : ومثله عن عِكْرمة .

---

(١) فى ا « عبيد الله » ؛ تحريف والتصويب عن ب .

قال : وقال مجاهد : حضرت الملائكةُ يوم أُحُد ولم تقاتل ، وإنما قاتلتْ يوم بدر .

قال : وروى عن أبى هُرَيرة أنه قال : وعَدَهم اللهُ أن يُمدّهم لو صبَروا ، فلما انكشفوا لم تُقاتِل الملائكة يومئذ .

* * *

القول فى مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال الواقدىّ : كان وَحْشىّ عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، ويقال : كان لجُبَير بن مُطعِم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف ، فقالت له ابنة الحارث : إنّ أبى قتل يومَ بدر ، فإن أنتَ قتلتَ أحد الثلاثة فأنتَ حرّ : محمّد ، وعلىّ بن أبى طالب ، وحمزة[1] بن عبد المطّلب ، فإنى لا أرى فى القوم كُفؤاً لأبى غيرهم . فقال وحشىّ : أمّا محمّد فقد علمت أنّى لا أقدر عليه ، وإنّ أصحابه لن يُسلِموه ، وأمّا حمزة فو الله لو وجدتُه نائماً ما أيقظته من هيْبته ، وأمّا علىّ فألتمسه . قال وَحْشىّ : فكنتُ يومَ أُحُد ألتمِسه ، فبينا أنا فى طلبه طلَع علىّ ، فطلع رجلٌ حَذِرٌ مَرِس[2] كثيرُ الالتفاتِ ، فقلتُ : ما هذا صاحبى الّذى ألتمس ، إذْ رأيت حمزة يفْرِى الناسَ فَرْياً ، فكَمِنتُ له إلى صَخْرة وهو مكبّس له كَتيت[3] ، فاعترَض له سِباع بنُ أمّ نِيار ، وكانت أمّه خَتّانة بمكّة ، مولاة لشريقِ بن علاج بنِ عَمْرو بن وَهْب الثّقَفىّ ، وكان سِباع يكْنَى أبا نيار ، فقال له حَمْزة : وأنت أيضا يابنَ مقطِّعة البُظُور ممّن يكثِّر علينا ! هلمّ إلىّ ، فاحتمَله ، حتى إذا برقتْ قدَماه رمَى به فبرَك عليه ، فشَحطه شحط الشاة ، ثم أقبَل علىّ مكبًّا حين رآنى ، فلمّا

(١) كذا فى ا ، وهو الوجه ، وفى ب « أو » تحريف .
(٢) المرس : الذى قد مارس الأمور وعالجها .
(٣) الكتيت : صوت فى صدر الرجل كصوت البكر من شدة الغيظ .

بلغ السبيل ، وَطِئَ على جُرُفٍ فزلّت قدمُه ، فهززتُ حربتي حتى رضيتُ منها ، فأضرب
بها في خاصرته حتى خرجتْ من مَثانته ؛ وكرّ عليه طائفةٌ من أصحابه فأسمعهم يقولون :
أبا عمارة ، فلا يجيب ، فقلتُ : قد والله مات الرجل ، وذكرتُ هندًا وما لقيتْ على
أبيها وعمّها وأخيها ، وانكشف عنه أصحابُه حين أيقنوا بموته ، ولا يرونني ، فأكرّ عليه
فشققتُ بطنَه ، فاستخرجتُ كبدَه ، فجئتُ بها إلى هند بنتِ عتبة ، فقلتُ : ماذا لي إنْ
قتلتُ قاتلَ أبيكِ ؟ قالت : سَلَبي ؛ فقلتُ : هذه كبدُ حمزةَ ، فمضغَتْها ثم لفظَتْها ، فلا
أدري : لم تُسِغها أو قذِرتْها ؛ فنزعتْ ثيابَها وحُليّها فأعطَتْنيه ، ثم قالت : إذا جئتَ مكّة
فلك عشرةُ دنانير ، ثم قالت : أرني مَصرَعه ، فأريتُها مصرعه ، فقطعتْ مذاكيره ،
وجدعَتْ أنفَه ، وقطعتْ أذنيه ، ثم جعلت ذلك مَسَكَتين[1] ومِعْضَدين وخَدَمتين ؛
حتى قدِمتْ بذلك مكة وقدِمتْ بكبده أيضًا معها .

قال الواقديّ : وحدّثني عبدُ الله بنُ جعفر ، عن ابن أبي عَوْن ، عن الزّهريّ ،
عن عُبيد الله بن عديّ بن الخيار ، قال : غزونا الشام في زمن عثمانَ بنِ عفّانَ ، فمررْنا
بحِمْصَ[2] بعد العصر ، فقلنا : وحشيّ ، فقيل : لا تقدِرون عليه ، هو الآن يشرب الخمر
حتى يُصبح ، فبِتْنا من أجله ؛ وإنّا لثمانون رجلا ، فلمّا صلّينا الصبحَ جئنا إلى منزله ، فإذا
شيخٌ كبير قد طُرحتْ له زِرْبية[3] قدر مجلسه ، فقلنا له : أخبرنا عن قتل حمزة وعن
قتل مُسيلِمة ؛ فكره ذلك ، وأعرض عنه ، فقلنا : ما بِتْنا هذه الليلة إلّا من أجلك . فقال :
إنّي كنتُ عبدًا لجُبَير بن مُطعِم بن عديّ ، فلمّا خرج الناسُ إلى أُحُد دعاني فقال : قد رأيتَ
مقتلَ طُعَيمة بنِ عَدِي ، قتله حمزةُ بنُ عبد المطّلب يومَ بدر ، فلم تزل نساؤنا في حُزْن

---

(١) المسكة ، بالتحريك : الأسورة . والمعضد : الدملج ، والخدمة ، بالتحريك : الخلخال .
(٢) حمص : مدينة معروفة في بلاد الشام .
(٣) الزربية : النمرقة ؛ أو البساط الذي يتكأ عليه ؛ وواحده زربي ، والجماعة زرابي .

شديدٍ إلى يومى هذا ، فإن قتلتَ حمزةَ فأنتَ حرٌ ؛ فخرجتُ مع الناس ولى مَزاريق [1]
كنت أمرّ بهند بنتِ عتبة فتقول : إيهٍ أبا دُسْمة ! اشفِ واشتَفِ . فلمّا ورَدْنا أُحُـدا
نظرتُ إلى حمزةَ يقدُم الناسَ يهدّهم هدّا ، فرآنى وقد كمنتُ له تحت شجرة ، فأقبل
نحوى ، وتعرّض له سباع الخُزاعىّ ، فأقبَل إليه وقال : وأنتَ أيضا يا بنَ مقطّعة البظور
ممّن يكثّر علينا ! هَلُمّ إلىّ ، وأقبَل نحوه حتّى رأيتُ برقانَ رجليه ، ثم ضَرَب به الأرضَ
وقتَلَه ، وأقبل نحوى سريعاً ، فيعترض له جرفٌ فيقع فيه ، وأزرُقه بمِزراق فيقع في لَبّته
حتى خرج من بين رجليه . فقتلَه ، ومررتُ بهند بنت عُتْبة فآذنتُها ، فأعطتْنى ثيابَهـا
وحليّها ، وكان فى ساقَيْها خَدَمتان من جَزْع ظَفارِ [2] ومَسَكتان من ورق، وخواتيم من
ورق كُنَّ فى أصابع رجليها ، فأعطتْنى بكلّ ذلك ، وأما مُسيلمة فإنّا دخلنا حديقةَ الموت
يومَ اليمامة فلمّا رأيتُه زرقتُه بالمزراق ، وضربَه رجل من الأنصار بالسيف ، فربُّك أعلمُ أيُّنا
قتلَه ! إلّا أنّى سمعتُ امرأةً تصيحُ فوق جِدار : قتلَه العبدُ الحبشىّ . قال عبيدُ الله : فقلتُ :
أتعرفُنى ؟ فأكَرّ بصرَه علىّ وقال : ابن عدىّ لعاتكةَ بنتِ العيص ؟ قلتُ : نعم ، قال :
أما واللهِ مالى بك عهـدٌ بعد أن دفعتُك إلى أمّك فى محفّتك التى كانت ترضعك فيها ،
ونظرت إلى برقانِ قدميك حتّى كأنّه الآن .

وروى محمدُ بن إسحاقَ فى كتاب المغازى ؛ قال : علتْ هِند يومئذ صخرةً مشرِفة ،
وصرخَتْ بأعلى صوتها :

نحـنُ جزَيْنـاكم بيومِ بَدْرِ ... والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُعْرِ [3]
ما كان عن عتبـةَ لِى من صبرِ ... ولا أخى وعمّـه وبِـكْرِى
شفيتُ نفسى وقضيتُ نَذْرى ... شفَيتَ وحشىُّ غليـلَ صدرِى

---

(١) المزاريق ، جمع مزراق ؛ وهو الرمح القصير .
(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن ينسب إليه الجزع .
(٣) ذات سعر ، أى حر .

فشكرُ وَحْشِىّ علىَّ عمرى ... حتى تَرِمّ أعظُمى فى قبرى [1]

قال : فأجابتْها هند بنت أُثاثة بن المطّلب بن عبد مناف :

خزِيتِ فى بدرٍ وغيرِ بدرِ ... يابنتَ غَدّارٍ عظيمِ الكُفْرِ [2]

أفجعكِ اللهُ غداةَ الفجرِ ... بالهاشميّين الطوالِ الزُّهْرِ

بكلّ قطّاعٍ حُسامٍ يَفْرِى ... حمزةُ لَيْثِى وعلىٌّ صَقْرِى

إذ رامَ شيبُ وأبوكِ قَهْرِى ... فخضَّبا منه ضَواحى النَّحْرِ

قال محمد بن إسحاق : ومن الشِّعر الّذى ارتجزتْ به هند بنت عُتْبة يومَ أُحُد :

شفيتُ من حمزةَ نفسى بأُحُدْ ... حين بَقَرتُ بطنَه عن الكَبِدْ [3]

أذهبَ عنّى ذاكَ ما كنتُ أجِدْ ... من لوعةِ الحزنِ الشديدِ المعتَمِدْ [4]

والحربُ تَعلوكُم بشؤبوبٍ بَرِدْ ... تَقْدِمُ إقداماً عليكم كالأُسُدْ [5]

قال محمد بنُ إسحاق : حدَّثنى صالح بنُ كيسانَ ، قال : حُدِّثتُ أنّ عمرَ بنَ الخطّاب قال لحسّان : ياأبا الفُرَيْعة ، لو سمعتَ ما تقول هند ! ولو رأيتَ شرّها قائمةً على صخرة ترتجز بنا ، وتذكُر ماصنعت بحمزة ! فقال حسّان : والله إنى لأنظر إلى الحَرْبة تَهوِى وأنا على فارع — يعنى أُطمة — فقلت : والله إن هذه لَسِلاح ليس بسلاح العرب ، وإذا بها تَهوِى إلى حمزةَ ولا أدرى ، [ولكن] [6] أسمعنى بعض قولها أكفيكُموها ، فأنشده عمر بعضَ ماقالت ؛ فقال حسّان يهجوها :

أشِرَتْ لَكَاعِ وكان عادتَها ... لؤما إذا أشِرَتْ مع الكُفْرِ [7]

---

(١) ترم أعظمى : تبلى .

(٢) فى ابن هشام : « يا بنت وقاع » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣ .

(٤) المعتمد : القاصد المؤلم .

(٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر . وبرد — بفتح فكسر — أى ذو برد .

(٦) من سيرة ابن هشام .

(٧) الخبر وهذا البيت فى سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤ ، والأبيات فى ديوانه ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

أخرجت مرقصة إلى أحُـــدٍ ... في القوم مُقتبِةً على بَــكرِ [١]

بَــكرٍ ثَقَــــالٍ لاحَرَاكَ به ... لاعن معاتَبـــــةٍ ولا زجرِ [٢]

أخرجت ثائرةً مُجـــارِيَةً [٣] ... بأبيك وابنك بعدُ في بدرِ [٤]

وبعمّك المتروكِ مجـــدلًا ... وأخيك منعفرَيْن في الجَفرِ [٥]

فرجعتِ صـــاغرةً بلا تِرَةٍ ... منّا ظفرتِ بهـــا ولا وِتْرِ

وقال أيضاً يهجوها :

لمن سَوَاقِطُ وِلْدَانٍ مطرّحَةٌ ... باتت تمخّض في بطحاء أجيادِ [٦]

باتت تمخّض لم تَشْهد قوابلُهـا ... إلّا الوحوش وإلّا جِنّة الوادِي

يظلّ يرجُمه الصبيانُ مُعفِراً ... وخاله وأبوه سيّدا النادِي [٧]

في أبيات كرهتُ ذكرها لفحشها .

•••

قال : وروى الواقديّ ، عن صفيّة بنت عبد المطّلب ، قالت : كنّا قد رفعنا [٨] يوم أحُد في الآطام ، ومعنا حسّان بنُ ثابت ، وكان من أجبن الناس ، ونحن في فارع ، فجاء نفر من يهودَ يرومون الأُطُم ، فقلت : دُونَك يابن الفُرَيْعة ، فقال : لا والله لا أستطيع القتال ، ويصعَد يهوديّ إلى الأُطُمِ ، فقلتُ : شدّ على يدي السيف ، ثم برئت ، ففعل ، فضربتُ

(١) مرقصة ، أي مرقصة بكرها ، ورقص البعير أسرع في سيره . وفي الديوان : « معنقة » .

(٢) البكر الثقال : البطيء .

(٣) في الديوان : « أقبلت زائرة سادرة » .

(٤) الديوان : « يوم ذي بدر » .

(٥) والجفر : البئر .

(٦) ديوانه ١٠٨ . وفي الديوان : « منبذة » .

(٧) معفرا ، أي علاه التراب ، ورواية الديوان :

قَدْ غادَرُوه لحرّ الوجهِ مُنْعَفِراً ... وخاله وأبوه سيّدا النادي

(٨) رفعنا : صعدنا .

عنق اليهودي ورميتُ برأسه إليهم، فلما رأوه انكشفوا ،قالت: وإنّي لفي فارع أوّل النهار مشرفة على الأُطُم ، فرأيتُ المراق ، فقلتُ أو من سلاحهم المَزاريق ! أفلا أراه هوى إلى أخي ولا أشعر ! ثم خرجت آخر النهار حتّى جئتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، وقد كنتُ أعرف انكشافَ المسلمين وأنا على الأُطُم برجوع حسّان إلى أقصى الأُطُم ، فلمّا رأى الدولة للمسلمين أقبل حتى وقف على جدار الأُطُم . قال :فلما انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي نسوةٌ من الأنصار لقيتُه وأصحابه أوزاع ، فأوّل من لقيتُ عليّ ابن أخي فقال: ارجعي ياعمّة، فإنّ في الناس تكشّفا، فقلت :رسول الله صلى الله عليه وآله؟قال صالح : قلت : ادللني عليه حتى أراه ، فأشار إليه إشارةً خفيّة ، فانتهيتُ إليه وبه الجراحة.

قال الواقديّ : وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول يومَ أُحُد : مافعل عمّي ، مافعل عمّي ! فخرج الحارث بن الصِّمّة يطلبه فأبطأ ، فخرج عليٌّ عليه السلام يطلبه فيقول :

يارِبِّ إنَّ الحارثَ بنَ الصِّمَّهْ ... كان رفيقا وبنا ذا ذِمَّهْ[1]

قد ضَلّ في مَهامِهٍ مُهِمَّهْ ... يلتمسُ الجنّةَ فيها ثَمَّهْ[2]

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولا ، فجاء فأخبرَ النبيَّ صلّى الله عليه وآله ، فأقبل يمشي حتّى وقف عليه فقال : ماوقفتُ موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا الموقف . فطلعتْ صفيّة ، فقال : يازُبير ، اغنِ عنّي أمّك ، وحمزة يُحفَر له ، فقال الزبير ياأمّه ، إنّ في الناس تكشّفا ، فارجعي ، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرى رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا رأته قالت : يارسولَ الله ، أين ابنُ أمي حمزة ؟ فقال : هو في الناس ؛ قالت: لاأرجع حتى أنظر إليه ، قال الزبير :فجعلت أطِدُها إلى الأرض حتى دُفن وقال رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٠٤ مع اختلاف في الرواية .

(٢) المهامه : جمع مهمة ، وهي المفازة البعيدة .

صلى الله عليه وآله : لولا أنْ تحزنَ نساؤنا لذلك لتركناه للعافية ، يعنى السِّباعَ والطيرَ حتى يحشرَ يوم القيامة من بطونِها وحَواصِلها .

قال الواقدىّ : ورُوِى أن صفيّة لمّا جاءت حالت الأنصارُ بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : دَعُوها ، فجلستْ عنده ، فجعلتْ إذا بكت يبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإذا نَشَجت[1] ينشج رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعلتْ فاطمةُ عليها السلام تبكى ، فلمّا بكتْ بكى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ثم قال : لن أُصابَ بمثل حمزة أبدا ، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفيّة وفاطمة : أبشِرَا ، أتانى جبرائيلُ عليه السلام فأخبرَنى أنّ حمزة مكتوبٌ فى أهل السَّمٰوات السَّبْع : حمزةُ بنُ عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله .

قال الواقدىّ : ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله بحمزةَ مَثْلا شديدا ، فحزنه ذلك وقال : إن ظفرتُ بقريش لأمثلنّ بثلاثين منهم ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾[3] فقال صلى الله عليه وآله : بل نصبر ، فلم يمثّل بأحد من قريش .

قال الواقدىّ : وقام أبو قتادةَ الأنصارىُّ فجعل ينال من قريش لما رأى من غَمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفى كلّ ذلك يشير إليه أن اجلس ثلاثا ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا أبا قتادة ، إنّ قريشا أهلُ أمانة ، من بغاهم العواثرَ كبّه الله لفيه ، وعسى إن طالت بك مدّة أن تحقِر عملك مع أعمالهم ، وفعالَك مع فعالهم ،

---

(١) يقال : نشج الباكى ، غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .
(٢) يقال : مثل بفلان مثلا ومثلة بالضم : نكل به .
(٣) سورة النحل : ١٢٦ .

ولا أن تبطَر قريشٌ لأخبرتُها بما لها عند الله تعالى . فقال أبو قتادة : والله يا رسولَ الله ما غضبتُ إلا لله ورسولِه حين نالوا منه ما نالوا ، فقال : صدقتَ . بئس القومُ كانوا لنبيِّهم .

قال الواقديّ : وكان عبدُ الله بن جحش قبلَ أن تقع الحربُ قال : يارسول الله ، إن هؤلاء القومَ قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهمّ أُقسِم عليك أن نلقى العدوَّ غداً فيقتلونى ويبقروا بطنى ويمثّلوا بى ، فتقول لى : فيمَ صُنِع بك هذا ؟ فأقول : فيك . قال : وأنا أسألك يا رسولَ الله أخرى ، أن تلِيَ تركتى من بعدى . فقال له : نعم ، فخرج عبدُ الله فقُتِل ومُثّل به كل المثل ، ودُفِن هو وحمزةُ فى قبرٍ واحد ، ووَلِى تركتَه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشترى لأمّه مالاً بخيبر .

قال الواقديّ : وأقبلتْ أختُه حَمنة بنتُ جحش ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا حَمْن[1] ، احتسبى ، قالت : مَن يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ ﴾[2] غفر الله له ورحمه ، وهنيئا له الشهادة ، ثم قال لها : احتسبى . قالت : مَن يا رسولَ الله ، قال : أخوكِ عبدَ الله ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيهِ راجِعُونَ ﴾[2] غفر الله له ورحمه وهنيئا له الشهادة ، ثم قال : احتسبى ، قالت : مَن يارسول ؟ قال : بعلك مُصعب بن عُمير ، فقالت : واحزناه ! ويقال : إنها قالت : واعقْراه .

قال محمد بن إسحاق فى كتابه : فصرختْ وولولَتْ . قال الواقديّ : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن للزوج من المرأة مكانًا ما هو لأحد . وهكذا روى ابن إسحاق أيضا .

قال الواقديّ : ثم قال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : لم قلت هذا ؟ قالت ذكرتُ يتم بنيه فراعنى . فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وآله لولده أن يُحسِن الله عليهم الخلف ،

---

(١) يا حمن ، مرخم « يا حمنة » . (٢) سورة البقرة : ١٥٦ .

فتزوّجتْ طلحة بن عبيد الله ، فولدتْ منه محمد بن طلحة ، فكان أوصَل الناس لولد مُصعب بن عُمير .

• • •

القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد

قال الواقديّ : حدثني موسى بنُ يعقوب ، عن عمّته ، عن أمّها ، عن المِقداد ، قال: لما تصافَّ القوم للقتال يومَ أحد ، جلس رسول الله صلّى الله عليه وآله تحت راية مُصعب بن عمير ، فلما قُتل أصحابُ اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى ، وأغارَ المسلمون على معسكرهم ينتهبونه ، ثم كرّ المشركون على المسلمين ، فأتوهم من خَلفهم ، فتفرّق الناس ، ونادى رسولُ الله صلى الله عليه وآله في أصحاب الألوية ، فقُتل مُصعبُ بن عُمَير حاملُ لوائهِ صلى الله عليه وآله ، وأخذَ رايةَ الخزرج سَعدُ بنُ عُبادة، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وآله تحتها ، وأصحابه محدِقون به ، ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الرّوم أحد بني عبد الدّار آخرَ نهار ذلك اليوم ، ونظرتُ إلى لواءِ الأوس مع أُسَيد بن حُضَير ، فناوَشوا المشركين ساعة، واقتتلوا على اختلاط من الصّفوف، ونادى المشركون بشعارهم : يالَلعُزّى! يالَهُبَل ! فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعاً ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما نالوا؛ لا والذي بعثه بالحقّ مازال شبراً واحداً، إنه لفي وجه العدوّ وتثوب إليه طائفةٌ من أصحابه مرّة، وتتفرّق عنه مرّة ، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه أو يرمي بالحجر حتى تحاجزوا، وكانت العِصابة التي ثبتتْ مع رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة عشر رجلاً ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار ، أما المهاجرون فعليٌّ عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن ابنُ عوف وسعدُ بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجرّاح والزّبير بن العوّام،

وأما الأنصار فالحُباب بن المنذر وأبو دُجانة [1] وعاصمُ بنُ ثابت بن أبي الأقلح والحارث ابنُ الصِّمّة وسهل بنُ حُنيف وسعدُ بن معاذ وأُسَيد بنُ حُضَير .

قال الواقديّ : وقد رُوِي أن سعد بن عبادة ومحمد بن مَسْلَمة ثبتا يومئذ ولم يفرّا . ومن روى ذلك جعلهما مكانَ سعد بن مُعاذ وأُسَيد بن حُضَير .

قال الواقديّ : وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فأمّا المهاجرون فعليٌّ عليه السلام ، وطلحةُ ، والزّبير ؛ وأما الأنصار فأبو دجانة والحارثُ بن الصِّمّة والحُباب بن المنذر وعاصم بنُ ثابت وسهل بنُ حنيف ، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحد ؛ وأمّا باقي المسلمين ففرّوا ورسولُ الله صلى الله عليه وآله يدعوهم في أخراهم حتى انتهى منهم إلى قريب من المِهْراس [2] .

قال الواقديّ : وحدّثني عتبة بن جبير عن يعقوب بن عُمير بن قَتادة قال : ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلا كلّهم يقول : وَجهي دون وجهك ، ونفسي دونَ نفسك ، وعليك السلام غير مودّع .

• • •

قلت : قد اختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا ، مع اتفاق الرُّواة كافّة على أن عثمانَ لم يثبت ، فالواقديّ ذكر أنه لم يثبت ، وأما محمد بن إسحاق والبلاذريّ فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ ، واتفقوا كلّهم على أن ضرارَ بن الخطاب الفهريّ قرَع رأسه بالرمح وقال : إنها نعمة مشكورة يابن الخطّاب ، إني آليت ألا أقتل رجلا من قريش .

ورَوَى ذلك محمد بن إسحاق وغيرُه ، ولم يختلفوا في ذلك ، وإنما اختلفوا ، هل قرَعه بالرمح وهو فارٌّ هارب ، أم مقدِمٌ ثابت ، والذين رَوَوْا أنه قرَعه بالرمح وهو هارب لم يقل

---

(١) أبو دجانة : هو سماك بن خرشة .

(٢) المهراس : ماء بأحد .

أحدٌ منهم إنه هرب حين هرب عثمان ، ولا إلى الجهة التي فرّ إليها عثمان ، وإنما هرب معتصما بالجبل ، وهذا ليس بعيب ولا ذَنْب ، لأنّ الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اعتَصَموا بالجبل كلُّهم وأصعدوا فيه ، ولـكن يَبقى الفرقُ بين من أصعَد في الجبل في آخر الأمر ومَنْ أصعَد فيـه والحربُ لم تضعْ أوزارها ، فإن كان عمرُ أصعد فيه آخر الأمر ، فـكل المسلمين هـكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وإن كان ذلك والحرب قائمـة بعد تفرّق .

ولم يختلف الرُّواة من أهل الحديث في أنّ أبا بكر لم يفرّ يومئذ ، وأنه ثبت فيمن ثبت ، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال ، والثبوت جهاد ، وفيه وحدَه كفاية .

وأمّا رُواة الشِّيعة فإنهم يروون أنه لم يثبت إلاّ عليّ وطلحة والزبير وأبو دُجانة وسهلُ ابنُ حنيف وعاصمُ بنُ ثابت ، ومنهم من رَوى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار ، ولا يعدّون أبا بكر وعمر منهم ، وروَى كثير من أصحاب الحديث أنّ عثمان جاء بعد ثالثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله إلى أين انتهيت ؟ فقال : إلى الأعرَص ، فقال : لقد ذهبتَ فيها عَريضة [1] .

• • •

رَوَى الواقديّ قال : كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه ، فقال : اذهب إلى أخيك فأبلغه عني ما أقول لك ، فإني لا أعلم أحداً يبلّغه غيرك . قال الوليد : أفعل . قال قل له : يقول لك عبد الرحمن : شهدتُ بدرا ولم تشهدْها ، وثبتُّ يوم أُحُد وولّيتَ ، وشهدتُ بيعةَ الرّضوان ولم تشهدْها ، فلمّا أخبره قال عثمان : صدَق أخي ، تخلّفتُ عن بدر على ابنةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مريضة ، فضَرَب لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله بسهمي وأجرى ، فـكنتُ بمنزلة من

---

(١) في النهاية لابن الأثير : « وفي حديث أحد قال للمنهزمين : لقد ذهبتم فيها عريضة ، أي واسعة » .

حضر بدرا ، وولّيت يومَ أُحد ، فعفا الله عنى فى مُحكَم كتابه . وأمّا بيعة الرّضوان فإنّى خرجتُ إلى أهل مكّة ، بعثنى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وقال : إنّ عثمان فى طاعة الله وطاعة رسوله ، وبايَعَ عنّى بإحدى يديه على الأخرى ، فكان شِمال النبيّ خيراً من يَمينى فلمّا جاء الوليدُ إلى عبد الرحمن بما قال قال : صَدَق أخى .

قال الواقدىّ : ونظر عمرُ إلى عثمان بنِ عفّان فقال : هذا ممّن عفا الله عنه ، وهم الذين تولّوْا يومَ التقى الجَمْعان ، والله ماعفا الله عن شىء فردّه . قال : وسأل رجل عبدَ الله بن عمر عن عثمانَ فقال : أذنَبَ يومَ أُحُدٍ ذنبا عظيما ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذنبا صغيرا فقتلتموه ! واحتجّ مَن روَى أن عمرَ فرّ يوم أحد بما روى أنّه جاءته فى أيام خلافته امرأة تطلب بُرْدا من بُرود كانت بين يديه ، وجاءت معها بنتٌ لعمر تطلب بُرْدا أيضا، فأعطى المرأة وردّ ابنته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن أبا هذه ثبَتَ يومَ أُحُد ، وأبا هذه فرّ يومَ أُحُد ولم يثبُت .

وروَى الواقدىّ أن عمر كان يحدّث فيقول : لمّا صاح الشيطان : قُتِل محمد ، قلت : أرْقَى فى الجبل كأنّى أرْوِيَة ، وجعل بعضُهم هذا حجّةً فى إثبات فرار عمر ، وعندى أنه ليس بحجة ، لأن تمام الخبر : فانتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[1] الآية، وأبو سُفيان فى سفح الجبل فى كَتيبته يرُومون أن يعلُوا الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ إنه ليس لهم أن يَعلونا . فانكشفوا ، وهذا يدل على أن رُقيَّه فى الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وهذا بأن يكون مَنقبةً له أشبه .

وروَى الواقدىّ قال : حدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جَهْم ، اسمُ أبى جهم عُبَيد ، قال : كان خالد بنُ الوليد يحدّث وهو بالشام فيقول : الحمد لله

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

الذى هدانى للإسلام ، لقد رأيتُنى ورأيتُ عمرَ بن الخطاب حين جال المسلمون وانهزموا يومَ أُحُد وما معه أحَد ، وإنى لفى كتيبةٍ خَشناء [1] ، فما عرفه منهم أحد غيرى ، وخشيتُ إن أغريت به من معى أن يصمُدوا له ، فنظرتُ إليه وهو متوجِّه إلى الشِّعب .

• • •

قلت : يجوز أن يكون هذا حقًّا ، ولا خلاف أنه توجّه إلى الشِّعب تاركا للحرب ، لكن يجوز أن يكون ذلك فى آخر الأمر لما يئس المسلمون من النُّصْرة ، فكلهم توجه نحوَ الشِّعب حينئذ ، وأيضا فإن خالدا متَّهم فى حقّ عمرَ بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشَّحْناء والشَّنآن ، فليس بمستنكَر من خالد أن ينعى عليه حركاته ، ويؤكّد صحة هذا الخبر ، وكون خالد عفَّ عن قتل عمر يومئذ ، فهو معلوم من حال النسب بينهما من قبل الأمّ ، فإن أمّ عمر حَنتمةُ بنتُ هاشم بن المغيرة ، وخالد هو ابن الوليد بن المغيرة ، فأمّ عمر ابنة عم خالد لَحًّا ، والرَّحِم تعطف .

حضرتُ عندَ محمد بن معدّ العلوىّ الموسوىّ الفقيه على رأى الشِّيعة الإماميّة رحمه الله فى داره بدرب الدوابّ ببغدادَ فى سنة ثمانٍ وستمائة ، وقارئ يقرأ عنده مغازى الواقدىّ ، فقرأ : حدثنا الواقدىّ قال : حدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن خالد بن رِياح ، عن أبى سُفيان مولى ابن أبى أحمد قال : سمعتُ محمدَ بنَ مَسْلمة يقول : سمعتْ أذُناىَ وأبصرتْ عيناىَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أُحُد وقد انكشف الناس إلى الجبل ، وهو يدعوهم وهم لا يَلْوُون عليه ، سمعتُه يقول : إلىّ يافلان ، إلىّ يافلان ، أنا رسولُ الله ، فما عرّج عليه واحدٌ منهما ومضَيا ، فأشار ابنُ معدّ إلىّ ، أن اسمَعْ ، فقلت : وما فى هذا ؟ قال : هذه كناية عنهما ، فقلتُ : ويجوز ألا يكون عنهما ، لعله عن غيرهما . قال : ليس فى الصحابة من

(١) كتيبة خشناء : كثيرة السلاح .

يحتشم ويَستحيا من ذكره بالفرار وما شابَهه من العيب ، فيضطر القائل إلى الكناية إلاما قلتُ له : هــذا وَهم[١] ، فقال : دَعْنا مِن جَدَلك ومنعِك ، ثم حلف أنّه ما عنى الواقدىُّ غيرَهما ، وأنه لو كان غيرَهما لذكَرَه صريحا ، وبان فى وجهه التنكّر من مخالفتى له .

***

رَوَى الواقدىّ قال : لمّا صاح إبليس : إن محمدا قد قُتِل ، تفرّق الناس ، فمنهم من ورد المدينة ، فــكان أول مَن وردها يُخبر أن محمدا قد قُتل ، سعدُ بن عثمان أبو عُبادة ، ثم ورد بعدَه رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن: أعَن رسولِ الله تفِرّون ! ويقول لهم ابنُ أمّ مكتوم : أعن رسول الله تفرون ؟ يؤنّب بهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله خَلّفه بالمدينة يصلّى بالناس ، ثم قال : دُلّونى عَلَى الطريق ـ يعنى طريقَ أُحُد ـ فدلّوه ، فجعل يستخبِر كلَّ من لقى فى الطريق حتى لِحَق القوم ، فعلم بسلامةِ النبى صلى الله عليه وسلّم ، ثم رجع . وكان ممن ولّى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة ابن حاطب وسواد بن غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر بلغ مَلَل[٢] ، وأوس بن قَيْظى فى نفر من بنى حارثة بلغوا الشّقرة[٣] ولقيتهم أمّ أيمن تحثى[٤] فى وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هاكَ المِغزَل فاغزِل به ، وهلمّ . واحتجّ من قال بفرار عمرَ بما رواه الواقدىّ فى كتاب المغازى فى قصّة الحديبية ، قال : قال عمر يومئذ : يارسول الله ، ألم تكن حدّثتَنا أنك ستدخل المسجدَ الحرام وتأخذُ مفتاحَ الكعبة وتُعرِّف مع المعرِّفين ، وهدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نُحِرَ ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أقلتُ لــكم فى سفركم هذا ؟ قال عمر : لا ، قال : أما إنكم ستدخلونه وآخذُ مفتاحَ الكعبة وأحلق رأسى ورءوسَكم ببَطْن مَكة وأعرِّف مع المعرِّفين ؛ ثم أقبَل على عمر وقال :أنسيتم يوم

---

(١) كذا فى ب : والذى فى ا « ممنوع » .

(٢) ملل : كجبل موضع بعينه . (٣) الشقرة : موضع معروف لبنى سليم .

(٤) يقال : حثا التراب فى وجهه يحثوه ويحثيه ، إذا رماه به .

أُحُد ، ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ ﴾[1] وأنا أدعوكم فى أُخراكم ! أنَسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾[2] ! أنسيتم يومَ كذا ! وجعل يذكّرهم أمورا ، أنسيتم يوم كذا ! فقال المسلمون : صدق اللهُ وصدَقَ رسولُه ، أنتَ يارسول الله أعلمُ بالله منّا ، فلمّا دخل عام القضيّة وحلق رأسَه قال : هــذا الذى كنتُ وعدتُكم به ، فلما كان يوم الفتح وأخذ مفتاح الكعبة قال : ادعُوا إلىّ عمرَ بنَ الخطّاب ، فجاء فقال : هــذا الذى كنتُ قلتُ لكم . قالوا : فلو لم يكن فرّ يومَ أُحُد لما قال له : أنَسيتم يومَ أحد إذ تُصعِدون ولا تَلْوونَ .

● ● ●

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم فى الجبل

قال الواقدىّ : حدّثنى موسى بنُ محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : لمّا صاح الشيطانُ لعنه الله : إنّ محمدا قد قتل يحزُنُهم بذلك ، تفرّقوا فى كلّ وجه ، وجعل الناسُ يمرّون على النبى صلّى الله عليه وآله لا يلوى عليه أحدٌ منهم ، ورسولُ الله يدعوهم فى أُخراهم ، حتى انتهت هزيمةُ قوم منهم إلى المِهراس ، فتوجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يريد أصحابَه فى الشِّعب فانتهى إلى الشِّعب وأصحابه فى الجبل أوزاع ، يذكرونَ مقتلَ مَن قُتِل منهم ، ويذكرون ماجاءهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله ، قال كعب بن مالك : فكنتُ أولَ من عرَفه وعليه المِغفَر ، فجعلت أصيحُ وأنا فى الشِّعب : هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حىّ ، فجعل يُومِئ إلىّ بيدِه على فيه أى اسكُت ، ثم دعا بلَأْمَتِى[3] فلَبِسها ونزع لأْمَته .

قال الواقدى : طلع رسولُ الله صلى الله عليه وآله على أصحابه فى الشِّعب بين السَّعدَيْن :

---

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب : ١٠ .
(٣) اللأمة : الدرع .

سَعْدِ بنِ عُبادة ، وسعد بن مُعاذ يتكفّأ في الدّرع ، وكان إذا مشى تكفأ تكفُّؤا ، ويقال : إنه كان يتوكّأ على طلحة بن عُبيد الله .

قال الواقدىّ : وما صلى يومئذ الظهر إلا جالسا للجُرْح الذى كان أصابه .

قال الواقدىّ : وقد كان طلحة قال له : إنّ بى قوة ، فقم لأحملك ، فحمله حتى انتهى إلى الصّخرة التى عَلَى فم شِعب الجبَل ، فلم يزل يحمله حتى رفعه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النّفر الذين ثبَتوا معه ، فلمّا نظر المسلمون إليهم ظنوهم قُرَيْشا ، فجعلوا يولُّون فى الشّعب هاربين منهم ، ثم جعل أبو دُجانة يُليح إليهم بعمامةٍ حمراء على رأسه ، فعرفوه فرجعوا ، أو بعضُهم .

قال الواقدىّ : ورُوى أنه لما طلع عليهم فى النفر الذّين ثبتوا معه وهم أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار — جعلوا يولون فى الجبل خائفين منهم يظنونهم المشركين ، جعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله يتبسّمُ إلى أبى بكر وهو على جنبه ويقول له : ألِحْ إليهم ، فجعل أبو بكر يليح إليهم وهم لا يُعرّجون حتى نزع أبو دجانة عصابةً حمراء على رأسه فأوْفَى[1] على الجبَل ، فجعل يصيح ويُليح ، فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وَضع أبو بردة بنُ نِيار سهما على كَبِد قوسه ، فأراد أن يرمى به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما تكلموا ونادام رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمسك ، وفرح المسلمون برؤيته حتى كأنّهم لم تُصبهم فى أنفسهم مصيبة ، وسُرُّوا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

قال الواقدىّ : ثم إنّ قوما من قريش صعدوا الجبلَ فعَلَوا على المسلمين وهم فى الشّعب . قال : فكان رافعُ بن خديج يحدِّث فيقول : إنى يومئذ إلى جَنْب أبى مسعود الأنصارى وهو يذكر من قتل من قومه ، ويسأل عنهم ، فيخبر برجال : منهم سعدُ بن

---

(١) أوفى : أشرف وعلا .

الربيع ، وخارجة بن زهير ، وهو يسترجع[1] ويترحّم عليهم ، وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حميمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فبينا هم على ذلك ردّ الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم ، فإذا عدوّهم فوقهم قد علوا ، وإذا كتائب المشركين بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون ، وندبنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وحضّنا على القتال، والله لكأنى أنظرُ إلى فلان وفلان فى عرض الجبل يعدوان هاربين .

قال الواقدىّ : فكان عمرُ يحدِّث يقول ، لمّا صاح الشيطان : قتل محمد ، أقبلتُ أرقى إلى الجبل ، فكأنى أرْوية ، فانتهيتُ إلى النبى صلّى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، وأبو سفيانَ فى سَفْح الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو ربّه : اللهم ليس لهم أن يَعلوا . فانكشفوا .

قال الواقدىّ : فكان أبو أُسيد الساعدىّ يحدّث فيقول : لقد رأيتُنا قبل أن يلقى النُّعاس علينا فى الشِّعب وإنّا لسلْم لمن أرادنا ، لما بنا من الحزن ، فألقى علينا النُّعاس ، فنمنا حتى تناطح الحجف[2] ، ثم فزعنا وكأنّا لم يصبنا قبلَ ذلك نكبة . قال : وقال الزبير ابنُ العوّام : غشينا النعاس فما منّا رجل إلا وذقنه فى صدره من النوم ، فأسمع معتّب بن قُشَير — وكان من المنافقين — يقول : وإنّى لكالحالم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾[3] ، فأنزل الله تعالى فيه ذلك .

قال : وقال أبو اليُسْر : لقد رأيتنى ذلك اليومَ فى رجال من قومى إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنزل الله عينا النّعاس أَمَنةً منه ، مامنهم رجل إلّا يغطّ غطيطا حتى إن الحجف لتناطح ، ولقد رأيتُ سيفَ بشر بن البراء بن مَعْرور سَقَط من يده

---

(١) استرجع : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .
(٢) الحجف بالتحريك : جمع حجفة ؛ وهى الترس .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

ومايشعر به حتى أخذه بعد ماتثلَّم ، وإنّ المشركين لتحتنا ، وسقط سيفُ أبي طلحة أيضا ولم يُصِب أهلَ الشكّ والنفاق نعاسٌ يومئذ ، وإنما أصاب النعاس أهلَ الإيمان واليقين، فكان المنافقون يتكلّم كلّ منهم بما في نفسه ، والمؤمنون ناعسون .

* * *

قلت : سألتُ ابن النجّار المحدّث عن هذا الموضع فقلت له : من قصّة أحُد تدلّ على أنّ المسلمين كانت الدولة لهم بادئَ الحال ، ثم صارت عليهم ، وصاح الشيطان: قُتل محمد ، فانهزم أكثرهم ، ثم ثاب أكثرُ المنهزمين إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله،فحاربوادونه حرْباً كثيرة طالت مدّتها حتى صار آخرُ النهار ، ثم أصعدوا في الجبل معتصمين به،وأصعد رسول الله صلى الله عليه وآله معهم ، فتحاجز الفريقان حينئذ ، وهذا هو الّذى يدلّ عليه تأمّل قصّة أحد ، إلّا أنّ بعض الروايات الّتى ذكرها الواقدىّ يقتضى غير ذلك ، نحو روايته في هذا الباب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لمّا صاح الشيطان : إنّ محمداقد قُتل ، كان ينادى المسلمين فلا يعرّجون عليه ، وإنما يصعدون في الجبل ، وإنّه وجّه نحو الجبل ، فانتهى إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتل من قُتل منهم ؛ وهذه الرواية تدلّ على أنه أصعد صلّى الله عليه وآله في الجبل من أوّل الحرب ، حيث صاح الشيطان ، وصياحُ الشيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لمّا غشيهم وهم مشتغلون بالنهب واختلط الناسُ ، فكيف هذا !

فقال : إنّ الشيطان صاح . قتل محمد دفعتين : دفعة في أوّل الحرب ، ودفعة في آخر الحرب ، لمّا تصرّم النهار وغشيت الكتائب رسول اللهصلى الله عليه وآلهوقد قُتل ناصروه وأكلتهم الحرب ، فلم يبق معه إلّا نفر يسير لايبلغون عشرة ، وهذه كانت أصعبُ وأشدّ من الأولى ، وفيها اعتصم ، وما اعتصم في صرخة الشيطان الأولى بالجبل ، بل ثبتوحامى عنه أصحابه ، ولقد لقى في الأولى مشقّة عظيمة من ابن قميئة وعُتبة بن أبي وقّاص وغيرهما ،

ولكنه لم يفارقْ عرصة الحرب ، وإنما فارقها وعَلِم أنّه لم يبق له وجه مُقام في صرختِه الثانية .

قلت له : فكان القومُ مختلطين في الصّرخة الثانية حتّى يَصرُخ الشيطان : قُتِل محمد ؟

قال : نعم ، المشركون قد أحاطوا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وعن بقيَ معه من أصحابه ، فاختلط المسلمون بهم ، وصاروا محصورين بينهم ، لقلّتهم بالنسبة إليهم ؛ وظنّ قوم من المشركين أنّهم قد قتلوا النبيّ صلّى الله عليه وآله لأنّهم فقدوا وجهه وصورتَه ، فنادى الشيطان : قُتِل محمّد ، ولم يكن قُتِل صلّى الله عليه وآله ، ولكن اشتبهتْ صورتُه عليهم وظنّوه غيرَه ، وأكثر من حامَى عنه في تلك الحال عليّ عليه السلام وأبو دُجانة وسهلُ ابنُ حنيف ، وحامَى هو عن نفسه ، وجرحُوه بأيديهم تارةً بالسهام ، وتارة بالسيف ولكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النّقع (١) ، وكانت قريشٌ تقتله واحداً من المسلمين ، ولو عرفوه بعينه في تلك الثورة لكان الأمر صعبا جدًّا ، ولكنّ الله تعالى عَصمه منهم بأن أزاغ أبصارَهم عنه ، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه ، وهو يَقرُب من الجبل حتّى صار في أعلى الجبل ، أصعَد من فم الشّعب إلى تدريج هناك في الجبل ، ورَقِي في ذلك التدريج صاعدا حتى صار في أعلى الجبل ، وتبعه النفر الثّلاثة فلحِقوا به .

قلتُ له : فما بال القوم الّذين صعدوا الجبلَ من المشركين ، وكيف كان إصعادهم وعوْدُهم ؟

قال : أصعَدُوا لحرب المسلمين لا لِطَلب رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ لأنّهم ظنوا أنه قد قُتِل ، وهذا هو كان السبب في عوْدهم من الجبل ، لأنهم قالوا : قد بلغنا الغرضَ

---

(١) النقع : غبار الحرب .

الأصل وقتلنا محمدا ، فما لنا والتصميم على الأوس والخزرج وغيرهم من أصحابه ، مع ما في ذلك من عظم الخطر بالأنفس !

قلت له : فإذا كان هذا قد خطر لهم ، فماذا صعدوا في الجبل .

قال : يخطر لك خاطر ، ويدعوك داع إلى بعض الحركات ، فإذا شرعت فيها خطر لك خاطر آخر يصرفك عنها ، فترجع ولا تتمها !

قلت : نعم فما بالهم لم يقصدوا قصد المدينة وينهبوها ؟

قال : كان فيها عبد الله بن أبي في ثلثمئة مقاتل وفيها خلق كثير من الأوس والخزرج ، لم يحضروا الحرب وهم مسلمون ، وطوائف أخر من المنافقين لم يخرجوا ، وطوائف أخرى من اليهود ، أولو بأس وقوة ، ولهم بالمدينة عيال وأهل ونساء ، وكل هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة ، ولم تكن قريش تأمن مع ذلك أن يأتيها رسول الله صلى الله عليه وآله من ورائها بمن يجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم ، فكان الرأي الأصوب لهم العدول عن المدينة وترك قصدها .

• • •

قال الواقدي : حدثني الضحاك بن عثمان ، عن حمزة بن سعيد ، قال : لما تحاجزوا وأراد أبو سفيان الانصراف ، أقبل يسير على فرس له حوراء [1] ، فوقف على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم في عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أعل هبل ! ثم صاح : أين ابن أبي كبشة ؟ يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دول .

وفي رواية أنه نادى أبا بكر وعمر أيضا ، فقال : أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ ثم قال : الحرب سجال ، حنظلة بحنظلة ، يعني حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن

---

(١) حوراء : واسعة العينين .

أبي سُفيان ، فقال عمر بن الخطّاب : يارسولَ الله، أجيبه ؟ قال : نعم فأجِبْه ، فلما قال: أُعل هُبَل قال عمرُ : الله أعلى وأجلّ .

ويُرْوَى انّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لعمر : قل له : الله أعلى وأجلّ ، فقال أبو سفيان : إن لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ، فقال عمر : أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل له : الله مولانا ولا مولى لكم ، فقال أبو سفيان : إنها قد أنعمت ، فقال : عنها يابن الخطاب ، فقال سعيد بن أبي سفيان : ألا إن الايام دول وان الحرب سجال ، فقال عمر : ولا سواء[1] ؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك لقد خِبْنا إذاً وخسرنا ، ثم قال : يابن الخطاب ، قمْ إليّ أكلّمك ، فقام إليه فقال : أنشدك بدينك : هل قتلنا محمدا ؟ قال : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندي أصدق من ابن قمئة ، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون في قتلاكم عنتا ومثلا ، ألا إنّ ذلك لم يكن عن رأي سراتنا ، ثم أدركته حَمِيَّة الجاهلية فقال : وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه؟ ثم نادى : ألا إنّ موعدكم بدر الصفراء ، على رأس الحول ، فوقف عمر وقفةً ينتظر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قل : نعم ، فانصرف أبو سفيانَ إلى أصحابه وأخذوا في الرّحيل ، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أن يُغيروا على المدينة فيهلك الذراريّ والنساء ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لسعد بن أبي وقّاص : اذهب فأتنا بخبر القوم ، فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا[2] الخيل فهو الظَّعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينـــة ، والذي نفسي بيده ، إن ساروا إليها لأسيرنّ إليهم ثم لأناجزنّهم . قال سعد : فتوجهت أسعى وأرصدت نفسي إن أفزعني شيء رجعت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم وأنا أسعى ، فبدأت بالسّعي حين ابتدأت ، فخرجت في آثارهم

---

(١) ولا سواء : يعني لا يستوي هذا وذاك .

(٢) جنبوا الخيل ، أي ساقوها إلى جانبهم .

حتى إذا كانوا بالعَقِيق[1] وأنا بحيث أراهم وأتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فقلت : إنه الظعن إلى بلادهم ، ثم وقفوا وقفةً بالعقيق ، وتشاوروا فى دخول المدينة ، فقال لهم صفوان ابن أمية : قد أصبتم القومَ ، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالُّون ، ولكم الظفر ، فإنكم لاتدرون ما يغشاكم ، فقد وليتم يومَ بدر ، لا والله ماتبعوكم وكان الظفر لهم . فيقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نهاهم صفوان . فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا فى المكمن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالمنكسر فقال : وُجِّه القوم يارسولَ الله إلى مكة ، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل . فقال : ماتقول ؟ قلت : ماقلت يارسول الله ، فخلا بى فقال : أحقٌّ ماتقول ؟ قلت : نعم يارسول الله ، قال : فما بالى رأيتك منكسرا ؟ فقلت : كرهت أن آتى المسلمين فرحا بقُفولهم إلى بلادهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن سعداً لمُجرَّب .

قال الواقدىّ : وقد روى خلاف هذا ، روى أن سعدا لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى سعد : خفِّض صوتك فإن الحرب خَدْعة ، فلا تُرِى الناس مثل هـذا الفرح بانصرافهم ، فإنما ردّهم الله تعالى .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابن أبى سَبْرة ، عن يحيى بن شبل ، عن أبى جعفر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص : إن رأيتَ القـوم يريدون المدينة فأخبرنى فيما بينى وبينك ، ولا تفتّ فى أعضاد المسلمين ، فذهب فرآهم قد امتطَوا الإبل ، فرجع ، فما ملك أن جعل يصيحُ سرورا بانصرافهم .

قال الواقدىّ : وقيـل لعمرو بن العاص : كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يومَ

---

(١) العقيق : موضع بالمدينة فيه عيون ونخيل . (ياقوت) .

أحد ؟ فقال : ما تريدون إلى ذلك ! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله ، ثم قال : لما كررنا عليهم أصبنا مَنْ أصبنا منهم وتفرّقوا فى كلّ وجه ، وفاءت لهم فئةٌ بعد ؛ فتشاورت قريش ، فقالوا : لنا الغلبة ، فلو انصرفنا ، فإنه بلغنا أن ابنَ أُبَيّ انصرف بثلث الناس ، وقد تخلّف الناسُ من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكرّوا علينا ، وفينا جراح ، وخيلنا عامّتها قد عُقِرت من النّبل ، فمضينا ، فما بلغنا الرّوحاء[1] حتى قام علينا عدّة منها ؛ وانصرفنا إلى مكة .

قال الواقدىّ : حدثنى إسحاق بن يحيى بن طلحة ، عن عائشة ؛ قال : سمعتُ أبا بكر يقول : لما كان يومُ أُحُد ورُمِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه حتى دخلتْ فى وجهه حَلْقتان من المِغْفر ، ، أقبلتُ أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد أقبل من قبَل المشرق يطير طيرانا ، فقلت : اللهمّ اجعله طلحة بن عبيدالله ؛ حتى توافينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح ، فبدرنى فقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى فأنتزعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر : فتركتُه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم صاحبَكم » ، يعنى طلحة ، فأخذ أبو عبيدة بثَنِيّته حلْقة المِغفر ، فنزعها وسقط على ظهره ، وسقطتْ ثنيّة أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقة بثنيّته الأخرى ، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم[2] . ويقال : إن الذى نزع الحلْقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبة بن وَهْب بن كلدة ؛ ويقال : أبو اليسر .

قال الواقدىّ : وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهب بن كلَدة .

قال الواقدىّ : وكان أبو سعيد الخدرىّ يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الروحاء : موضع على أربعين ميلا من المدينة .
(٢) الأثرم : الذى لا أسنان له .

أصيب وجهُ يومَ أحُد ، فدخلت الحلقتان من المِغفر فى وَجْنتيه ، فلمّا نُزِعتا جعل الدم يَسربُ كما يسرب الشَّنّ (١) ، فجعل مالك بنُ سِنان يمجّ الدمَ بفيه ، ثم ازدَرَدَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أحبّ أن ينظر إلى مَن خالط دمه بدمى فلينظر إلى مالك بن سِنان . فقيل لمالك : تشرب الدمَ ! فقال : نعمْ ؛ أشربُ دَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ مسّ دمُه دمى لم تُصِبْه النار » .

قال الواقدىّ : وقال أبو سعيد : كنتُ ممّن رُدّ من الشَّيخين (٢) لم يَجُزْ مع المُقاتِلة ، فلمّا كان من النّهار بلغنا مصابُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتفرّق الناسِ عنه ، جئتُ مع غِلمان بنى خُدْرَة نَعترِضُ لرسول الله صلى الله عليه وآله ننظر إلى سلامته ، فرجع بذلك إلى أهلنا ، فلقينا الناس متفرّقين ببطن قناة ، فلم يكن لنا همّة إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ننظر إليه ؛ فلما رآنى قال : سعدُ بنُ مالك ! قلتُ : نعم ، بأبى أنت وأمى ! ودنوتُ منه ، فقبّلت ركبته وهو على فرسه ؛ فقال : آجرَكَ الله فى أبيك ! ثم نظرت إلى وجهه ، وإذا فى وَجْنتيه مثل موضع الدِّرهم فى كلّ وَجْنة ، وإذا شجّةٌ فى جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفتهُ السفلى تَدمى ، وإذا فى رباعيَته اليمنى شَظِيّة ، وإذا على جُرحه شىءٌ أسود ، فسألت : ما هذا على وجهه ؟ فقالوا : حصيرٌ محرّق . وسألتُ : مَن أدْمى وجنتيه ؟ فقيل : ابن قمِيئة ، فقلتُ : فمن شجّه فى وجهه ؟ فقيل : ابنُ شهاب ؛ فقلتُ : مَن أصاب شفتيه ؟ قيل : عتبة بنُ أبى وَقّاص . فجعلت أعدُو بين يديه حتى نزل ببابه ، ما نزل إلا محمولا ، وأرى ركبتيه مجحوشتَيْن (٣) يتّكئ [على] (٤) السَّعْدَيْن : سعد بن معاذ وسعد ابن عُبادة ؛ حتى دخل بيته ، فلما غربت الشمسُ وأذّن بلالٌ بالصلاة ، خرج على تلك الحال

---

(١) الشن : القربة الخلق .

(٢) الشيخان : موضع بالمدينة ؛ كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وبها أطمان سميا به .

(٣) يقال : جحش الجلد : سحجه ؛ وهو كالخدش أو فوقه .

(٤) من ا .

متوكئاً على السَّعْدين : سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، ثم انصرف إلى بيته والناس فى المسجد يوقدون النيران يتكمدون بها من الجراح ، ثم أذّن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرُج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلالٌ عند بابه صلى الله عليه وسلم حتى ذهبَ ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يارسول الله ! فخرج ، وقد كان نائماً ، قال : فرمقتُه فإذا هو أخفّ فى مشيته منه حين دخل بيته ، فصلّيت معه العشاء ، ثم رجع إلى بيته قد صفّف له الرجالُ مابين بيته إلى مُصَلّاه يمشى وحده حتى دخل ، ورجعتُ إلى أهلى فخبّرتهم بسلامته ، فحمدوا الله وناموا ، وكانت وجوه الأوس والخزرج فى المسجد على النبى صلى الله عليه وسلم يحرُسونه فرَقاً من قريش أن تكرّ .

قال الواقدىّ : وخرجت فاطمة عليها السلام فى نساء ، وقد رأت الذى بوجه أبيها صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقَتْه ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اشتدَّ غضبُ الله على قوم دَمَّوا وجهَ رسوله ، وذهب علىّ عليه السلام فأتى بماء من المِهْراس ، وقال : لفاطمة امسكى هذا السيف غير ذميم ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مختضبا بالدم ، فقال : لئن كنت أحسنت القتال اليوم ، فلقد أحسن عاصمُ بن ثابت والحارث بن الصِّمّةوسهل بن حُنَيف ، وسيف أبى دُجانة غير مذموم ! هكذاروى الواقدىّ .

وروى محمد بنُ إسحاق أنّ عليًا عليه السلام قال لفاطمة بيتىْ شِعر ، وهما :

أفاطِمَ هاء السَّيفَ غيرَ ذميمِ   فلستُ برِعْديدٍ ولا بلئيمِ
لَعَمرى لقد جاهدتُ فى نصر أحمدٍ   وطاعة ربٍّ بالعباد رحيمِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لئن كنتَ صدقتَ القتال اليوم لقد صدق معك سِماكُ بنُ خَرَشة ، وسهل بن حُنَيف .

قال الواقدىّ : فلما أحضر علىٌّ عليه السلام ، الماء أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن يشرب منه ، فلم يستطع ، وقد كان عطشَ ، ووجد ريحا من الماء كرهَها ، فقال : هذا ماء آجن ، فتمضمض منه للدّم الّذى كان بفيه ثم مجّه ، وغسلت فاطمةُ به الدم عن أبيها صلّى الله عليه وسلم ، فخرج محمد بنُ مسلمةَ يطلبُ مع النساء ، وكنّ أربع عشرة امرأة ، قد جئن من المدينة يتلقّين الناس منهنّ فاطمة عليها السلام يحملن الطعامَ والشراب على ظهورهنّ ، ويسقين الجرحى ويُداوينَهم .

قال الواقدىّ : قال كعب بن مالك : رأيتُ عائشة وأمّ سليم على ظهورهما القِرَب تحملانها يوم أُحُد ، وكانت حَمْنة بنتُ جحش تسقى العطشَى وتداوى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسلمة عندهنّ ماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتدّ عطشه ، فذهب محمد ابن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حُسى — قناة عند قصور التيميين اليوم — فجاء بماء عذب ، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول : لن ينالوا منّا مثلها حتى تستلموا الرُّكن ! فلمّا رأت فاطمة الدّم لا يرقأ وهى تغسل جراحه ، وعلىٌّ يصبّ الماء عليها بالمجنّ ، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدّم . ويقال : إنها داوته بصوفة محرّقة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يداوى الجراح الذى فى وجهه بعظْمٍ بالٍ حتى ذهب أثرُه . ولقد مكث يجد وَهَنَ ضربة ابن قميئة على عاتقه شهرا أو أكثر من شهر ، ويداوى الأثر الذى فى وجهه بعظم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن ينصرف إلى المدينة : مَنْ يأتينا بخبر سعد بن الربيع؟ فإنّى رأيته — وأشار بيده إلى ناحية من الوادى — قد شرع فيه اثنا عشر سنانا ، فخرج محمد بن مسلمة — ويقال أُبىّ بن كعب — نحو تلك الناحية . قال : فأنا وسط القتلى لتعرّفهم ، إذ مررت به صريعا فى الوادى ، فناديته فلم يجب ، ثم قلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى إليك . قال : فتنفّس كما يتنفّس الطير ؛ ثم قال :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌّ ! قلتُ : نعم ، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثناعشر سنانا ، فقال : طعِنت اثنتى عشرة طعنة كلها أجافتنى ، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لم : الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ! والله مالكم عذر عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عينٌ تطرِف ؛ فلم أرِم[1] من عنده حتى مات ؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فرأيته استقبل القبلة رافعا يديه يقول: «اللهم ألقَ سعدَ بن الربيع وأنت عنه راضٍ » .

قال الواقدىّ : وخرجت السمداء بنتُ قيس ؛ إحدى نساء بنى دينار، وقد أصيبَ ابناها مع النبيّ صلّى الله عليه وآله بأحُد : النعمن بن عبدعمر ، وسُليم بن الحارث ،فلمّا نُعيا لها قالت : فما فعل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؟ قالوا : بخير ، هو بحمد الله صالح على ماتحبّين ، فقالت : أرُونيه أنظرُ إليه ، فأشاروا لها إليه ، فقالت : كلُّ مصيبة بعدَك يارسول الله جَلَل[2] ! وخرجتْ تسوقُ بابنيها بعيرا ، [تردّهما إلى المدينة][3] ؛ فلقيتْها عائشةُ ؛ فقالت : ماوراءكِ ؟ فأخبرتْها[4] ، قالت : فمن هؤلاء معك ؟ قالت ابناى ؛ حَلْ حَلْ[5] تحملهما إلى القبر .

قال الواقدىّ . وكان حمزةُ بن عبد المطّلب أوّل من جئ به إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد انصراف قريش ـ أو كان من أوّلهم ـ فصلّى عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ثم قال :رأيتُ الملائكةَ تغسله ـ قالوا : لأنّ حمزة كان جُنُبا ذلك اليوم ـ ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله الشهداء يومئذ ، وقال : لُفّوهم بدمائهم وجراحهم ، فإنه ليس أحد يجرَح فى سبيل الله إلّا جاء يومَ القيامة لونُ جُرحه لون الدّم ، وريحه ريح المسك ، ثم

(١) لم أرم : لم أبرح . (٢) جلل : أى هينة . (٣) من الواقدى .

(٤) فى الواقدى : قالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فبحمد الله لم يمت ، واتخذالله من المؤمنين شهداء:

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾

(٥) حل : زجر للبعير .

قال : ضَموم فأنا الشّهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وكان حمزةُ أوّلَ من كُبِّرَ عليه أربعا ، ثم جمع إليه الشهداء فكان كلّما أُتِىَ بشهيد وُضِع إلى جَنْب حمزة فصلّى عليه وعلى الشهيد، حتى صلّى عليه سبعين مرة ، لأنّ الشهداء سبعون .

قال الواقدىّ . ويقال : كان يُؤتَى بتسعة وحمزة عاشرهم ، فيصلّى عليهم ، وتُرفع التسعة ، ويُترك حمزة مكانه ، ويؤتَى بتسعة آخرين فيوضعون إلى جَنْب حمزة فيُصلّى عليه وعليهم ، حتى فعل ذلك سبعَ مرّات ، ويقال : إنه كَبَّرَ عليه خمسا وسبعا وتسعا .

قال الواقدىّ : وقد اختلفت الرواية فى هذا ، وكان طلحة بنُ عُبيد الله وابن عبّاس وجابر بن عبدالله يقولون : صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على قتلَى أُحُد ، وقال : « أنا شهيدٌ على هؤلاء » ؛ فقال أبو بكر : ألسنا إخوانهم أسلمنا كما أسلموا ، وجاهَدْنا كما جاهدوا ! قال : بلى ، ولكنّ هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم شيئاً ، ولا أدرى ما تحدِثون بعدى ! فبكى أبو بكر وقال : إنّا لكائنون بعدك !

وقال أنس بنُ مالك وسعيد بنُ المسيّب : لم يصلِّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قتلى أُحُد .

قال الواقدىّ : وقال لأهل القتلى : احفروا وأوسِعوا وأحسنوا ، وادفنوا الاثنين والثلاثة فى القبر ، وقدِّموا أكثرَهم قرآنا . وأمر بحمزة أن تمدّ بُردته عليه وهو فى القبر ، وكانت قصيرة ، فكانوا إذا خمّروا بها رأسَه بدت رجلاه ، وإذا خمّروا بها رجليه انكشف وجهه ، فبكى المسلمون يومئذ ، فقالوا . يارسول الله : عمُّ رسول الله يُقتل فلا يوجد له ثوب ! فقال : بلى ؛ إنكم بأرض جَرْدية[1] ذات أحجار ، وستفتح ـ يعنى الأرياف والأمصار ـ فيخرج الناسُ إليها ، ثم يبعثون إلى أهليهم ، والمدينة خيرلهم لوكانوا يعلمون؛

---

(١) جردية ؛ قال الواقدى : التى ليس بها شىء من الأشجار .

والذى نفسى بيده لاتصبر نفسٌ على لأوائها وشدّتها إلّا كنتُ لها شفيعا ـ أو قال : شهيدا يومَ القيامة .

قال الواقدىّ : وأُتِيَ عبدُ الرحمن بنُ عوف فى خلافة عثمانَ بثياب وطعام فقال : ولكنّ حمزة لم يوجد له كفن ، ومصعب بنُ عُمَير لم يوجد له كَفَن ، وكانا خيراً منّى !

قال الواقدىّ : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بمُصعب بن عُمير وهو مقتول مسجًّى ببردة خَلَق ، فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقّ حُلّة ولا أحسن لِمّةً منك، ثم أنت اليوم أشعث الرأس فى هذه البُردة ! ثم أمر به فقُبِر ، ونزل فى قبره أخوه أبو الرّوم وعامر بن ربيعة وسُوَيبطة بن عمرو بن حَرْملة ، ونزل فى قبر حمزة علىٌّ عليه السلام والزُّبيرُ وأبو بكر وعمرُ ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ على حفرته .

قال الواقدىّ : ثم إنّ الناس أو عامّتهم حمَلوا قتلاهم إلى المدينة ، فدُفن بالبقيع منهم عدّة ، عند دار زيد بن ثابت ، ودُفن بعضهم ببنى سَلِمة ، فنادى منادى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله: ردّوا القتلى إلى مضاجعهم ـ وكان الناس قد دفنوا قتلاهم ـ فلم يردّ أحدٌ أحداً منهم إلّا رجلا واحدا أدركه المنادى ولم يُدفن ، وهو شمّاس بن عثمان المخزومىّ ، كان قد حُمل إلى المدينة وبه رَمَق ، فأُدخل على عائشة فقالت أمّ سلمة: ابن عمّى يدخل إلى غيرى! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : احملوه إلى أمّ سلمة ، فحملوه إليها فمات عندها ، فأمر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أن يُردّ إلى أُحُد فيُدفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها ، وكان قد مكث يوماً وليلةً ولم يذق شيئاً ، فلم يصلّ عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله ولا غسّله .

قال الواقدىّ : فأمّا القبور المجتمعة هناك فكثير من الناس يظنّها قبورَ قتلى أُحُد ، وكان طلحة بن عبيد الله وعبّاد بن تميم المازنىّ يقولان: هى قبور قوم من الأعراب كانوا

عامَ الرَّمادة في عهد عمرَ هناك ، فماتوا ، فتلك قبورهم . وكان ابن أبي ذئب وعبدُ العزيز ابن محمد يقولان : لانعرف تلك القبورَ المحتمة ، إنّما هي قبورُ ناس من أهل البادية ، قالوا : إنّا نعرف قبرَ حمزة وقبرَ عبد الله بن حزام وقبرَ سهل بن قيس ، ولا نعرف غيرَ ذلك .

قال الواقديّ : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يزور قتلى أُحُد في كلّ حَوْل ، وإذا لقوه بالشِّعب رَفَع صوتَه يقول : السّلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدّار ! وكان أبو بكر يَفعل مِثلَ ذلك ، وكذلك عمرُ بنُ الخطّاب ، ثم عثمان ، ثم معاوية ، حين يمرّ حاجّا ومعتمِراً .

قال : وكانت فاطمةُ بنتُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله تأتيهم بينَ اليومَين والثلاثة فتبكي عندهم وتدعو ، وكان سعدُ بنُ أبي وقّاص يذهب إلى ماله بالغابة ، فيأتي من خلف قبور الشُّهداء فيقول : السّلام عليكم ، ثلاثا ، ويقول : لا يسلّم عليهم أحدٌ إلّا ردُّوا عليه السلام إلى يوم القيامة . قال : ومرّ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله على قبر مُصعَب بن عُمير ، فوقف عليه ، ودعا وقرأ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] ، ثم قال : إنّ هؤلاء شهداء عند الله يومَ القيامة ، فأتوهم فزُوروهم وسلِّموا عليهم ، والّذي نفسي بيده لا يسلّمُ عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلّا ردُّوا عليه . وكان أبو سعيد الخُدْريّ يقف على قبر حمزةَ فيدعو ويقرأ ويقول مِثلَ ذلك . وكانت أمّ سَلَمة رحمها الله ، تذهب فتسلِّم عليهم في كلّ شهر فتظلّ يومَها ، فجاءت يوماً ومعها غلامُها أنبهان ، فلم يسلِّم ، فقالت : أي لُكَع ! ألا تُسلِّم عليهم ! والله لا يسلّم عليهم أحدٌ إلا ردّوا عليه إلى يوم القيامة .

قال : وكان أبو هريرةَ وعبدُ الله بن عمرَ يذهبان فيسلّمان عليهم ؛ قالت فاطمة

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

الخزاعيّة : سلّمتُ على قبر حمزة يوماً ومعي أختٌ لي ؛ فسمعنا من القبر قائلا يقـول : وعليـكما السلام ورحمة الله ! قالت : ولم يكن قريبا أحدٌ من النّاس .

قال الواقديّ : فلمّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من دفنهم دعا بفرسه فركبه، وخرج المسلمون حوله عامّتهم جرحى ، ولا مثل بنى سلِمة وبنى عبد الأشهل ،فلمّا كانوا بأصل الحرّة قال : اصطفّوا ، فاصطفّت الرجال صفّين ، وخلفهم النساء وعدّتهن أربع عشرةَ امرأةً ، فرفع يديه فدعا ، فقال : اللهمّ لك الحمد كلّه ، اللهمّ لاقابضَ لما بسطتَ ، ولا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطيَ لما منعت ، ولا هاديَ لمن أضللت ، ولامُضِلَّ لمن هَدَيت، ولا مقرِّب لما باعدْت ، ولا مباعِدَ لما قرّبت . اللهمّ إنّى أسألك من بركتك ورحمتك وفضلِك وعافيتك ، اللهمّ إنى أسألك النعيمَ المقيمَ الّذى لايحول ولايزول،اللهمّ إنى أسألك الأمن يومَ الخوف ، والغناء يومَ الفاقة ، عائذاً بك ، اللهمّ من شرّ ما أعطيتَ ، ومن شرّ مامنعت ، اللهمّ توفّنا مسلمين ، اللهمّ حبّب إلينا الإيمان ، وزيّنه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعِصيانَ ، واجعلنا من الرّاشدين ، اللهمّ عذّب كَفَرة أهل الكتاب الّذين يُكَذّبون رسلك ، ويصدّون عن سبيلك ، اللهمّ أنزل عليهم رِجْسَك وعذابك إله الحقّ ، آمين !

قال الواقديّ : وأقبل حتّى نزل ببنى حارثة يمينا حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم ، فقال : لـكنّ حمزة لابَواكى له ! فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرجت إليه أمّ عامر الأشهليّة ، وتركت النّوح ،فنظرتْ إليه وعليه الدّرع كما هى ، فقالت : كلّ مصيبة بعدك جَلَل . وخرجتْ كبشةُ بنتعُبَيْد ابن معاوية بن بَلْحَارِث بن الخزرج تَعْدُو نحوَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وهو واقف على فرسِه ، وسعد بنُ معاذ آخِذ بعِنان فرسه ، فقال سعد : يارسول الله ، أمّى ، فقال : مرحبا بها ! فدنت حتّى تأمّلته ، وقالت : إذ رأيتُك سالما فقدشَفَت[1] المصيبة.فعزّاها بعمرو

---

(١) شفت المصيبة ؛ أى هانت .

ابن معاذ ، ثم قال : يا أمّ سعد : أبشرى وبشّرى أهليهم أنّ قتلاهم قد ترافقوا فى الجنّة جميعا وهم اثنا عشر رجلا ، وقد شفعوا فى أهليهم ، فقالت : رضينا يارسولَ الله ، ومن يبكى عليهم بعدَ هذا ! ثم قالت : يارسولَ الله ، ادع لمن خلّفوا ، فقال : اللهمّ أذهب حزنَ قلوبهم ، وآجر مصيبتهم ، وأحسِن الخلف على مَن خلّفوا . ثم قال لسعد بن مُعاذ : خلّ أبا عمرو الدّابة ؛ فخلّ الفرس ، وتبعه الناس ، فقال : يا أبا عمرو ، إنّ الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتى يومَ القيامة جرحُه كأغزر ما كان؛ اللون لونُ دم ، والرّيح ريحُ مسك ، فمن كان مجروحا فليقرّ فى داره وليداوِ جرحه ، ولا تبلغ معى بيتى ؛ عزمة منّى . فنادى فيهم سعد : عزمة من رسول الله صلّى الله عليه وآله ألا يتبعه جريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلّف كلّ مجروح ، وباتوا يُوقِدون النّيران ويُداوُون الجراح ، وإنّ فيهم لثلاثين جريحا ، ومضى سعد بنُ معاذ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقهن ، فلم تبق امرأة إلّا جاء بها إلى بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فبكَين بين المغرِب والعشاء ، وقام رسولُ الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النّوم لثُلُث اللّيل ، فسمع البكاء فقال : ماهذا ؟ قيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة ، فقال : رضى الله تعالى عنكنّ وعن أولادكنّ ؛ وأمرَ النساء أن يرجعن إلى منازلهنّ ، قالت أمّ سعد بن مُعاذ : فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالُنا ، فما بكت منّا امرأة قطّ إلّا بدأت بحمزةَ إلى يومنا هذا . ويقال : إنّ مُعاذ بن جبَل جاء بنساء بنى سَلِمة ، وجاء عبدُ الله بنُ رَواحة بنساء بلحارث بن الخزرج ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : ماأردت هذا ؛ ونهاهنّ الغد عن النّوح أشدّ النّهى .

قال الواقدىّ : وحمل ابنُ أُبىّ والمنافقون معه يَشمَتون ويُسَرّون بما أصاب المسلمين، ويُظهرون أقبحَ القول ، ورجع عبدُ الله بنُ أُبىّ إلى أبيه وهو جريح ، فبات يَكوِى الجراحة بالنّار ، حتّى ذهب عامّة اللّيل وأبوه يقول : ما كان خروجُك مع محمد إلى هذا

الوجه برأيي ؛ عصاني محمد وأطاع الولدان ! واللهِ لكأني كنتُ أنظر إلى هذا ، فقال ابنه : الذي صَنع اللهُ لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله . قال : وأظهرت اليهودُ القولَ السيِّء ، وقالوا : ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أُصيب هكذا نبيٌّ قطّ في بدنه وأصيبَ في أصحابه ! وجعل المنافقون يُخذّلون[1] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ويأمرونهم بالتفرّق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله : لو كان من قُتِل منكم عندنا ما قُتِل ؛ حتى سَمِع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن ، فمَشَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يستأذنه في قتل مَن سَمِع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له : يا عمر ، إن الله مُظهِر دينه ، ومعزّ نبيّه ، ولليهود ذِمّة فلا أقتلهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله يقولون ، فقال : أليس يُظهرون شهادةَ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ! قال : بلى ، وإنما يفعلون تعوّذا من السّيف ، وقد بان لنا أمرُهم ، وأبدى الله أضغانَهم عند هذه النّكبة ، فقال : إني نُهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله يابن الخطّاب ، إن قريشا لن ينالوا منا مثلَ هذا اليوم حتى تَستلِم الرّكن[2] .

ورَوَى ابنُ عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : إخوانكم لما أُصيبوا بأُحُد جُعِلت أرواحُهم في أجواف طَيرٍ خُضر ، ترِدُ أنهار الجنة فتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديلَ من ذهب في ظِلّ العرش ، فما وجدوا طيب مَطعمِهم ومَشربهم ورأوا حسنَ مُنقَلَبهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يزهدوا في الجهاد ، وينكلوا عند الحرب ! فقال لهم الله تعالى : أنا أُبلّغهم عنكم ، فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[3] .

* * *

---

(١) يخذلون عنه : يمنعون من نصرته .

(٢) استلم الركن : قبله أو لمسه بيده .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقدي : حدثني موسى بن شيبة ، عن قَطَن بن وهيب الليثي ، قال : لمّا تحاجز الفريقان ، ووجّه قريش إلى مكة ، وامتطوا الإبل ، وجنّبوا الخيل ، سار وَحْشيّ ، عبد جُبَير ابنِ مُطعم على راحلته أربعا ، فقدِم مكة يبشر قريشا بمصاب المسلمين ، فانتهى إلى الثنية التي تطلع على الحَجُون فنادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ، مرارا ، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن يأتيهم بما يكرهون ، فلما رضي منهم قال : أبشروا فقد قتلنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مِثلَها في زَحْف قطّ ، وجرحنا محمدا فأثبتناه بالجراح ، وقتلنا رأسَ الكتيبة حمزة بن عبد المطّلب ، فتفرّق الناسُ عنه في كلّ وجه بالشماتة بقتل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وبإظهار السرور ، وخلا جُبير بنُ مطعم بوحشيّ ، فقال : انظر ما تقول ! قال وحشيّ : قد والله صدقت . قال : قتلتَ حمزة ؟ قال : إي والله ولقد زرّقته بالمزراق[1] في بطنه ، فخرج من بين فخذيه ، ثم نودي فلم يجب ، فأخذت كبده وحملتها إليك لتراها . فقال : أذهبت حزن نسائنا ، وبرّدت حرّ قلوبنا ؛ فأمر يومئذ نساءه بمراجعة الطِّيب والدّهن .

قال الواقدي : وقد كان عبدُ الله بنُ أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ لما انكشف المشركون بأحُد في أول الأمر ، خرج هاربا على وجهه ، وكرِهَ أن يقدم مكة ، فقدِم الطائف ، فأخبر ثقيفا أنّ أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا ، وكنت أول من قدم عليكم ، ثم جاءهم الخبر بعدُ أن قريشا ظفرتْ وعادت الدولةُ لها .

قال الواقدي : فسارت قريش قافلةً إلى مكة ، فدخلتْها ظافرةً ، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظيرما دخل عليهم من الكآبة والحزن يومَ بدر ، وكان ما دخل

---

(١) المزراق : الرمح القصير ، وزرقه ، أي رماه .

على قلوب المسلمين من الغيظ والحزن يومئذ نظير مادخل عليهم من السرور والجذل يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[2]؛ قال: يعني إنكم يوم بدر قتلتم من قريش سبعين، وأسرتم سبعين، وأما يوم أحد فقتل منكم سبعون، ولم يؤسر منكم أحد، فقد أصبتم قريشا بمثلي ماأصابوكم يوم أحد، وقوله: ﴿أَنَّى هَذَا﴾ أى كيف هذا، ونحن موعودون بالنصر ونزول الملائكة، وفينانبي ينزل عليه الوحيُ من السماء! فقال لهم في الجواب: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، يعني الرُّماةَ الذين خالفوا الأمر وعصوا الرسول، وإنما كان النصر ونزول الملائكة مشروطا بالطاعة وألا يعصى أمرُ الرسول، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[3]، فعلقه على الشرط!

* * *

القول في مقتل أبي عزة الجُمحيّ ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص ابن امية بن عبد شمس

قال الواقديّ: أما أبو عزّة ـ واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة ابن جمح ـ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه أسيرا يوم أُحُد ـ ولم يؤخذ يومَ أُحُد أسيرٌ غيره ـ فقال: يامحمد، مُنّ عليّ: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ المؤمن لا يُلدَغ من جُحر مرتين، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضَيك، فتقول: سخرتُ بمحمد مرتين. ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

(١) سورة آل عمران ١٤٠
(٢) سورة آل عمران ١٦٥.
(٣) سورة آل عمران ١٢٥.

قال الواقدىّ : وقد سمعنا فى أسره غيرَ هذا ، حدّثنى بكير بن مسمار ، قال: لمّا انصرف المشركون عن أُحُد نزلوا بحمراء الأسد فى أول الليل ساعةً ، ثم رحلوا وتركوا أبا عزّة مكانه حتى ارتفع النهار ، فلَحِقه المسلمون وهو مستنبه يتلدّد ، وكان الّذى أخذه عاصم ابنُ ثابت ، فأمره النبي صلّى الله عليه وآله فضرب عنقه .

* * *

قلت : وهذه الرواية هى الصحيحة عندى ، لأنّ المسلمين لم تكن حالهم يومَ أُحُد حال مَنْ يتهيّأ له أسرُ أحد من المشركين فى المعركة لِما أصابهم من الوَهَن .

فأمّا معاوية بن المغيرة فروى البلاذرىّ أنّه هو الّذى جَدَع أنف حمزة ومثّل به ، وأنّه انهزم يوم أُحُد فمضى على وجهه ، فبات قريباً من المدينة ، فلمّا أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبى العاص ـ وهو ابن عمّه لحًّا ـ فضرب بابه ، فقالت أمّ كلثوم زوجتُه وهى ابنة رسول الله صلّى الله عليه وآله : ليس هو هاهنا ، فقال : ابعثى إليه ؛ فإنّ له عندى ثمنَ بعير ابتعتُه منه عامَ أوّل ، وقد جئتُه به ، فإنْ لم يجىء ذهبت . فأرسلت إليه ، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا جاء قال لمعاوية : أهلكتَنى وأهلكتَ[1] نفسك ! ماجاء بك ؟ قال : يابن عمّ ، لم يكن أحدٌ أقرب إلىّ ولا أمسّ رَحِماً بى منك ، فجئتك لتجيرنى ، فأدخله عثمان دارَه وصيّره فى ناحية منها ، ثمّ خرج إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ليأخذ له منه أماناً ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ معاوية فى المدينة ، وقد أصبح بها ، فاطلبوه . فقال بعضهم : ما كان ليَعْدُوَ منزل عثمان ، فاطلبوه به ، فدخلوا منزلَ عثمان ، فأشارت أمّ كلثوم إلى الموضع الّذى صيّره فيه ، فاستخرجوه من تحت حمارة لهم ، فانطلقوا به إلى النبى صلّى الله عليه وآله ، فقال عثمان حين رآه : والّذى بعثك بالحقّ ماجئت إلّا لأطلبَ له الأمان ، فهَبْه لى ، فوهَبه له ، وأجّله ثلاثاً ،

(١) البلاذرى : « أهلكتنى وتفسك » .

وأقسم : لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها ليقتلنّه . وخرج عثمانُ فجهّزه واشترى له بعيراً، ثم قال : ارتحل . وسار رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى حمراء الأسد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبارَ النبىّ صلّى الله عليه وآله ، ويأتى بها قريشاً، فلمّا كان فى اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ معاوية أصبح قريباً لم ينفذه فاطلبوه . فأصابوه وقد أخطأ الطريقَ ، فأدركوه ، وكان اللّذان أسرعا فى طلبه زيد بن حارثة وعمّار بنُ ياسر ، فوجداه بالحمّاء[1] فضربه زيد بالسّيف ، وقال عمّار : إنّ لى فيه حقّاً ، فرمياه بسهم فقتلاه ، ثم انصرفا إلى المدينة بخبره ، ويقال : إنه أُدرك على ثمانية أميال من المدينة ، فلم يزل زيدٌ وعمّار يرميانه بالنبل حتّى مات .

قال : ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أمّ عبد الملك بن مروان .

قال : وذكر الواقدىّ فى كتابه مثل هذه الرّواية سواء .

قال البلاذُرىّ : وقال ابن الكلبى : إنّ معاوية بن المغيرة جدَعَ أنفَ حمزةَ يومَ أُحُد وهو قتيل ، فأُخِذ بقرب أُحد، فقُتل على أُحُدٍ بعد انصراف قريش بثلاث، ولا عَقِب له إلّا عائشة أمّ عبد الملك بن مَرْوان . قال : ويقال : إنّ عليّاً عليه السلام هو الّذى قَتل معاويةَ بن المغيرة[2] .

* * *

قلت: وروايةُ ابن الكلبى عندى أصحّ؛ لأنّ هزيمة المشركين كانت فى الصّدمة الأولى عقيبَ قتلِ بنى عبد الدار أصحاب الألوية ، وكان قتل حمزةَ بعد ذلك لمّا كرّ خالدُ بنُ الوليد الخيلَ من وراء المسلمين، فاختلطوا ، ونقَص صفّهم ، وقتل بعضُهم بعضاً، فكيف يصحّ أن يجتمع لمعاوية كونه قد جَدَع أنف حمزة ، وكونه قد انهزم مع المشركين فى الصّدمة الأولى ! هذا متناقض ، لأنّه إذا كان قد انهزم فى أوّل الحرب استحال أن يكون

(١) الحماء : تطلق على ثلاثة مواضع بالمدينة .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٧ ، ٣٢٨ مع تصرف واختصار .

حاضرا عند حمزة حين قُتل. والصحيح ماذكره ابنُ الكلبيّ من أنّه شهد الحربَ كلّها، وجدَع أنف حمزة، ثم حصل فى أيدى المسلمين بعد انصراف قريش، لأنّه تأخر عنهم لعارضٍ عرَض له فأدركه حينُه، فقُتِل.

* * *

القول فى مقتل المجـــذّر

ابن زياد البلوىّ والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقدىّ: كان المجذّر بن زياد البَلَوىّ حليف بنى عوف بن الخزرج ممّن شهد بَدْرا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له قصّة فى الجاهليّة قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وآله المدينةَ، وذلك أنّ حُضَير الكتائب، وهو والد أُسيد بن حُضَير، جاء إلى بنى عَمرو بن عوف، فكلّم سويد بنَ الصامت وخَوّات بن جُبير وأبا لُبابة بنَ عبد المنذر — ويقال سهل بن حُنَيف — فقال: هل لكم أن تَزُورونى فأسقيَكم شرابا، وأنحر لكم، وتقيمون عندى أيّاما! قالوا: نعم، نحن نأتيك يومَ كذا، فلمّا كان ذلك اليوم جاءوه فنحَر لهم جَزورا، وسقاهم خمْرا، وأقاموا عنده ثلاثة أيّام حتّى تغيّر اللحم — وكان سويدُ بنُ الصامت يومئذ شيخا كبيرا — فلمّا مضت الأيّام الثلاثة قالوا: ماترانا إلّا راجعين إلى أهلنا! فقال حُضَير: ما أحببتم! إنْ أحببتم فأقيموا، وإن أحببتم فانصرفوا، فخرج الفتيان بسُوَيد بن الصامت يَحملانه على جَمَل من الثَّمَل[1]؛ فمرّوا لاصقين بالحرّة حتّى كانوا قريبا من بنى عينة[2]، فجلس سُويد يبول وهو ثمِلٌ سُكْراً، فبصُر به إنسان من الخزرج، فخرج حتى أتى المجذّر بن زياد، فقال: هل لك فى الغَنيمة الباردة! قال: ماهى؟ قال: سويد بن الصامت، أعزَل لا سِلاحَ معه، ثَمِل، فخرج المجذّر بن زياد بالسيف مُصلَتا، فلمّا رآه الفتيانِ وهما أعزلان لاسلاح معهما ولّيا، والعَداوة بين الأوس

(١) الثمل بفتحتين: أى السكر. (٢) الواقدى: «عصبة».

والخزرج شديدة . فانصرفا مسرعَين ، وثبت الشيخُ ولا حَراكَ به ، فوقف المجذّر بن ذياد، فقال : قد أمكنَ اللهُ منك ! قال : ماتريد بي ؟ قال : قتلك . قال : فارفع عن الطعام ، واخفض عن الدّماغ ، فإذا رجعتَ إلى أمّك ، فقل : إني قتلت سويدَ بن الصامت. فقتله، فكان قتلُه هو الذى هيّج وقعة بُعاث . فلمّا قدِم رسولُ الله صلى الله عليه وآله المدينة أسلم الحارث بنُ سويد بن الصامت ، وأسلمَ المجذّر فشهدا بدرا ، فجعل الحارث بنُ سُوَيد يطلب المجذّر فى المعركة ليقتله بأبيه ، فلا يقدِر عليه يومئذ ؛ فلمّا كان يومُ أُحُد وَجالَ المسلمون تلك الجَوْلة ، أتاه الحارث مِن خلفه فضرَب عُنقَه ، فرجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، ثم خرج إلى حَمْراء الأسد ، فلمّا رجع من حمراءالأسدأتاهجبرائيل عليه السلامُ ، فأخبره أنّ الحارث بنَ سُويدقتل المجذّر غيلةً ، وأمَرَه بقتله ، وركب رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى قُباء فى اليوم الذى أخبرَه جبرائيل فى يوم حارّ — وكان ذلك يوما لا يركب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قُباء ، إنما كانت الأيام التى يأتى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله قُباء يوم السبت . ويوم الاثنين — فلمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مسجدَ قُباء صلّى فيه ماشاء الله أن يصلّى ، وسمعت الأنصارُ فجاءوا يسلّمون عليه ، وأنكروا إتيانَه تلك الساعة ، فى ذلك اليوم . فجلس عليه السلام يتحدّث ويتصفّح الناسَ حتّى طلع الحارثُ بن سويد فى مِلحفةٍ مورّسة [1] ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عُوَيْمَ بنَ ساعدة فقال له : قدّم الحارثَ بنَ سويد إلى باب المسجد فاضربْ عنقه بمجذّر بن ذياد ، فإنّه قتلَه يومَ أُحُد . فأخذه عويم ، فقال الحارث : دعْنى أُكلّمْ رسولَ الله — ورسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يركب ، ودعا بحماره إلى باب المسجد — فجعل الحارث يقول : قد والله قتلتُه يارسول الله ، وما كان قتْلى إيّاه رجوعا عن الإسلام

---

(١) مورسة : مصبوغة بالورس وهو نبات باليمن معروف .

ولا ارتيابا فيه ، ولكنه حمية الشيطان ، وأمرٌ وكلتُ فيه إلى نفسى ، وإنى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت ، وأخرج دِيَتَه وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبةً ، وأطعم ستين مسكينا ، إنى أتوب إلى الله يارسول الله ! وجعل يُمسِك بركاب رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو المجذّر حضور ، لا يقول لهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله شيئا ، حتى إذا استوعب كلامه قال : قدِّمه ياعويم فاضرب عنقه . وركِب رسول الله صلى الله عليه وآله فقدّمه عويم بن ساعدة على باب المسجد ، فضرب عنقه .

قال الواقدىّ : ويقال : إنّ الذى أعلمَ رسول الله قتلَ الحارث المجذّر يومَ أُحُد حبيب بن يساف ، نظر إليه حين قتله ، فجاء إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله يتفحّص عن هذا الأمر ، فبينا هو على حماره نزل جبرائيل عليه السلام ، فخبّره بذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عُوَيما فضرب عنقه ، ففى ذلك قال حسان :

يا حارِ فى سِنَة من نوم أوّلكم ... أم كنتَ ويحكَ مغترًّا بجبريلِ [1]

فأمّا البلاذرىّ فإنه ذكر هذا ، وقال : ويقال إنّ الجلاس بنَ سُوَيد بن الصامت هو الذى قتل المجذّر يوم أُحُد غِيلةً ؛ إلا أنّ شعر حسّان يدلّ على أنه الحارث [2] .

قال الواقدىّ والبلاذرىّ : وكان سويدُ بن الصامت حين ضربه المجذّر بقىَ قليلا ثم مات ، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده :

أبلغ جُلاسًا وعبدَ الله مألُكةً ... وإن دعيتَ فلا تخذُلْهما حارِ

(١) ديوانه ٢١٨ ، وبعده :

أمْ كنتَ بابن زِيادٍ حين تقتُلُه ... بِغِرّةٍ فى فَضاء الله مَجهولِ
وقلتُمُ لن نُرَى والله مُبصِرُكم ... وفيكُمُ مُحْكَمُ الآياتِ والقِيلِ
محمّدٌ والعزيزُ الله يُخبِرُه ... بِما يُكِنُّ سرِيرات الأقاويلِ

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٢ .

اقتلْ جِذارة إذْ ما كنتَ لاقيَهمْ   والحيَّ عوفًا على عُرفٍ وإنكارِ

قال البلاذرىّ : جذرة وجذارة أَخَوان ، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج[1] .

* * *

قلت : هذه الرّوايات كما ترَى ، وقد ذكر ابن ماكولا فى « الإكمال » أنّ الحارث بنَ سويد قتَل المجذَّر غيلةً يوم أحُد ، ثمّ التحق بمكّة كافرا ، ذكره فى حرف الميم من هذا الكتاب ، وهذا هو الأشبه عندى .

* * *

القول فيمن مات من المسلمين بأُحُد جملة

قال الواقدىّ : ذكر سعيد بن المسيّب وأبو سعيد الخدْرىّ أنه قتِل من الأنصار خاصّة أحدٌ وسبعون ، وبمثله قال مجاهد .

قال : فأربعةٌ من قريش ، وهم حمزة بن عبد المطّلب ؛ قتله وحشىّ ، وعبد الله بن جحش بن رئاب ؛ قَتَله أبو الحكم بن الأخنس بن شَريق ، وشمّاس بن عثمان ابن الشريد من بنى مخزوم ؛ قتله أبىُّ بن خلف ، ومصعب بن عمير ؛ قتله ابن قَمِيئة .

قال : وقد زاد قوم خامسا ، وهو سعدٌ مولى حاطب من بنى أسَد بن عبدالعُزّى. وقال قوم أيضا : إنّ أبا سلَمة بن عبد الأسد المخزومىّ جُرِحَ يومَ أُحُد ، ومات من تلك الجراحة بعد أيّام .

قال الواقدىّ : وقال قوم : قتل ابنا الهبيب من بنى سعْد بن ليث ، وهما عبد الله

---

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

وعبد الرحمن ورجلان من بنى مُزَينة وهب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عُقْبة ابن قابوس؛ فيكون جميعُ من قُتِل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلا، فأمّا تفصيل أسماء الأنصار فمذكورٌ في كتب المحدّثين، وليس هذا الموضع مكانَ ذكره.

• • •

القول فيمن قتل من المشركين بأحُد

قال الواقديّ: قُتل من بنى عبد الدار طلحةُ بن أبى طلحة صاحبُ لواء قريش؛ قتلَه علىّ بن أبى طالب عليه السلام مبارزة، وعثمان بن أبى طلحة؛ قتله حمزةُ بن عبدالمطلب وأبو سعيد بن أبى طلحة؛ قتله سعدُ بن أبى وقاص، ومسافع بن طلحة بن أبى طلحة، قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وكلاب بن طلحة بن أبى طلحة؛ قتله الزبير بن العوّام والحارث بن طلحة بن أبى طلحة، قتله عاصم بن ثابت، والجلاس بن طلحة بن أبى طلحة؛ قتله طلحة بن عبيد الله، وأرطاة بن عبد شرحبيل؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقارظ[1] بن شُرَيح بن عثمان بن عبد الدار - ويُروَى قاسط بالسين والطاء المهملتين - قال الواقديّ: لا يُدرَى من قتله، وقال البلاذرىّ[2]: قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وصواب مولاهم: قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقيل: قتله قزمان[3] - وأبو عزير ابن عمير أخو مُصعَب بن عمير، قتله قزمان، فهؤلاء أحد عشر.

ومن بنى أسد بن عبدالعزّى عبدُ الله بن حميد بن زُهير بن الحارث بن أسد؛ قتله أبو دُجانة فى رواية الواقدىّ، وفى رواية محمد بن إسحاق، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام. وقال البلاذُرىّ: قال ابن الكلبىّ: إنّ عبد الله بن حميد قتل يوم بدر

---

(١) الواقدى: «قارظ»، والبلاذرى: «قاسط».
(٢) أنساب الأشراف: ١: ٣٢٤.
(٣) أنساب الأشراف: «غيره».

ومن بنى زُهْرة أبو الحكم بن الأخنس بن شَرِيق ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وسباع بن عبد العُزّى الخُزاعى - واسم عبد العزّى عمرو بن نَضْلة ابن عبّاس بن سليم ، وهو ابن أم أنمار الحجّامة بمكّة - قتله حمزة بن عبد المطلب؛ فهذان رجلان .

ومن بنى مخزوم أمَيّة بن أبى حذيفة بن المغيرة ؛ قتله علىّ عليه السلام،وهشام بن أبى أميّة بن المغيرة ؛ قتله قزمان ، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان ، وخالد بن أعلم العُقَيلى ؛ قتله قزمان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ؛ قتله الحارث بن الصِّمّة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ عبيد بن حاجز؛قتله أبو دُجانة،وشَيبة بن مالك بن المضرّب قتله طلحةُ بن عبيد الله . وهذان اثنان .

ومن بنى جُمَح أُبَىّ بن خَلَف ؛ قتله رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، وأبو عزّة ، قتله عاصمُ بن ثابت صَبْرًا بأمر رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فهذان اثنان .

ومن بنى عبدِ مناة بن كنانة خالدُ بنُ سُفيان بن عُوَيف ، وأبو الشَّعْثاء ابن سُفيان بن عويف ، وأبو الحَمْراء بن سُفيان بن عويف ، وغراب بن سُفيان ابن عُوَيف ، هؤلاء الإخوة الأربعة قتلهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى رواية محمد بن حبيب .

وأما الواقدىّ فلم يذكر فى باب من قُتل من المشركين بأُحُد لهم قاتلا معيّنا،ولكنه ذكر فى كلام آخر قبل هذا الباب أنّ أبا سَبْرة بن الحارث بن علقمة قتل أحد بنى سفيان ابن عويف ، وأن رشيدا الفارسىّ مولى بنى معاوية لقى آخر من بنى سُفيان بن عويف مقنّعا فى الحديد وهو يقول : أنا ابن عوَيف ؛ فيعرض له سعد مولى حاطب ، فضربه ابن

عويف ضربةً جزّله باثنتين ، فأقبل رشيد على ابن عويف فضربه على عاتقه ـ فقطع الدّرع ـ حتى جزله اثنتين وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يراه ويسمعه : ألا قلتَ : أنا الغلام الأنصاريّ ! قال : فيعرض لرشيد أخٌ للمقتول أحدبني سفيان بن عويف أيضا ، وأقبل يعدُو نحوه كأنه كلبٌ ، يقول : أنا ابن عويف ،ويضربه رشيد أيضا على رأسه وعليه المغفر ، ففلق رأسه ، وقال : خذها وأنا الغلام الأنصاريّ ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! فكناه رسول الله صلّى الله عليه وآله يومئذ ولا ولَدَ له .

قلت : فأمّا البلاذريّ فلم يذكر لهم قاتلا ، ولكنه عدّهم في جملة من قُتل من المشركين بأُحُد ؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر مَنْ قتلهم، فإنْ صحّت رواية الواقديّ فعليّ عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلّا واحدا، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قتلاه عليه السلام . وقد رأيتُ في بعض كتب أبي الحسن المدائنيّ أيضا أن عليًا عليه السلام هو الذي قتل بني سفيان بن عويف يوم أُحُد ، وروى له شعرا في ذلك .

ومن بني عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، قتله عليٌّ عليه السلام في إحدى الروايات ، وقيل : قتله زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر .

فجميع من قُتل من المشركين يوم أُحُد ثمانية وعشرون ، قتل عليٌّ عليه السلام منهم ـ ما اتفق عليه وما اختلف فيه ـ اثنى عشر ؛ وهو إلى جملة القتلى كعدّة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ ، وهو قريبٌ من النّصف .

* * *

القول فى خروج النبي صلى الله عليه وآله وبعد انصرافه من أُحُد إلى المشركين ليوقع بهم على ماهو به من الوَهَن

قال الواقدى : بلغ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد عزموا أن يردُّوا إلى المدينة فينهبوها ، فأحبَّ أن يريهم قوّة ، فصلَّى الصبح يوم الأحد لثمان خلون من شوال ومعه وجوه الأوس والخزرج ، وكانوا باتوا تلك الليلة ببابه يحرسونه من البيات ، فيهم سعد بن عبادة ، وسعد بن مُعاذ ، والحُباب بن المنذر ، وأوس بن خولىّ ، وقتادة بن النعمان فى عدّة منهم . فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادى فى الناس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرُكم بطلب عدوّكم ، ولا يخرج معنا إلّا من شهد القتال بالأمس ، فخرج سعد بن معاذ راجعا إلى قومه يأمرهم بالمسير ، والجراح فى الناس فاشية ، عامة بنى عبد الأشهل جريح ، بل كلّها ، فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوّكم . قال : يقول أُسَيد بنُ حضير — وبه سبع جراحات ، وهو يريد أن يداويها : سمعا وطاعةً لله ولرسوله ! فأخذ سلاحه ولم يعرِّج على دواء جراحه ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة ، فأمرهم بالمسير ، فلبسوا ولحقوا ، وجاء أبو قتادة أهل خربا ، وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو ، فوثبوا إلى سلاحهم ، ولم يعرِّجُوا على جراحاتهم ، فخرج من بنى سلِمة أربعون جريحا ، بالطُّفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحا ، وبخراش بن الصِّمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحا ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات ، حتى وافَوْا النبيّ صلى الله عليه وسلّم ببئر أبى عنبة ، وعليهم السلاح ،

---

(١) مغازى الواقدى ٣٢٥ وما بعدها .

وقد صفّوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية ، قال : اللهمّ ارحمْ بني سلِمة .

قال الواقديّ : وحدّثني عتبة بن جبيرة عن رجال [من] [1] قومه : أنّ عبدالله بن سهل ورافعَ بن سهل من بني عبد الأشهل رجعا من أُحُد وبهما جراحٌ كثيرة وعبدالله أثقلهما جرحا ، فلمّا أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومَه يخبرُهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأمرُهم بطلب العدوّ ، قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركْنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَغبْنٌ ، والله ماعندنا دابّة نركبها ، ولا ندري كيف نصنع ! قال عبد الله انطلق بنا . قال رافع : لا والله مابي مشي ، قال أخوه : انطلق بنا نقصد ونجوز ، وخرجا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبدُ الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشي الآخر عقبة ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : ماحبسكما ؟ فأخبراه بعلّتهما ، فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكما مدّة كانت لكما مراكبُ من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخير لكما .

قال الواقديّ : وقال جابر بنُ عبد الله : يارسولَ الله ؛ إنّ مناديا نادى ألا يخرج معنا إلّا مَنْ حضر القتال بالأمس ، وقد كنتُ حريصاً بالأمس على الحضور ، ولكنّ أبي خلّفني على أخواتٍ لي ، وقال : يابنيّ لاينبغي لك أن تدعهنّ ولا رجلَ معهنّ ، وأخاف عليهنّ ، وهنّ نُسَيّات ضعاف ، وأنا خارج مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لعلّ الله يرزقُني الشهادة ، فتخلّفت عليهنّ ، فاستأثر عليّ بالشهادة ، وكنت رجوتُها ، فأْذَن لي يارسولَ الله أن أسيرَ معك . فأذن له رسولُ الله صلى الله عليه وآله . قال جابر : فلم يخرج معه أحدٌ لم يَشهد القتالَ بالأمس غيري ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال . فأبى ذلك

(١) من الواقدي .

عليهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بلوائه وهو معقود لم يحلّ من أمس ، فدفعه إلى علىّ عليه السلام ، ويقال : دَفَعَه إلى أبى بكر ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مجروح ، فى وجهه أثرُ الحلْقتين ، ومشجوج فى جَبْهته فى أصول الشعر ، ورباعيَتُهُ قد شظيتْ ، وشفَتُهُ قد كُلِمتْ من باطنها ، ومَنكِبه الأيمن مُوهَنٌ بضربة ابن قيئة، ورُكبتاه مَجحوشَتان ؛ فدخل المسجدَ فصلّى ركعتين ، والناس قد حَشَدوا ، ونزل أهلُ العوالى[1] حيث جاءهم الصريخ[2] . ودعا بفرسه على باب المسجد ، وتلقّاه طلحة بنُ عبيد الله ، وقد سمع المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله ! فإذا هو وعليه الدّرع والمغفَر لا يُرَى منه إلّا عَيناه ، فقال : ياطلحة ، سلاحَكَ ، قال : قريباً ، قال طلحة : فأخرج ، وأعدو فألبس درعى وآخذ سيفى ، وأطرح دَرَقتى فى صدرى ، وإنّ بى لتسع جراحات ، ولأنا أهتمّ بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله منّى بجراحى ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على طلحة، فقال : أين تَرى القوم الآن؟ قال: هم بالسيّالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذلك الذى ظننت ، أما إنهم ياطلحة لن ينالوا منّا مثلَ أمسِ حتى يفتح اللهُ مكةَ علينا ، قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة نفر من أسلم طليعةً فى آثار القوم، فانقطع أحدُهم ، وانقطع قبالُ نعلِ الآخر ، ولحق الثالث بقريش وهم بحمْراء الأسد ، ولهم زَجل[3] يأتمرون[4] فى الرجوع إلى المدينة ، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك، ولحق الذى انقطع قبال نعله بصاحبه ، وبَصُرتْ قريش بالرجلين ، فعطفتْ عليهما ، فأصابوهما ، وانتهى المسلمون إلى مَصرَعهما بحمْراء الأسد ، فقبرهما رسول الله صلى الله عليه وآله فى قبر واحد، فهما القرينان .

---

(١) العوالى : ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال .
(٢) الصريخ : المغيث .
(٣) زجل ، أى صوت وجلبة .
(٤) يأتمرون : يتشاورون .

قال الواقدى : اسماها سليط ونعمان .

قال الواقدى : قال جابر بن عبد الله : كانت عامة أزوادنا ذلك اليوم التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً تمرا حتى وافت حمراء الأسد ، وساق جزرا، فنحروا فى يوم ثنتين ، وفى يوم ثلاثا ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمرهم أن يوقدوا النيران : فيوقد كل رجل نارا ، فلقد كنا تلك الليلة نوقد خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه ،وكان ذلك مما كبت الله به عدونا .

قال الواقدى : وجاء معبد بن أبى معبد الخزاعى ـ وهو يومئذ مشرك ـ إلى النبى صلى الله عليه وآله ، وكانت خزاعة سلما[1] للنبى صلى الله عليه وآله ، فقال : يامحمد عز علينا ما أصابك فى نفسك ، وما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك،وأن المصيبة كانت بغيرك ، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشا بالروحاء[2] وهم يقولون : لا محمدا أصبتم ، ولا الكواعب أردفتم ، فبئسما صنعتم ، وهم مجمعون على الرجوع إلى المدينة ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ماصنعنا شيئا ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، وقبل أن يكون لهم وفر ، وكان المتكلم بهذا عكرمة بن أبى جهل، فلما جاء معبد إلى أبى سفيان : قال : هذا معبد ، وعنده الخبر ، ماوراءك يامعبد ؟ قال : تركت محمدا وأصحابه خلفى يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ،وقد غضبوا[3] لقومهم غضبا شديدا ولمن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويحك ،ماتقول؟قال:والله ماأرى

---

(١) سلما ، أى مسالمون .
(٢) الروحاء : قطيعة كانت لبنى ن سام ، على نحو أربعين ميلا من المدينة .
(٣) ا الواقدى : « وغضبوا » .

أن ترتحلوا حتى تروا نواصيَ (١) الخيل ، ولقد (٢) حلني ما رأيت منهم أن قلتُ أبياتاً ، قالوا : وماهي ؟ فأنشدهم هذا الشعر :

كادت تهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيل (٣)

تَعْدو بأُسْدٍ ضِراه لا تنابلة (٤) ... عندَ اللقاء ولا مِيلٍ مَعازيلِ (٥)

فقلتُ ويلُ ابن حرب من لقائهمُ ... إذا تَغطْمطت البَطحاء بالجيل ! (٦)

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلعَ معبد ، وقال لهم صفوان : ياقوم ،لا تفعلوا ؛ فإن القوم قد حربوا (٧) ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلّف من الخروج ؛ فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم إليهم أن تكون الدولة عليكم . قال : فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أرشدهم صفوانُ وما كانَ برشيد ، ثم قال : والذى نفسي بيده لقد سُوِّمت لهم الحجارة ،ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب، قال : فانصرفَ القومُ سِراعا خائفين من الطلب لهم ، ومرّ بأبى سفيان قومٌ من عبد القيس يريدون المدينة ، فقال لهم :هل أنتم مُبلِغو محمد وأصحابه ما أرسلكم به ؛ على أن أوقِرَ لكم أباعركم زبيبا غداً بعكاظ ، إن أنتم جئتموني ! قالوا : نعم ،قال : حيثما

---

(١) الواقدى : « حتى ترى نواصى الخيل » . (٢) الواقدى : « ثم قال معبد . . . » .

(٣) الأبيات فى ابن هشام ٣ : ٥٤ . تهدّ ، أى تسقط من الإعياء . والجرد : الخيل العتاق . والأبابيل : الجماعات .

(٤) ابن هشام : « تردى بأسد كرام » . والتنابلة : القصار .

(٥) الميل : جمع أميل ، وهو الذى لا رمح له . ومعازيل : جمع معزال ؛ وهو من لا سلاح معه

(٦) تغطمطت : اهتزت واضطربت . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصنف من الناس ، وبعدها فى ابن هشام :

إنّى نذيرٌ لأهلِ البَسْلِ ضاحيةً ... لكلِّ ذى إربةٍ منهمْ ومَعْقُولِ

من جيشِ أحمد لا وحش قنابلُهُ ... وليسَ يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقيلِ

(٧) حربوا ، أى غضبوا .

لقيتم محمدا وأصحابه فأخبروهم أنّا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنّا آثاركم. وانطلق أبو سُفيان إلى مكة ، وقدمَ الركبُ على النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه بالحمراء فأخبروهم بالذي أمرهم أبو سفيان ، فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأُنزل ذلك في القرآن ، وأرسل معبدٌ رجلا من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ثلاث إلى المدينة .

الفصل الخامس في شرح غزاة مؤتة

نذكرها من كتاب الواقدي — ونزيد على ذلك مارواه محمد بن إسحاق في كتابه على عادتنا فيما تقدم

قال الواقدي : حدثني[1] ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم ، قال : بعث رسولُ الله صلى الله عليه وآله الحارث بن عُمير الأزديّ في سنة ثمان إلى مَلِك بُصْرَى بكتاب ، فلمّا نزلَ مؤتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسّاني ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رُسُل محمّد . قال : نعم ، فأمَرَ به فأُوثِق رِباطا ثم قدّمه فضرب عنقه ، ولم يُقتَل لرسول الله صلّى الله عليه وآله رسولٌ غيره ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، فاشتدّ عليه ، وندب الناسَ وأخبرَهم بقتل الحارث ، فأسرعوا وخرجوا ، فعسكروا بالجرف ، فلما صلّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله الظّهرَ جلسَ وجلسَ أصحابُه حوله ، وجاء النعمان بن مهص اليهوديّ فوقفَ مع الناس ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بنُ رَوَاحة ، فإن أصيب ابن رواحة فليرتضِ المسلمون من بينهم رجلا فليجعلوه عليهم . فقال النعمان بن مهص : يا أبا القاسم ، إن كنت نبيّاً فسيصاب من سمّيت قليلا كانوا أو كثيرا ، إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرّجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سمّى مائة أصيبوا جميعا . ثم جعل اليهوديّ يقول لزيد بن حارثة : اعهد فلا ترجع إلى محمّد أبدا إن كان نبيّاً . قال زيد : أشهد أنه نبيّ صادق فلمّا أجمعوا

---

(١) أخبار غزوة مؤتة في الواقدي ص ٤٠١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٧ وما بعدها .

السير وعَقَدَ رسول الله صلى الله عليه وآله لهم اللّواء بيده دفَعه إلى زيد بن حارثة ، وهو لواء أبيض ، ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودّعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف ، فلما ساروا فى معسكرهم ناداهم المسلمون : دفَع الله عنكم ، وردكم صالحين سالمين غانمين ، فقال عبد الله بن رَوَاحة :

لكنّنى أسألُ الرّحمنَ مغفـــرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تقذِفُ الزَّبَدَا [1]

أو طعنةً بيـــدىْ حرّانَ مجهـــزةً ... بحَرْبةٍ تَنفُذُ الأحشاءَ والكَبِدا [2]

حتى يقولوا إذا مَرّوا على جَـــدَثى ... يا أرشَدَ اللهُ من غازٍ فقـــد رَشَدا [3]

* * *

قلت : اتفق المحدّثون على أنّ زيدَ بنَ حارثة كان هو الأمير الأوّل ، وأنكرتِ الشّيعة ذلك ، وقالوا : كان جعفرُ بنُ أبى طالب هو الأمير الأوّل ، فإن قُتِل فزيدُ بنُ حارثة ، فإن قتل فعبد الله بن رَوَاحة ، وَرَوَوْا فى ذلك رواياتٍ ، وقد وجدتُ فى الأشعار التى ذكرها محمّد بنُ إسحاق فى كتابِ المغازى ما يَشهد لقولهم ، فمن ذلك مارواه عن حسّانَ ابن ثابت وهو :

تأوّبنى ليـــلٌ بيـــثربَ أعسَرُ ... وهمٌّ إذا ماَنوّم النـــاسُ مُسْهِرُ [4]

لذِكْرَى حبيبٍ هيّجتْ لى عَـبرةً ... سَفُوحاً وأسبابُ البكاءِ التـــذكُّرُ

بَلَى إنّ فقدانَ الحبيب بليــــةٌ [5] ... وكم من كريمٍ يُبتـــلَى ثم يَصبرُ !

فلا يُبعِدنّ اللهُ قتـــلَى تتابعوا ... بمؤتةَ منهمْ ذو الجناحَـــين جعفرُ

وزيد وعبـــد الله حــين تتابعوا ... جميعا وأسبابُ المنيّـــة تَخطِرُ

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٩ . ذات فرغ : أى واسعة . والزبد ، أصله ما يعلو الماء إذا غلا ؛ وأراد هنا ما يعلو الدم الذى ينفجر من الطعنة .

(٢) مجهزة : سريعة القتل . وتنفذ الأحشاء : تخرقها وتصل إليها .

(٣) ابن هشام : « وقد » .

(٤) ديوانه ١٧٩ — ١٨١ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٠ — ٤٤٢ . تأوبنى : عاودنى ورجع إلىّ ، ومسهر : مانع إلى السهر . (٥) الديوان : « بلاء وفقدان الحبيب » .

رأيتُ خيــارَ المؤمنين تواردُوا ... شَعوبَ وخَلْقٌ بعدَهمْ يتأخّرُ (1)

غَـداةَ غدوْا بالمؤمنين يقودُهمْ ... إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهرُ

أغرُّ كضوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامةَ أصعرُ (2)

فطاعَنَ حتى مالَ غيرَ موسَّـدٍ ... بمُعترَكٍ فيـه القَنا متكسّرُ

فصارَ مع المستشهَدين ثوابُهُ ... جِنانٌ وملتفُّ الحدائق أخضرُ

وكنا نرى في جعفرٍ من محمدٍ ... وَقارا وأمراً حازما حين يأمرُ

وما زال في الإسلام من آلِ هاشمٍ ... دعائمُ صدقٍ لا تُرام ومَفخرُ

همُ جبلُ الإسلامِ والناسُ حولَهمْ ... رِضامٌ إلى طَودٍ يطول ويَقهرُ

بهَاليلُ منهمْ جعفرٌ وابنُ أمّه ... عليٌّ ومنهمْ أحمدُ المتخيَّرُ

وحمزةُ والعباسُ منهمْ ومنهمُ ... عَقيلٌ وماءُ العُودِ من حيث يُعصَرُ

بهمْ تُفرَجُ الغمّاءُ من كلّ مأزِقٍ ... عَماسٍ إذا ما ضاق بالناس مَصدرُ

همُ أولياءُ اللهِ أنزلَ حكمَه ... عليهمْ وفيهمْ والكتابُ المطهَّرُ

ومنها قولُ كعبِ بن مالكٍ الأنصاري من قصيدةٍ أوّلها (3) :

نامَ العيونُ ودمعُ عينك يَهمُلُ ... سَحًّا كما وكَفَ الرِّبابُ المسبلُ (4)

وَجْـداً على النفر الذين تتابعُوا ... قتلى بمؤتةَ أُسندوا لم يُنقَلوا

سـاروا أمامَ المسلمين كأنهمْ ... طَودٌ يقودهمُ الهِزَبرُ المُشبِلُ (5)

إذ يهتَـدُون بجعفرٍ ولوائه ... قُـدّامَ أولهم ونعمَ الأوّلُ

حتى تقوّضتِ الصفوفُ وجعفرٌ ... حيثُ التقى جمعُ الغُواة مجدَّلُ (6)

---

(١) شعوب : من أسماء المنية . (٢) ابن هشام والديوان : « مجسر » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٢ — ٤٤٥ ، برواية مختلفة .

(٤) الرباب : السحاب ، والمسبل : المنصب ؛ وفي ابن هشام : « الطباب المخضل » .

(٥) المشبل : ذو الشبل ؛ والشبل : ولد الأسد .

(٦) مجدل : مطروح على الجدالة ؛ وهي الأرض . وفي ابن هشام : « وعث الصفوف مجدل » .

فتغـــيَّرَ القمرُ المنيرُ لفقـــدِه والشمس قد كسفت [1] وكادت تأفلُ
قومٌ عـلا بنيـانهم من هاشم فرعٌ أشمُّ وسؤددٌ متـأثِّلُ [2]
قومٌ بهمْ عصم الإلهُ عبـــادَه وعليهمُ نزلَ الكتابُ المنزَلُ
فضَلُوا المعـاشرَ عفّةً وتـكرّما وتعمّدت أحلامُهم مَنْ يجهـــلُ [3]

قال الواقدى : فحدثنى ابن أبى سبْرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن رافع بن إسحاق ، عن زيد بن أرقم أن رسولَ الله صلّى الله عليه وآله خطبهم فأوصاهم فقال : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزُوا باسم الله وفى سبيل الله ، قاتِلوا من كفرَ بالله ، لا تغدِروا ولا تَغُلُّوا ولا تقتلوا وَليدا ، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعُهم إلى إحدى ثلاث : فأيّتهن أجابوك إليهـا فاقبَلْ منهم ، واكفُفْ عنهم ، ادعُهم إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبَل واكفُف. ثم ادعُهم إلى التحوّل من دارهم إلى المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أنّ لهم ما للمُهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . وإن دخلوا فى الإسلامَ واختاروا دارَهم فأخبِرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرِى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء ، إلّا أن يُجاهـدوا مع المسلمين ، فإن أبَوْا فادْعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكففْ عنهم ، فإن أبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرتَ أهل حصن أو مدينةٍ فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تَستنزلهم على حكم الله، ولـكن أنزلهم على حكمك، فإنك لاتدرى أتصيب حكمَ الله فيهم أم لا ! وإن حاصرتَ أهل حصنٍ أو مدينة وأرادوا أن تجعلَ لهم ذمّة الله وذمّة رسولِ الله فلا تجعل لهم ذمّة الله وذمة رسول الله ، ولـكن اجعل لهم ذمّتك وذمّة أبيك وأصحابِك ، فإنّـكم إن تخفِروا ذِمَمكم وذِمَمَ آبائـكم خيرٌ لـكم من أن تخفِروا ذمّة الله وذمّة رسوله .

---

(١) فى ب « كاسفة » ، وهو مستقيم الوزن أيضا .
(٢) ابن هشام : « ما ينقل » .
(٣) ابن هشام : « وتعمدت أحلامهم » .

قال الواقدي : وحدثني أبو صفوان ، عن خالد بن يزيد ، قال : خرج النبيّ صلّى الله عليه وآله مشيّعاً لأهل مُؤْتة حتى بلغ ثنيّة الوداع ، فوقف ووقفوا حوله ، فقال : اغزُوا بسم الله ، فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين الناس ، فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رءوسهم مَفاحص ، فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلُنّ امرأة ، ولا صغيراً ، ضَرَعاً[1] ولا كبيرا فانيا ، ولا تقطعُنّ نخلا ولا شجرا ، ولا تهدمُنّ بناء .

قال الواقدي : فلمّا دعا ودّع عبدُ الله بنُ رواحة رسول الله صلّى الله عليه وآله قال له : مُرْني بشيء أحفظه عنك ، قال : إنّك قادم غداً بلداً ، السجودُ فيه قليل ، فأكثروا السجودَ . فقال عبدُ الله : زِدْني يا رسول الله ، قال : اذكر الله ، فإنّه عونٌ لك على ما تطلُب . فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهبا رجع فقال : يا رسولَ الله : إن الله وِتْر يُحبّ الوِتْر ، فقال : يا بن رواحة : ما عجزتَ فلا تعجز إن أسأت عشرا أن تُحسِن واحدة . فقال ابنُ رَواحة : لا أسألك عن شيء بعدها .

وروى محمّد بنُ إسحاق أنّ عبدالله بنَ رواحة ودّع رسول الله صلّى الله عليه وآله بشعرٍ منه :

فثبّتَ اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيتَ مُوسَى ونَصراً كالذى نصرُوا
إنّى تفرّستُ فيكَ الخيرَ نافلةً ... فِراسةً خالفتْهم فى الذى نظَروا
أنتَ الرسولُ فمن يُحرَمْ نوافلَه ... والبِشْرَ منه فقد أوْدَى به القدَرُ

قال محمّد بن إسحاق : فلمّا ودّع المسلمين بكى ، فقالوا له : ما يبكيك يا عبد الله ؟ قال : والله ما بي حبّ الدنيا ولا صبابة إليها ، ولكنّي سمعت رسولُ الله صلّى الله

---

(١) الضرع : الصغير من كل شيء .

عليه وآله يقرأ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، [١] فلست أدرى كيف لى بالصدَر بعد الورود [٢] !

قال الواقدى : وكان زيدُ بن أرقم يحدِّث ، قال : كنتُ يتيما فى حِجْر عبد الله بن رواحة ، فلم أرَ والىَ يتيم كان خيراً لى منه ، خرجت معه فى وجهة إلى مؤتةَ وصبَّ بى وصببتُ به ، فكان يُردِفنى خلف رَحله ، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبتَىْ رَحْله :

إذا بلّغتنى وحَمَلْتِ رَحْلى ‏ ‏ مسافة أربع بعدَ الحِساء [٣]

فشأنكِ فانعمى وخَلاكِ ذمٌّ ‏ ‏ ولا أرجعْ إلى أهلى ورائى [٤]

وآبَ المسلمون وخلّفونى ‏ ‏ بأرض الشام مشتهرَ الثَّواء

وردّدنى الأقاربُ من دعاء ‏ ‏ إلى الرحمن وانقطع الإخاء

هنالكَ لا أبالى طَلْعَ بعْلٍ ‏ ‏ ولا نخلٍ أسافلها رِوَاء [٥]

فلمّا سمعتُ منه هذا الشعرَ بكيتُ : فخفقنى بالدِّرّة وقال : وما عليك يالُكَع أن يرزقنى اللهُ الشهادة فأستريحَ من الدّنيا ونَصَبها ، وهمومها وأحزانها وأحداثها ، وترجعَ أنت بين شعبتَى الرَّحْل !

قال الواقدى : ومضى المسلمون فنزلوا وادِىَ القُرَى فأقاموا به أيّاما ، وساروا حتى نزلوا بمُؤْتة ، وبلغهم أن هرَقْلَ ملكَ الرّوم قد نزل ماء من مياه البَلْقاء فى بكْر وبَهْراء ولَخْم وجُذام وغيرهم مائة ألف مقاتل ، وعليهم رجلٌ من بَلِىّ ، فأقام المسلمون ليلتين ينظرون

(١) سورة مريم : ٧١ . ‏ ‏ (٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٢ .

(٤) ولا أرجع : جزم الفعل على الدعاء ؛ يدعو على نفسه بأن يستشهد فى هذه الوقعة ولا يرجع لأهله

(٥) فى البيت إقواء .

فى أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله فنُخبره الخبر ؛ فإمّا أن يردّنا أو يزيدنا رجالا ؛ فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبدُ الله بن رَوَاحة فشجّعهم ، وقال : والله ما كنّا نقاتلُ الناسَ بكثرة عِدّة ولا كثرةِ سِلاح ولا كثرة خَيل ؛ إلاّ بهذا الدِّين الذى أكرمَنا الله به ، انطلِقوا فقاتلوا ؛فقدوالله رأيتُنا يومَ بدر ، وما معنا إلاّ فرسان ، إنما هى إحدى الحُسنيَيْن : إمّا الظُّهورُ عليهم فذاكَ ماوعدَنا اللهُ ورسولُه ، وليس لوعده خُلْف ، وإمّا الشهادة فنلحق بالإخوان ، نرافقهم فى الجِنان.
فشجع الناس على قول ابن رَواحة .

قال الواقدىّ : وروَى أبو هريرة قال : شهدتُ مؤتة فلمّا رأينا المشركين رأينا مالا قِبَل لنا به من العُدَد والسّلاح والكُراع والدِّيباج والحرير والذّهب ، فبَرَق بَصَرِى ، فقال لى ثابتُ بنُ أرقم : مالَكَ يا أبا هُريرة ؟ كأنكَ ترى جُموعا كثيرة !قلتُ: نعم ، قال : لم تَشهدْنا ببدْر ، إنا لم نُنصرْ بالكثرة .

قال الواقدىّ : فالتقى القومُ ، فأخذ اللواءَ زيدُ بنُ حارثة ، فقاتَل حتّى قُتِل ، طعنوه بالرِّماح ، ثم أخذه جعفر فنزل عن فرس له شَقْراء فعرْقَبها ، ثم قاتَل حتى قُتِل .
قال الواقدىّ : قيل : إنه ضرَبَه رجل من الرُّوم فقطعه نصفين ، فوقع أحد نصفَيْه فى كَرْم هُناك ، فوجِد فيه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جُرْحا .

قال الواقدىّ : وقد روَى نافعٌ عن ابن عمَر أنه وُجِد فى بدن جعفر بن أبى طالب اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرِّماح .

قال البلاذرىّ : قطِعتْ يداه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقد أبدَله اللهُ بهما جَناحين يطيرُ بهما فى الجنة » ؛ ولذلك سمّى الطَّيّار .

قال الواقدىّ : ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رواحة فنكَل يَسيراً ، ثم حَمَل فقاتل

حتى قُتِل ، فلما قُتِل انهزم المسلمون أسوأ هزيمة كانت فى كلّ وجه ، ثم تراجعوا ؛ فأخذ اللواء ثابتُ بنُ أرقم ، وجعل يصيح بالأنصار ، فثاب إليه منهم قليل ، فقال لخالد بن الوليد : خذ اللّواء يا أبا سليمان ، قال خالد : لا بل خُذْه أنتَ فلك سِنّ ، وقد شهدت بَدْرا . قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلّا لك . فأخذه خالد وحَمَل به ساعةً ، وجعل المشركون يحملون عليه حتى دَهَمه منهم بَشرٌ كثير ، فانحاز بالمسلمين ، وانكشفوا راجعين .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أن خالدا ثبت بالناس فلم ينهزموا ؛ والصحيح أنّ خالدا انهزم بالناس .

قال الواقدىّ : حدّثنى محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، أنّ النبى صلى الله عليه وآله لما التقى الناسُ بمُؤتة جلس على المنبر ، وكُشِفَ له ما بينه وبين الشام ، فهو ينظر إلى معركتهم ، فقال : أخذ الرّاية زيدُ بنُ حارثة ، فجاءه الشيطان فحبّب إليه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، وحبّب إليه الدُّنيا ، فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تحبّب إلىّ الدنيا ! فمضى قُدُما حتى استُشهِد ، ثم صلّى عليه ، وقال : استغفروا له فقد دخل الجنّة وهو يَسْعَى ، ثم أخذ الرّاية جعفرُ بنُ أبى طالب ، فجاءه الشيطان فمنّاه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، ومنّاه الدنيا ، فقال : الآنَ حين أستحكم الإيمانُ فى قلوب المؤمنين تتمنّى الدنيا ! ثم مَضَى قُدُما حتى أستُشهد فصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله ودَعا له ، ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيدٌ قد دَخل الجنّة ، فهو يطيرُ فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء . ثم قال : أخذ الراية عبدُ الله بنُ رواحة ، ثم دخل معترِضا فشقّ ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصابته الجراح . قيل : يارسول الله ، فما اعتراضُه ؟ قال : لما أصابته الجراح نَكَل فعاتَبَ نفسه فشَجُع فاستُشهِد فدَخل الجنّة ؛ فسُرِّىَ عن قومه .

وروى محمد بن إسحاق[1] قال : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله زيدا وجعفرا سكت عن عبدِ الله بن رواحة حتى تغيّرت وجوهُ الأنصار ، وظنّوا أنه قد كان من عبدِ الله بعضُ ما يكرهون ، ثم قال : أخذَها عبدُ الله بنُ رَواحة فقاتل حتى قُتِل شهيدا ، ثم قال : لقد رُفِعوا لى فى الجنة فيما يرى النائم على سُرُرٍ من ذهب ، فرأيتُ فى سرير ابن رواحة ازورارا عن سَرِيرَىْ صاحبَيْه ، فقلت : لم هذا ؟ فقيل : لأنهما مضيا ؛ وتردّد هذا بعضَ التردد ، ثم مضى .

قال : وروى محمد بنُ إسحاق أنه لما أخذ جعفرُ بنُ أبى طالب الرّاية قاتَلَ قتالا شديداً حتى إذا لحمه القِتال اقتحَمَ عن فرس له شقراء فعقرها ؛ ثم قاتل القومَ حتى قُتِل[2] ، فكان جعفر رضى الله عنه أوّل رجل عقَر فرسه فى الإسلام .

قال محمد بنُ إسحاق : ولما أخذ ابنُ رواحة الرّاية جعل يتردّد بعضَ التردّد ، ويستقدِم نفسَه يستنزلها[3] ، وقال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلِنّهْ طوعاً وإلا سوف تُكْرَهِنّهْ
مالى أراكِ تكرَهين الجنّهْ إذ أجلب الناسُ وشدّوا الرّنّهْ[4]
قد طالما قد كنتِ مطمئنّهْ هل أنتِ إلا نطفة فى شَنّهْ ![5]

ثم ارتجزَ أيضاً فقال :

يا نفسُ إلا تُقتلى تموتِى هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٦ . (٢) نصها فى ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، وهو يقول :

يا حبّذا الجنّةُ واقترابُها طيبةً وبارداً شرابُها
والرّوم روم قد دنا عذابُها كافرةٌ بعيـــدةٌ أنسابُها
* علىّ إذ لاقيتُها ضِرابُها *

(٣) ابن هشام : « يستنزل نفسه » . (٤) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وصيحوا .
(٥) النطفة : القليل من الماء الصافى . والشنة : القربة الخلق .

وما تمنّيتِ فقد أُعطيتِ　　إن تفعلي فعلَهما هُدِيتِ

* وإن تأخّرتِ فقد شَقِيتِ *

ثم نزل عن فرسه فقاتل ، فأتاه ابنُ عمّ له ببَضْعةٍ من لحم ، فقال : اشدُدْ بهذا صُلبك . فأخذها من يده ، فانتهش[1] منها نهشة ثم سمع الحطمة[2] في ناحية من الناس ، فقال : وأنتَ يا بن رواحة في الدّنيا ! ثم ألقاها من يدِه وأخذ سيفه ، فتقدّم فقاتلَ حتى قُتِل[3] .

قال الواقديّ : حدّثني داود بن سنان ، قال : سمعتُ ثعلبة بن أبي مالك يقول : انكشف خالدُ بنُ الوليد يومئذ بالناس حتى عُيِّروا بالفرار ، وتشاءم الناسُ به .

قال : وروَى أبو سعيد الخُدْرِيّ ، قال : أقبل خالد بالناس منهزمين ، فلمّا سمع أهلُ المدينة بهم تلقّوهم بالجُرف ، فجعلوا يحثُون في وجوههم التراب ويقولون : يا فُرّار ، أفررتم في سبيلِ الله ! فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ليسوا بالفُرّار ، ولكنّهم كُرّار ، إن شاء الله .

قال الواقديّ : وقال عُبيدُ الله بنُ عبدِ الله بن عُتْبة : ما لقيَ جيشٌ بُعثوا مَبْعَثنا ما لقيَ أصحابُ مؤتة من أهل المدينة ، لقوهم بالشرّ ، حتى إنّ الرجل ينصرف إلى بيته وأهله فيدقّ عليهم فيأبَوْن أن يفتحوا له يقولون : ألا تقدّمتَ مع أصحابك فقُتِلتَ ، وجلس الكُبراء منهم في بيوتهم استحياء من الناس ، حتى أرسلَ النبي صلى الله عليه وآله رجلا ، يقول لهم : أنتم الكُرّار في سبيل الله . فخرجوا .

قال الواقديّ : فحدثني مالك بن أبي الرّجال عن عبد الله بن أبي بكر بن حَزْم ، عن أمّ جعفر بنت محمد بن جعفر ، عن جدّتها أسماء بنت عُميس ، قالت : أصبحتُ في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابُه ، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وقد منأْتُ أربعين منًّا من أدَم وعجنتُ عجيني ، وأخذت بَنيّ ، فغسلتُ وجوههم ودهنتُهم ، فدخلتُ على

---

(١) انتهش منها : أخذ بفمه يسيراً .　　(٢) الحطمة : زحام الناس .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال: يا أسماء ، أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه ، فضمهم وشمهم، ثم ذَرفت عيناه، فبكى ، فقلتُ :يارسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ! قال :نعم،إنه قُتل اليومَ ، فقمتُ أصيح ، واجتمع إليّ النساء ، فجعل رسول الله صلى الله وسلم يقول : يا أسماء ، لاتقولى هُجْرا ، ولا تَضربى صَدْرا ، ثم خرج حتى دخل على ابنته فاطمةَ رضى الله عنها ، وهى تقول: واعمّاه ! فقال : على مثل جعفرٍ فلتبكِ الباكية . ثم قال : اصنعوا لآلِ جعفرٍ طعاما ، فقد شُغلوا عن أنفسهم اليوم .

قال الواقدىّ : وحدثنى محمد بنُ مسلم ، عن يحيى بن أبى يعلَى ؛ قال : سمعتُ عبدَالله ابنَ جعفر يقول: أنا أحفظ حين دَخل النبيّ صلى الله عليه وآله على أمى ، فنعَى إليها أبى، فأنظر إليه وهو يَمسح على رأسى ورأسِ أخى ،وعيناه تُهَرِاقان بالدّمع حتى قطرت لحيته، ثم قال : اللهمّ إن جعفراً قدِم إلىّ أحسنَ الثواب ، فاخلفه فى ذريته بأحسن ماخلفت أحداً من عبادك فى ذرّيته ، ثم قال : يا أسماء ، ألا أبشّرك ؟ قالت : بلَى بأبى وأمى ،قال: فإن الله جعل لجعفرٍ جَناحين يطيرُ بهما فى الجنّة ، قالت : بأبى وأمّى ، فأعلِم الناسَ ذلك! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدى يَمسح بيده رأسى حتى رَقِىَ على المنبر وأجلسنى أمامه على الدّرَجة السفلَى ، وإنّ الحزنَ ليُعرف عليه ، فتكلّم فقال : إنّ المرء كثيرٌ بأخيه وابنِ عمّه ،ألا إنّ جعفراً قد استُشهد ،وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهما فى الجنّة . ثم نزل ، فدخل بيتَه وأدخلنى ، وأمر بطعام فصُنع لنا ، وأرسل إلى أخى فتغدّينا عنده غَدَاء طيّبا ، عمدتْ سلمى خادمتهُ إلى شعير فطحنتْه ، ثم نشَفَتْه ، ثم أنضجَتْه وآدَمته بزَيت ، وجعلتْ عليه فُلفلا ، فتغدّيت أنا وأخى معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام ندُور معه فى بيوت نسائه ، ثم أرجعنا إلى بيتنا ، وأتانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأنا أساوِم فى شاةٍ ، فقال : اللهمّ بارك له فى صَفْقَتِه ، فوالله مابعتُ شيئا ولا اشتريتُ إلا بُورك فيه .

* * *

[فصل فى ذكر بعض مناقب جعفر بن أبى طالب]

روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن كنية جعفر بن أبى طالب أبو المساكين ، وقال : وكان ثالث الإخوة من ولد أبى طالب ، أكبرهم طالب ، وبعده عقيل ، وبعده جعفر ، وبعده على ، وكل واحد منهم أكبر من الآخر بعشر سنين، [وعلى أصغرهم سنا][1] ، وأمهم جميعا فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف[2] .

وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى ، وفضلها كثير ، وقربها من رسول الله صلى الله عليه وآله وتعظيمه لها معلوم عند أهل الحديث .

وروى أبو الفرج : لجعفر رضى الله عنه فضل كثير . وقد ورد فيه حديث كثير ؛ من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [لما] فتح خيبر قدم جعفر بن أبى طالب من الحبشة ، فالتزمه[3] رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يقبل بين عينيه ويقول : ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا ؛ بقدوم جعفر ، أم بفتح خيبر ؟

قال : وقد روى خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن أبى هريرة أنه قال : ما ركب المطايا ، ولا ركب الكور[4] ، ولا انتعل ، ولا احتذى النعال أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من جعفر بن أبى طالب .

قال : وقد روى عطية عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : خير الناس حمزة وجعفر وعلى .

وقد روى جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : خلق الناس من أشجار شتى ، وخلقت أنا وجعفر من شجرة واحدة — أو قال — من طينة واحدة .

---

(١) من مقاتل الطالبيين .

(٢) مقاتل الطالبيين ٦ ، ٧ مع تصرف .

(٣) التزمه : اعتنقه .

(٤) الكور (بضم الكاف) : الرحل بأداته .

قال : وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : أنت أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقِي .

وقال أبو عُمَر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " كانت سِنُّ جعفر عليه السلام يومَ قُتل إحدى وأربعين سنة .

قال أبو عمر : وقد روَى ابن المسيّب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : مُثِّل لي جَعفر وزيد وعبدالله في خَيمة من درّ ، كلّ واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابنَ رواحة في أعناقهما صدودا ، ورأيت جعفراً مستقيما ليس فيه صُدود ، فسألتُ فقيل لي : إنهما حين غشيَهما الموتُ أعرضا وصَدّا بوجهيهما ، وأما جعفر فلم يَفعل .

قال أبو عمر أيضا : وروَى عن الشعبيّ ، قال : سمعتُ عبدَ الله بنَ جعفر يقول: كنتُ إذا سألت عمّي عليّا عليه السلام شيئا ويمنعني ، أقول له : بحقّ جعفر ، فيُعطيني[1] .

وروَى أبو عمَر أيضا في حرف الزاي في باب زيد بن حارثة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أتاه قتل جعفر وزيد بمؤتة بكى ، وقال : أخَوَاي ومؤنِساي ومحدِّثاي[2] .

* * *

واعلم أنّ هذه الكلمات التي ذكرها الرضيّ رحمه الله عليه ملتقَطة من كتابه عليه السلام الّذي كتبه جوابا عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبي مسلم الخَوْلانيّ وقد ذكره أهلُ السِّيرة في كتبهم ، روَى نصرُ بنُ مزاحم في كتاب " صِفِّين " عن عمَر بن سعد عن أبي وَرْقاء ، قال : جاء أبو مسلم الخَوْلانيّ في ناس من قُرّاء أهل الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صِفّين فقالوا له : يامعاوية ، علام تقاتل عليّاً وليس لك

(١) الاستيعاب ٨١ ، ٨٢ .
(٢) الاستيعاب ١٩١ .

مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ! فقال : (١) إنّى لا أدّعى أنّ لى فى الإسلام مثل صُحبته ولا مثل هجرته ولا قرابته (١) ؛ ولكن خبّرونى عنكم ، ألستم تعلمون أنّ عثمان قُتِل مظلوما ! قالوا : بلى ، قال : فليَدفع إلينا قَتَلَتَهُ لنقتلَهم به ، ولا قتال بيننا وبينه، قالا : فاكتب إليه كتابا يأتيه به بعضنا ، فكتب مع أبى مسلم الخولانىّ :

من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب . سلام عليك ، فإنّى أحمدُ إليك الله الّذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ الله اصطفى محمدا بعلمه ، وجعله الأمينَ على وحيه ، والرسول إلى خلقه ، واجتبى له من المسلمين أعوانا أيّده الله تعالى بهم ، فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم فى الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة من بعده ، ثم خليفة خليفته من بعد خليفته ، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان ، فكلّهم حسدت ، وعلى كلّهم بغيت ، عرفنا ذلك فى نظرك الشّزْر ، وقولك الهُجر ، وتنفّسك (٢) الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفحل المخشوش (٣) حتى تبايعَ وأنت كاره ، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظمَ حسدا منك لابن عمّك عثمان ، وكان أحقّهم ألا تفعل ذلك فى قرابته وصهره ، فقطعتَ رحمه ، وقبّحتَ محاسنَه ، وألّبتَ (٤) الناسَ عليه ، وبطنتَ وظهرتَ حتى ضُرِبتْ إليه آباط الإبل ، وقيدتْ إليه الإبل العِراب ، وحُمل عليه السلاحُ فى حَرَم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقُتِل معك فى المحلّة وأنت تسمع فى داره الهائعة (٥) ، لا تردع الظّن والتُّهمة عن نفسك بقولٍ ولا عمل . وأُقسِم قسَما صادقا لو قمتَ فيما كان من أمره مقاما واحدا تُنهنه الناسَ

(١ـ١) صفين : « ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته » .

(٢) صفين : « وفى تنفسك » .

(٣) المخشوش : الذى جعل فى عظم أنفه الخشاش ، وهو بالكسر عويد يجعل فى أنف البعير يشدّ به الزمام ليكون أسرع فى انقياده » .

(٤) ألبت الناس : جمعتهم عليه .

(٥) الهائعة : الصوت الشديد .

عنه ، ماعدل بك من قبلنا من النّاس أحدا ، ولحمّا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعثمانَ والبغيِ عليه ، وأحرى أن بها عند أنصارِ عثمان ظَنِين[1] ؛ إيواؤك قتلةَ عثمان ، فهم عَضُدك وأنصارُك ، ويدُك وبطانتُك ؛ وقد ذُكر لى أنك تتنصّل من دمه ، فإن كنتَ صادقا فأمسكنا من قتلته نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ، وإلّا فإنه ليس لك ولأصحابك إلّا السيف ؛ والذى لا إله إلّا هو لنطلبنّ قتلةَ عثمانَ فى الجبال والرِّمال ، والبرّ والبحر ، حتى يقتلهم الله أو لتلحقنّ أرواحنا بالله ، والسلام[2] .

قال نصر : فلمّا قدم أبو مسلم على علىّ عليه السلام بهذا الكتاب ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أمّا بعد ، فإنّك قد قمتَ بأمرٍ وليتَه ، ووالله ما أحب أنه لغيرك . إن أعطيتَ الحقّ من نفسك . إنّ عثمانَ قُتل مسلما مُحرِما مظلوما ، فادفع إلينا قتلته ، وأنتَ أميرُنا ، فإن خالفَك من النّاس أحدٌ كانت أيدينا لك ناصرة ، وألسنتُنا لك شاهدة ، وكنتَ ذا عُذر وحجّة . فقال له علىّ عليه السلام : اغدُ علىّ غداً ، فخذ جوابَ كتابك فانصرف ، ثم رجع من غدٍ ليأخذ جوابَ كتابه ، فوجد الناسَ قد بلغهم الذى جاء فيه قبل ، فلبست الشيعةُ أسلحتَها ثم غدَوا فملئوا المسجدَ ، فنادَوا : كلّنا قتلةُ عثمان ، وأكثروا من النّداء بذلك وأُذِن لأبى مسلم ، فدخل ، فدفع علىّ عليه السلام جوابَ كتاب معاوية ، فقال أبو مسلم : لقد رأيت قوما مالكَ معهم أمر ، قال : وما ذاك ؟ قال : بلغ القومَ أنك تريد أن تدفع إلينا قَتلةَ عثمان فضجّوا ، واجتمعوا ، ولبسوا السِّلاحَ ، وزعموا أنهم قتلة عثمان . فقال علىّ عليه السلام ، واللهِ ما أردت أن أدفعهم إليكم طرفةَ عين قطّ ، لقد ضربتُ هذا الأمرَ أنفَه وعينَه ، فما رأيتُه يسعى لى أن أدفعهم إليك ، ولا إلى غيرك . فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول : الآن طابَ الضِّراب !

---

(١) ظنين : متهم .

(٢) صفين ٩٧ ، ٩٨ .

وكان جوابُ علىٍّ عليه السلام : من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفْيان .

أمّا بعد ؛ فإن أخا خَوْلان قَدِم علىّ بكتابٍ منك تَذْكُر فيه محمدا صلى الله عليه وآله وما أنعَم الله به عليه من الهُدَى والوَحْى ، فالحمدُ لله الذى صَدَقه الوعد ، وأيّده[1] بالنصر ، ومكّن له فى البلاد ، وأظهَرَه على أهلِ العداوة[2] والشَّنآن من قومِه الّذين وَثَبوا عليه ، وشنِفوا له[3] ، وأظهَرُوا تكذيبه[4] وبارَزُوه بالعَداوة ، وظاهروا على إخراجِه وعلى إخراجِ أصحابه وأهله ، وألّبوا عليه [العرب ، وجادلوهم على حربه][5] ، وجَهَدوا فى أمره كلَّ الجَهْد ، وقلّبوا له الأمورَ حتى جاء الحقّ وظهرَ أمر الله وهم كارهون ، وكان أشدَّ الناس عليه تأليبا[6] وتحريضا أسرتُه ، والأدنى فالأدنى من قومِه ، إلّا مَن عَصَم الله . وذكرتَ أنّ الله تعالى اجتبى له من المسلمين أعوانا أيّده الله بهم ، فكانوا فى منازلهم عندَه على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم ـ زعمت ـ فى الإسلام ، وأنصحَهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولَعمرى إنّ مكانَهما فى الإسلام لعظيم ، وإنّ المصابَ بهما لَجرحٌ فى الإسلام شديد ، فرحمَهما الله وجزاهما أحسنَ ما عَمِلا ! وذكرتَ أنّ عثمان كان فى الفضل تاليًا ، فإن يكُ عثمانُ محسناً فسيجزيه الله بإحسانِه ، وإن يك مُسيئا فسيَلقى ربًّا غفوراً لا يتعاظَمُه ذَنْب إنْ يغفره ، ولَعمرِى إنّى لأرجو إذا أعطى الله الناسَ على قدر فضائِلهم فى الإسلام ونصيحتِهم لله ولرسوله ، أنْ يكون نصيبُنا فى ذلك الأوفر . إن محمدا صلّى الله عليه وآله لمّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهلَ البيت أوّلَ من آمن به وصدّقه فيما جاء ، فبِتْنا أحوالا كاملةً مجرّمة[7] تامة ، وما يُعبَد الله فى رَبْع ساكن من

(١) صفين : « وتمم له النصر » .

(٢) صفين : « العداء » وهو يوافق ما فى ؟ .

(٣) شنف له ، أى أبغضه .

(٤) صفين : « التكذيب » .

(٥) من صفين .

(٦) صفين : « إليا » .

(٧) مجرمة ، أى كاملة .

من العَرَب غيرِنا ، فأراد قومُنا قتلَ نبيِّنا ، واجتياحَ أصلِنا ، وهمُّوا بنا الهُموم ، وفعلوا بنا الأفاعيل ، ومَنَعونا المِيرة[1] ، وأمسكوا عنا العَذْب ، وأحْلَسُونا الخوْف[2] . وجعلوا علينا الأرصاد والعيون ، واضطرّونا إلى جَبَل وَعْر ، وأوْقدوا لنا نار الحَرْب ، وكتبوا بينهم كتابًا ، لا يؤاكِلُوننا ، ولا يُشارِبُوننا ، ولا يُناكحوننا ، ولا يُبايعوننا ، ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمدًا فيقتلوه ويمثِّلوا به ، فلم نكن نأمن فيهم إلّا من مَوْسم إلى مَوْسم ، فعزم الله لنا عَلَى مَنعه ، والذبِّ عن حَوْزته ، والرّمْى من وراء حُرْمته ، والقيامِ بأسيافِنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار ، فمؤمِننا يرجو بذلك الثواب ، وكافرُنا يُحامِي عن الأصل ، وأمّا من أسلَم من قريش فإنهم مما نحن فيه خَلاء ، منهم الحليف الممنوع ، ومنهم ذو العَشِيرة التي تدافع عنه ، فلا يبغيه أحدٌ مثل ما بغانا به قومُنا من التّلَف ، فهم من القَتْل بمكان[3] نجوة وأمْن ، فكان ذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم أمر الله تعالى رسوله بالهجرة ، وأذِن له بعد ذلك في قتال المشركين ، فكان إذا احمرّ البأس ، ودعيتْ نزالِ[4] أقامَ أهلَ بيته ، فاستقدموا ، فوقى أصحابَه بهم حدَّ الأسنّة والسيوف ، فقتل عبيدة يومَ بَدْر ، وحمزة يوم أُحُد ، وجعفر وزيد يوم مؤتة ، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثلَ الذى أرادوا من الشهادة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم غير مرّة ، إلا أن آجالهم عُجِّلتْ ، ومنيَّته أُخِّرتْ ، والله وليّ الإحسان إليهم ، والمِنّة عليهم ، بما أسلفوا من أمر الصالحات ، فما سمعتُ بأحد ولا رأيته هو أنصحُ في طاعة رسوله ولا لنبيّه ، ولا أصبرَ على اللأْواء[5] والسرّاء والضرّاء وحين البأس ، ومواطن المكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النفر الذين سمّيتُ لك ، وفي المهاجرين خيرٌ كثير يعرَف ، جزاهم الله خيراً بأحسن

---

(١) المِيرة بالكسر : ما يجلب ؛ ويريد بالعذب الماء .
(٢) أحلسونا الخوف ؛ أى ألزموناه .
(٣) انظر صفحتى ١٠٠ ، ١١١ .
(٤) دعيت نزال ، كقطام ؛ أى تنازلوا للحرب .
(٥) اللأْواء : الشدة .

أعالم . وذكرتَ حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم ، وبغيي عليهم ؛ فأمّا البغي فمعاذ الله أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكراهيَة لأمرهم فلستُ أعتذر إلى الناس من ذلك؛ إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيَّه الله صلّى الله عليه وسلم قالت قريش : منّا أميرٌ ، وقالت الأنصار : منّا أمير ؛ فقالت قريش : منّا محمد ، نحن أحق بالأمر ، فعرفتْ ذلك الأنصار فسلّمت لهم الولاية والسلطان ، فإذا استحقّوها بمحمد صلى الله عليه وسلّم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحقُّ به منهم ، وإلّا فإنّ الأنصار أعظمُ العرب فيها نصيبا، فلا أدرى: أصحابي سلموا من أن يكونوا حقّي أخذوا ، أو الأنصار ظلموا ، بل عرفت أن حقي هو المأخوذ، وقد تركته لهم تجاوزَ الله عنهم . وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، وقطيعتي رحمه ، وتأليبي عليه فإن عثمان عمل ما قد بلغك ، فصنع الناس به ما رأيت ، وإنك لتعلم أني قد كنت في عُزْلَة عنه إلا أن تتجنّى ؛ فتجنَّ[1] ما بدا لك ؛ وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإني نظرتُ في هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينيه فلم أرَ دفعهم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليلٍ يطلبونك لا يكلّفونك أن تطلبهم في برّ ولا بحر ولا سهل ولا جبل ، وقد أتاني أبوك حين ولّى الناسُ أبا بكر ، فقال : أنتَ أحقُّ بمقام محمد ، وأولى الناس بهذا الأمر ، وأنا زعيمٌ لك بذلك على من خالف ، ابسُطْ يدك أبايعك ؛ فلم أفعل، وأنتَ تعلم أنّ أباك قد قال ذلك وأراده حتى كنتُ أنا الذي أبيتُ ؛ لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، فأبوك كان أعرف بحقي منك ، فإن تعرفْ من حقي ما كان أبوك يعرف تُصبْ رُشدَك ، وإنْ لم تفعل فسيُغني الله عنك ، والسلام[2] .

---

(١) تجنى عليه : ادعى ذنبا لم يجنه .

(٢) صفين ٩٨ – ١٠٢ .

(١٠)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً :

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلاَبِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا ، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا ؛ دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا . وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا ، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لاَ يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ .

فَاقْعَسْ عَنْ هٰذَا الأَمْرِ ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ، وَلاَ تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ .

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ ، وَوُلاَةَ أَمْرِ الأُمَّةِ ، بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ ، وَلاَ شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ .

وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الأُمْنِيَّةِ ، مُخْتَلِفَ الْعَلاَنِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً ، وَاخْرُجْ إِلَيَّ ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ !

فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذٰلِكَ السَّيْفُ مَعِي ، وَبِذٰلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ؛ مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً ، وَلاَ اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً ، وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ ؛ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ ، فَاطْلُبْهُ

مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنتَ طَالِباً ، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ، إِلَى كِتَابِ اللهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ .

* * *

الشرح

الجلابيب : جمعُ جلباب ، وهي الملحفة في الأصل ؛ واستُعير لغيرها من الثياب ، وتجلبب الرجلُ جلببةً ، ولم تُدغم لأنها ملحقة بـ « دحرجة » .

قوله : « وتبهّجت زينتها » : صارت ذاتَ بهجة ، أي زينة وحُسْن ، وقد بَهُج الرجلُ بالضم ، ويُوشك : يسرع .

ويقفك واقف ، يعني الموتَ ؛ ويُروَى : « ولا ينجيك مِجَنّ » ، وهو التُّرس ، والرواية الأولى أصح .

قوله : « فاقعَسْ عن هذا الأمر » ، أي تأخّر عنه ، والماضي قَعَس بالفتح ، ومثلُه تقاعَسَ واقعنسَسَ .

وأهْبة الحساب : عُدّته ، وتأهّب : استعدّ ، وجمع الأهْبة أُهَب .

وشمِّر لما قد نزل بك ، أي جِدَّ واجتهد وخِفَّ ، ومنه رجل شِمِّرِيّ بفتح الشين ، وتُكسر .

والغواةُ : جمع غاوٍ ، وهو الضّال .

قوله : « وإلا تفعل » يقول : وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإني أعرّفك من نفسك ما أغفلتَ معرفته .

إنك مترَف ، والمترفُ الذي قد أترفته النّعمة ، أي أطغته .

قد أخذ الشيطان منك مأخذه ؛ ويُرْوَى « مآخذه » بالجمع ، أى تناوَل الشيطانُ منك لُبَّك وعقلك . ومأخذه مصدر ، أى تناولك الشيطانِ تناولَه للمروف ، وحذف مفعول « أخذ » لدلالة الـكلام عليه ، ولأنّ اللفظة تَجرى مَجرَى المَثَل .

قوله : « وجرَى منك مَجرَى الرُّوح والدم » ، هذه كلمةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الشيطان ليَجرِى من ابن آدمَ مَجرَى الدَّم » .

ثم خرج عليه السلام إلى أمرٍ آخَر ، فقال لمعاوية : « ومتى كنتمْ ساسَةَ الرعيّة ، ووُلاةَ أمرِ الأمّة ! » ينبغى أن يُحمَل هذا الـكلامُ على نفى كونِهم سادة وولاةً فى الإسلام ، وإلا فنى الجاهلية لا يُنكَر رياسة بنى عبدِ شمس . ولست أقولُ برياستهم على بنى هاشم ، ولـكنّهم كانوا رؤساء على كثيرٍ من بطون قريش ، ألا ترَى أنّ بنى نَوْفل ابن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم ، وأنّ بنى عبد شمس كانوا فى يوم بدر قادة الجيش ، كان رئيس الجيش عُتبة بنُ ربيعة ، وكانوا فى يوم أحد ويوم الخندق قادةَ الجيش ! كان الرئيس فى هذين اليومين أباسُفيان بنّ حرب ؛ وأيضا فإنّ فى لفظة أميرالمؤمنين عليه السلام ما يُشعِر بما قلناه ، وهو قوله : « ووُلاةُ أمرِ الأمّة » فإنّ الأمّة فى العرب هم المسلمون ، أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله .

قوله عليه السلام : « بغير قدمٍ سابق » ، يقال : لفلانٍ قدمُ صِدْق ، أى سابقة وأثَرَةٌ حَسَنة .

قوله عليه السلام : « ولا شرف باسق » ؛ أى عالٍ .

وتَمادَى : تفاعَل ، من المدى ، وهو الغاية ، أى لم يَقِف بل مَضَى قُدُما .

والغِرّة : الغَفلة : والأُمنيّة : طمعُ النفس . ومختلِف السّريرة والعلانيَة : منافق .

قوله عليه السلام : « فدَعِ الناسَ جانبا » ، منصوب على الظّرف .

والمرين على قلبه : المغلوبُ عليه ، من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] . وقيل : الرَّيْن : الذنب على الذنب .

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأنّ معاوية قالها في رسالةٍ كتبها ، ووقفتُ عليها من كتاب أبي العبّاس يعقوب بن أبي أحمد الصَّيْمَرِيّ الذي جَمَعه من كلام عليّ عليه السلام وخطبه ، وأوّلها :

أما بعد ، فإنّك المطبوعُ عَلَى قلبك ، المغطَّى على بصرك ؛ الشرّ من شيمتك ، والعُتوّ من خَليقتك ، فشمِّر للحرب ، واصبر للضَّرب ، فو الله ليرجعنّ الأمرُ إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين . هيهاتَ هيهاتَ ! أخطأك ما تمنّى ، وهَوَى قلبك فيما هَوَى ، فاربَعْ عَلَى ظَلْعِك ، وقِسْ شِبْرَك بفِترِك ، تعلم أين حالُك من حالِ من يَزِن الجبالَ حِلْمُه ، ويَفصِل بين أهل الشكّ عِلمُه ؛ والسلام .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام : أمّا بعد ، يابن صَخْر ، يابن اللَّعين ؛ يَزِن الجبالَ فيما زعمتَ حِلمُك ، ويَفصِل بين أهلِ الشك عِلمُك ؛ وأنتَ الجاهلُ القليلُ الفقهِ ، المتفاوتُ العقل ، الشاردُ عن الدين .

وقلتَ : « فشمِّرْ للحرب ، واصبر » ، فإن كنتَ صادقا فيما تزعُمُ ، ويُعينُك عليه ابن النابغة ، فدَعِ الناسَ جانبا ، وأعفِ الفريقين من القتال ، وابرُزْ إليّ لتعلم أيّنا المرينُ عَلَى قلبه ، المغطَّى على بصره ، فأنا أبو الحسن حقا ، قاتلُ أخيك وخالِك وجدِّك ؛ شَدْخًا يومَ بدر ، وذلك السيفُ معي ، وبذلك القلبِ ألقى عدوِّي !

* * *

(١) سورة المطففين ١٤ .

قوله عليه السلام «شَدْخاً» ؛ الشَّدْخ: كَسرُ الشيء الأجوف، شدخت رأسَه فانشدخ، وهؤلاء الثلاثةُ: حنظلةُ بنُ أبي سُفيان، والوليد بنُ عتبة، وأبوه عتبةُ بن ربيعة، فحنظلة أخوه، والوليد خاله؛ وعتبةُ جدُّه، وقد تقدّم ذكرُ قتلِهِ إيّاهم في غَزاةِ بَدْر.

والثائر: طالب الثأر. وقوله: «قد علمتَ حيثُ وقعَ دمُ عثمانَ فاطلُبْه من هناك»، يريد به إن كنتَ تطلُب ثأرَك من عند من أجلَبَ وحاصَرَ، فالّذي فعل ذلك طلحةُ والزبير؛ فاطلب ثأرَك من بني تيم ومن بني أَسَد بن عبدِ العُزّى، وإن كنت تطلبه ممن خذَل، فاطلبه من نفسِك فإنك خذلته، وكنتَ قادرا على أن ترفِدَه[1] وتُمِدّه بالرجال، فخذلته وقعدتَ عنه بعد أن استنجَدَك واستغاثَ بك.

وتضِجّ: تصوِّت. والجاحِدة: المنكِرة، والحائدة: العادلة عن الحقّ.

واعلم أنّ قوله: «وكأنّي بجماعتك يدعونني جزَعاً من السيف إلى كتاب الله تعالى»، إمّا أن يكون فِراسةً نبويّةً صادقة، وهذا عظيم، وإمّا أن يكون إخبارا عن غَيبٍ مفصّل، وهو أعظمُ وأعجب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العَجَب. وقد رأيت له ذِكرَ هذا المعنى في كتابٍ غيرِ هذا، وهو: أمّا بعدُ، فما أعجبَ ما يأتيني منك، وما أعلمني بمنزلتك التي أنت إليها صائر، ونحوها سائر؛ وليس إبطائي عنك إلا لوقتٍ أنا به مصدّق، وأنتَ به مكذّب؛ وكأنّي أراك وأنتَ تضِجّ من الحرب، وإخوانُك يدعونني خوفا من السيف، إلى كتابٍ هم به كافرون، وله جاحدون.

* * *

ووقفت له عليه السلامُ على كتابٍ آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوّله:

أمّا بعد، فطالما دعوتَ أنتَ وأولياؤك أولياء الشيطان الحقَّ أساطير، ونبذتموه وراء

---

(١) ترفده: تعينه.

ظهوركم، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]. ولعمرى ليتعدن العمُ فيك، وليتمن النورُ بصِغرك وقماءتك، ولتخسأن طريدا مذحورا، أو قتيلا مثبورا[2]؛ ولتُجزَينّ بعملك حيث لا ناصرَ لك، ولا مُصرِخَ[3] عندك. وقد أسهبتَ فى ذكر عثمان، ولعمرى ما قتله غيرُك، ولا خذله سواك، ولقد تربّصتَ به الدوائر، وتمنّيت له الأمانى، طمعا فيما ظهر منك، ودلّ عليه فعلُك، وإنّى لأرجو أن أُلحِقَك به على أعظمَ من ذنبه، وأكبر من خطيئته.

فأنا ابن عبد المطّلب صاحبُ السيف، وإنّ قائمه لفى يدى، وقد علمتَ من قتلتُ به من صناديد بنى عبد شمس، وفراعنة بنى سَهْم وجُمح وبنى مخزوم؛ وأيتمتُ أبناءهم، وأيمتُ نساءهم[4]. وأذكّرك ما لستَ له ناسيا، يوم قتلتُ أخاك حنظلة، وجررتُ برجله إلى القَليب[5]، وأسرتُ أخاك عمرا فجعلتُ عنقه بين ساقيه رباطا، وطلبتُك ففررتَ ولك حُصاص[6]؛ فلولا أنى لا أُتبع فارّا، لجعلتك ثالثهما، وأنا أولى لك بالله أليّة برّة غير فاجرة؛ لئن جمعتنى وإيّاك جوامع الأقدار، لأتركنّك مثلا يتمثّل به الناس أبدا، ولأجعجعنّ بك فى مناخك حتّى يحكم الله بينى وبينك، وهو خيرُ الحاكمين.

ولئن أنسأ[7] الله فى أجلى قليلا لأغزينّك سرايا المسلمين، ولأنهدنّ إليك فى جحفل من المهاجرين والأنصار، ثم لا أقبل لك معذرة ولا شفاعة، ولا أجيبك إلى طلب وسؤال، ولترجعنّ إلى تحيّرك وتردّدك وتلدّدك، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ

---

(١) سورة التوبة ٣٢.
(٢) مثبورا: هالكا؛ أو مصروفا عن الخير.
(٣) المصرخ: المستغيث.
(٤) أيمت نساءهم؛ أى تركتهن بلا أزواج.
(٥) القليب: البئر.
(٦) الحصاص: شدة العدو.
(٧) أنسأ الله فى أجلى؛ أى أخره للبلاء.

شُعُب للوتِ كيف حطلتْ عليك بصيِّبها (١) حتى أمتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كَفر وكذّب بنزُوله . ولقـد كنتُ تفرّستُها ، وآذنتك أنّك فاعلُها ، وقد مضى منها ما مَضى ، وانقضى من كَيْدك فيها ما انقضى ، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هـذا الـكتاب ، فاحتزْ لنفسك ، وانظرْ لها ، وتداركْها ، فإنّك إن فطرت واستمرّت على غيِّك وغُلَوائك (٢) حتى ينهـد إليك عبادُ الله ، أرْتجت عليك الأمور ، ومُنعت أمراً هو اليوم منك مقبول .

يابن حرب ، إنّ لجاجك فى منازعة الأمر أهله من سفاه الرّأى ، فـلا يطمعنّك أهلُ الضلال ، ولا يوبقنّك سفهُ رأى الجهل ، فوالّذى نفسُ علىّ بيده لئن برقتْ فى وجهك بارقة من ذى الفقار لتُصعقنّ صعقةً لا تفيق منها حتى يُنفخ فى الصور النّفخة التى يئستَ منها ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٣) .

•••

قلتُ : سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية : هل شهد بدراً مع المشركين ؟ فقال : نعم شهدَها ثلاثة من أولاد أبى سفيان : حنظلة وعَمرو ومُعاوية ، قُتِل أحدهم ، وأُسِر الآخر ، وأفلت معاويةُ هاربا على رجليه ، فقدِم مكّة ، وقد انتفخ قَدماه ، وورِمتْ ساقاه ، فعالج نفسه شهرين حتى برأ .

قال النّقيب أبو زيد : ولا خلافَ عند أحدٍ أنّ عليا عليه السلام قتل حنظلة وأسَر عمراً أخاه . ولقد شهد بدرا ، وهرَب على رجليه مَن هو أعظمُ منهما ومن أخيهما عمرو بن عبد ودّ فارس يوم الأحزاب ، شهدَها ونجا هاربا على قدميه ، وهو شيخ كبير ،

---

(١) الصيب : المطر المنصب .
(٢) الغلواء : السكر .
(٣) الممتحنة ١٣ .

وارتُثَّ [1] جريحا ، فوصَل إلى مكّة وهو وَقِيذ [2] فلم يشهد أُحُداً ، فلما برأ شهد الخندق ، فقتله فارسُ الأبطال ، والذى فاته يومَ بدر استدركه يوم الخندق .

ثم قال لى النقيب رحمه الله : أما سمعتَ نادرة الأعمش ومُناظِره ؟ فقلتُ : ما أعلمُ ماتريد ؟ فقال : سأل رجلٌ الأعمش — وكان قد ناظرَ صاحبا له : هل معاويةُ من أهل بدر أم لا ؟ فقال له : أصلَحَك الله ، هل شَهِد معاويةُ بدراً ؟ فقال : نعم مِن ذلك الجانب .

* * *

واعلم أن هذه الخطبة قد ذكرها نصر بنُ مُزاحم فى كتاب " صِفِّين " على وجه يقتضى أنّ ماذكره الرضىّ — رحمه الله — منها قد ضمّ إليه بعضَ خطبةٍ أخرى ، وهذه عادَتُه ، لأن غَرَضه التقاط الفصيح والبديع من كلامه ، والذى ذكره نصرُ بنُ مزاحم هذه صورته :

من عبدالله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، سلامٌ على من اتّبع الهدى فإنى أحمد إليك اللهَ الّذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنك قد رأيتَ مُرورالدنيا وانقضاءها وتصرُّمَها وتصرّفَها بأهلها ، وخيرُ ما اكتُسِب من الدّنيا ماأصابه العبادُ الصالحون منها من التقوى ، ومن يَقِس الدّنيا بالآخرة يَجدْ بينهما بعيدا . واعلمْ يامعاوية أنّك قد ادّعيتَ أمراً لستَ من أهله [3] لا فى القَديم ولا فى الحديث [3] ، ولستَ تقول فيه بأمر بيِّن يُعرَف له أثر [4] ، ولا عليك منه شاهد [من كتاب الله] [5] ؛ ولستَ متعلقا بآية من

---

(١) ارتث جريحا : حمل من المعركة رثيثا ؛ أى جريحا وبه رمق .
(٢) الوقيذ : الشديد المرض ، المشرف على الهلاك .
(٣ — ٣) صفين : « لا فى القدم ولا فى الولاية » .　　(٤) صفين . « أثرة » .
(٥) من صفين .

كتاب الله ، ولا عهدٍ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فكيف أنت صانع (١) إذا تقشّعتْ عنك غيابةُ ما أنتَ فيه من دُنيا قد فتنتَ بزينتها ، وركَنْتَ إلى لذّاتها (١) ، وخُلّي بينك وبين عدوّك فيها ، وهو عدوٌّ وكَلِبٌ مضِلٌّ جاهد مُليح (٢) ، ملحّ ، مع ما قد ثَبَت في نفسك من جهتها ، دعتك فأجبتَها ، وقادتك فاتّبعتَها ، وأمرتك فأطعتَها ، فاقعَسْ (٣) عن هذا الأمر ، وخذ أهبَةَ الحساب ، فإنه يُوشك أن يَقِفَك واقفٌ على ما لا يجنّك (٤) مِجَنّ .

ومتى كنتم يا معاوية ساسةَ الرعيّة ، أو وُلاةً لأمر هذه الأمّة ، بلا قَدَمٍ حَسَن ، ولا شرفٍ تليد على قومكم ، فاستيقظ من سِنَتك ، وارجع إلى خالقك ، وشمّر لما سينزل بك ، ولا تُمكّن عدوّك الشيطانَ من بغيته فيك ؛ مع أنّي أعرف أنّ الله ورسولَه صادقان ، نعوذ (٥) بالله من لزوم سابق الشقاء ، وإلّا تفعلْ فإنّي أُعلمك ما أغفلتَ من نفسك ، إنك مُترَف ، قد أخذ منك الشيطان مأخذه ، فجرى منك مجرى الدم في العروق ، ولستَ من أئمة هذه الأمة ولا من رعاتها ، واعلم أنّ هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسدُوناه ، ولامتنّوا علينا به ، ولكنّه قضاء ممّن منحناه واختصّنا به ، على لسان نبيّه الصادق المصدّق ، لا أفلح من شكّ بعد العرفانِ والبيّنة . ربِّ احكمْ بيننا وبين عدوّنا بالحق وأنت خيرُ الحاكمين (٦) .

* * *

قال نصر : (٧) فكتب معاويةُ إليه الجوابَ (٧) : من معاوية بن أبي سفيان إلى علي ابن أبي طالب ، أمّا بعد ، فدَعِ الحسد ، فإنّك طالما لم تنتفع به ، ولا تُفسِد سابقةَ

(١-١) صفين : « إذا انقشعت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا أبهجت بزينتها ، وركنت إلى لذتها » .
(٢) المليح : الملوح بالسيف ؛ يقال : ألاح بالسيف ؛ ولوح ؛ إذا حركه ولمع به .
(٣) أقعس عن هذا الأمر ؛ أي تأخر .
(٤) كذا في صفين و ا ، وفي ب : « يحيك » .
(٥) صفين : « فنعوذ » .
(٦) صفين ١٢١ ، ١٢٢
(٧-٧) صفين : « فكتب معاوية بسم الله الرحمن الرحيم » .

جهادك بشِرَّةِ نَخْوَتك ، فإنّ الأصال عواقبها ، ولا تُمحِّص سابقتَك بقتالِ مَن لا حقّ لك في حقّه[1] ، فإنّك إنْ تفعل لا تَضرّ بذلك إلا نفسَك ، ولا تمحق إلّا عملك ، ولا تُبطل إلّا حجّتك ؛ ولعَمرى إن ما مضى لك من السابقات لشبيه أن يكون ممحوقا ، لما اجترأتَ عليه من سَفْك الدماء ، وخلافِ أهلِ الحقّ ، فاقرأ السُّورة التى يُذْكَر فيها الفَلَق وتعوّذ من نفسِك[2] فإنّك الحاسدُ إذا حسَد[3] .

---

(١) حق الرجل وأحقه : إذا غلبه على الحق .

(٢) صبح : « وتعوذ بالله من شر نفسك » .

(٣) صبح ١٢٣ .

(١١)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدوّ :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً ، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً .

وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً ، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً .

• • •

الشرح :

المُعسكَر ؛ بفتح الكاف : موضعُ العسكر ، وحيث ينزل .

الأشراف : الأماكن العالية ، وقُبُلها : ما استقبَلك منها ، وضدّه الدُّبُر .

وسفاح الجبال : أسافلها حيث يَسفَح منها الماء .

وأثناء الأنهار : ما انعطف منها ، واحدها ثِنْي . والمعنى أنه أمرهم أن ينزلوا مسندين ظهورهم إلى مكانٍ عالٍ كالهضاب العظيمة ، أو الجبالِ ، أو منعطَف الأنهار التي تجري مجرى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات ، وليأمنوا أيضاً من إتيان العدوّ لهم

من خَلْفِهم ، وقد فسّر ذلك بقوله : كما يكون لكم رِدْءا ، والرِّدء : العَوْن ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾(١) .

ودونَكم مَرَدًّا ، أى حاجزا بينكم وبين العدوّ .

ثمّ أمرَهم بأن يكون مُقاتَلتهم ـ بفتح التاء ، وهى مَصدَر «قاتل » ـ من وجهٍ واحدٍ أو اثنين ؛ أى لا تفرّقوا ؛ ولا يكن قتالُكم العدوّ فى جهاتٍ متشتّتة ، فإنّ ذلك أدعى إلى الوَهَن ، واجتماعُكم أدعَى إلى الظفر ، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباء فى صياصى الجبال . وصَياصِى الجبال : أعاليها وما جرى مجرَى الحصون منها ، وأصل الصياصى القُرون ، ثم استُعير ذلك للحصون لأنّه يُمتَنَع بها كما يمتنع ذو القَرْن بقَرْنه . ومناكب الهضاب : أعاليها ؛ لئلا يأتيكم العدوّ إمّا من حيث تأمنون ، أو من حيث تخافون .

قوله عليه السلام : « مقدِّمة القوم عُيونُهم » ، المقدِّمة ، بكسر الدال ، وهم الذين يتقدّمون الجيش ، أصله مقدِّمة القوم ، أى الفرقة المتقدمة . والطلائع : طائفة من الجيش تُبعَث ليُعلَم منها أحوال العدوّ . وقال عليه السلام : المقدِّمة عيون الجَيْش . والطلائع عيون المقدّمة ، فالطلائع إذاً عُيونُ الجَيْش .

ثم نهاهم عن التفرّق ، وأمرَهم أنّ ينزلوا جميعاً ويرحلوا جميعا ، لئلا يفجأهم العدوّ بغتة على غير تعبيةٍ واجتماعٍ ، فيستأصلهم ؛ ثم أمرَهم أن يجعلوا الرِّماح كِفّةً إذا غشيَهم الليل ، والكاف مكسورة ، أى اجعلوها مُستَديرة حولكم كالدّائرة ، وكلّ ما استدار كِفّة بالكسر ، نحو كِفّة الميزان ، وكلّ ما استطال كُفّة بالضم نحو : كُفّة الثوب ـ وهى حاشيته ، وكُفّة الرَّمل ، وهو ما كان منه كالحَبل .

ثم نهاهم عن النوم إلّا غراراً أو مضمضةً ، وكلا اللفظتين ماقلّ من النوم .

---

(١) سورة القصص ٣٤ .

وقال شبيب الخارجيّ : الليلُ يكفيك الجبان ، ويصف الشجاع .

وكان إذا أمسى قال لأصحابه : أتاكم المدَد ، يعني الليل .

قيل لبعض الملوك بيِّتْ عدوّك . قال : أكرَه أن أجعلَ غلبتي سَرِقة .

ولما فصَل قَحْطبة من خُراسَان وفي صُحبته خالدُ بنُ برمك ، بينا هو على سَطْح بيتٍ في قرية نَزَلاها وهم يتغدّون نظر إلى الصَّحْراء فرأى أقاطيعَ ظِباء قد أقبلتْ من جهةِ الصَّحارِي حتى كادت تخالط العسكر ، فقال خالد لقحطبة : أيها الأمير ، نادِ في الناس : ياخَيلَ اللهِ اركبي ؛ فإنّ العدوّ قد قرُب منك ، وعامّة أصحابِك لن يُسرِجوا ويُلجِموا حتى يروْا سَرَعان[1] الخيل . فقام قحطبة مذعورا فلم يرَ شيئاً يروعُه ، ولم يُعاين غُبارا ، فقال لخالد : ماهذا الرأي ؟ فقال : أيها الأمير ! لا تتشاغل بي ، وناد في الناس ، أما ترى أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعَها حتى خالطت الناس ؟ وإن وراءها لجمعا كثيفا . قال : فو الله ماأسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النقْع[2] وساطع الغُبار ، فسلِموا ، ولولا ذلك لكان الجيشُ قد اصطُلِم[3] .

---

(١) سرعان الخيل : أوائلها .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) اصطلم : استؤصل وأبيد .

(١٢)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصّى بها معقل بن قيس الرياحيّ حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له :

اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَنًا ، وَقَدَّرَهُ مُقَامًا لَا ظَعْنًا ، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ . فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطًا ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ . وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي . وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

• • •

الشرح :

معقِل بن قَيس ، كان من رجال الكوفة وأبطالها ، وله رياسة وقَدَم ، أوفده عمار ابنُ ياسر إلى عمرَ بن الخطّاب مع الهُرْمُزان لفتح تُسْتَر [١] وكان من شيعة عليّ عليه السلام ، وجّهه إلى بني ساقةَ فقتل منهم وسَبى ، وحارَب المستَوْردَ بنَ عُلفة الخارجيّ

---

(١) تستر ، بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه : أعظم مدينة بخوزستان .

من تميم الرِّباب ، فقتل كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه بدِجلة ، وقد ذكرنا خبرهما فيما سَبَق ، ومعقِل بنُ قيس رِياحيّ من ولد رِياح بن يربوع بن حنظلة بنِ مالك بن زيد مناة ابن تميم .

قوله عليه السلام : « ولا تُقاتلَن إلا من قاتلك » ، نهى عن البغى .

وسِرِ البَرْدَيْن : هما الغَداة والعَشِيّ ، وهما الأبْرَدان أيضا .

ووصّاه أن يَرفُق بالنّاس ولا يكلّفهم السيرَ في الحرّ .

قوله عليه السلام : « وغوِّر بالناس » : انزِل بهم القائلة ، والمصدر التّغوير ، ويقال للقائلة : الغائرة .

قوله عليه السلام : « ورَفّهْ في السير » ، أي دَع الإبلَ تَرِدُ رِفْهًا[1] ، وهو أن ترِد الماء كلَّ يوم متى شاءت ولا تُرهقها وتجشّمها السير . ويجوز أن يكون قوله : « ورفّه في السّير » ، مِن قولك : رَفّهتُ عن الغريم ، أي نفّست عنه .

قوله عليه السلام : « ولا تسر أول الليل » ؛ قد ورَدَ في ذلك خبرٌ مرفوع ، وفي الخبر أنه حين تُنشر الشياطين . وقد علل أميرُ المؤمنين عليه السلام النهى بقوله : « فإن الله تعالى جعله سكنا ، وقدّره مُقاما لا ظعنا » ، يقول : لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه[2] كره أن يخالفوا ذلك . ولكن لقائل أن يقول : فكيف لم يكره السير والحركة في آخره وهو من جملة الليل أيضا ! ويمكن أن يكون فهم من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الليل الذى جُعل سكنا للبشر إنما هو من أوله إلى وقت السَّحَر .

---

(١) أى ترد الماء كما شاءت .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ . سورة يونس ٦٧ .

ثم أمره عليه السلام بأن يريح في الليل بَدَنَه وظَهرَه ، وهي الإبل ، وبنو فلان مُظهِرون ، أي لهم ظَهرٌ ينقلون عليه ، كما تقول : منجِبون ، أي لهم نجائب .

قال الراوندي : الظَّهرُ . الخيول ، وليس بصحيح ، والصحيح ماذكرناه .

قوله عليه السلام : « فإذا وقفتَ » أي فإذا وقفتَ ثقلَك ورَحلك لتسير ، فليكن ذلك حين ينبطح السحر .

قال الراوندي : « فإذا وقفتَ » ثم قال وقد رُوِي : « فإذا واقفتَ » ، قال : يعني إذا وقفت تحارب العدوّ وإذا واقفته ، وما ذكره ليس بصحيح ولا رُوِي ، وإنما هو تصحيف ، ألا تراه كيف قال بعدهبقليل : « فإذا لقيتَ العدّو »! وإنما مرادُهمعناالوصاة بأن يكون السيرُ وقت السحر ووقت الفَجْر .

قولهعليهالسلام : «حين ينبطح السحر» ، أي حين يتسع ويمتدّ ، أي لا يكون السحر الأول ، أي مابين السحر الأول وبين الفَجْر الأول ، وأصل الانبطاح السَّعة ،ومنهالأبطح بمكة ، ومنه البطيحة ، وتبطّح السيل ، أي اتّسع في البطحاء ، والفجر انفجر انشقّ .

ثم أمره عليه السلام إذا لقي العدوّ أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس،والواجب أن يكون الرئيس في قلب الجيش ، كما أنّ قلب الإنسان في وسط جسده ، ولأنه إذا كان وسطاً كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدة ، وإذا كان فيأحد الطرفين بعد من الطّرف الآخر ، فربما يختلّ نظامه ويضطرب .

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدوّ دنوّ من يريد أن يُنشِب الحرب ، ونهاه أن يبعدُ منهم بُعْدَ من يهاب الحرب ، وهي البأس ، قال الله تعالى : ﴿ وحينَ البأسِ ﴾[1] ،

---

(١) سو البقرة ١٧٧ .

أى حين الحرب ، بل يكون على حالٍ متوسّطة بين هـذين حتى يأتيَه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة .

ثم قال له : لايحملنّـكم بغضكم لهم على أن تبدءوهم بالقتال قبل أن تدعُوهم إلى الطاعة وتُعذِرُوا إليهم أى تصيروا ذوى عذر فى حربهم .

والشّنآن : البغض ، بسكون النون وتحريكها .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الحروب]

وفى الحديث المرفوع : « لاتمنّوا لقاء العدوّ فعسى أن تبتلوا بهم ، ولـكن قولوا : اللهمّ اكفنا شرّهم ، وكفّ عنّا بأسهم ، وإذا جاءوك يعرفون أو يصيحون فعليكم الأرض جلوساً ، وقولوا : اللهمّ أنت ربّنا وربّهم ، وبيدك نواصينا ونواصيهم ، فإذا غشوكم فثوروا فى وجوههم » .

وكان أبو الدّرداء يقول : أيّها الناس ، اعملوا عملا صالحا قبل الغَزْو ؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم .

وأوصى أبو بكر يزيدَ بن أبى سفيان حين استعمله فقال : سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدوّ فكن بعيدا من الحملة ، فإنّى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسِرْ بالأدِلّاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترسْ من البَيات ، فإن فى العرب غِرّة ، وأقلل من الـكلام ، فإنّ ماوُعِيَ عنك هو عليك ؛ وإذا أتاك كتابى فأمضه ، فإنما أعمل على حسب إنفاذه ، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم مُعظم عسكرك ، وأسبغْ عليهم من النفقة ، وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا

تلحنّ فى عقوبة فإن أدناها وجيعة ، ولا تُسرعنّ إليها وأنت تسكتفى بغيرها ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكِلْهم إلى الله فى سَرِيرتهم ، ولا تَعرِض عسكرك فتفضحه ، وأستودعك الله الذى لا تضيعُ ودائعه .

• • •

وأوصى أبو بكر أيضا عكرمة بن أبى جهل حين وَجَّهه إلى عُمَان فقال : سِرْ على اسم الله ، ولا تنزلنّ على مستأمِن ، وقدِّم النَّذيرين يديك ، ومهما قلتَ : إنى فاعل فافعله ، ولا تجعلنّ قولك لغوا فى عقوبة ولا عفو ، فلا تُرجَى إذا أمَّنت ، ولا تُخاف إذا خوّفت . وانظر متى تقول ومتى تفعل ، وما تقول وما تفعل ، ولا تتوعدنّ فى معصية بأكثر من عقوبتها ، فإنك إن فعلت أثِمت ، وإن تركت كذبت ، واتق الله ، وإذا لقيت فاصبر .

• • •

ولما ولَّى يزيدُ بنُ معاوية سَلْمَ بنَ زياد خراسان قال له : إن أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتُك صغيرا ، فلا تتّكلنّ على عذرٍ منّى ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منّى من قبل أن أقول : إياكَ منك ، واعلم أن الظنّ إذا أخلف منك أخلف فيك ، وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه ، وقد تبعك أبوك ، فلا تريحنّ نفسك ، واذكر فى يومك أحاديثَ غدِك .

وقال بعض الحكماء : ينبغى للأمير أن يكون له ستة أشياء : وزير يثق به ، ويُفشى إليه سِرّه ، وحصنٌ إذا لجأ إليه عصمه ـ يعنى فرسا ـ وسيفٌ إذا نزل به الأقرانُ لم يخف نبوَته ، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة وجدها ـ يعنى جوهرا ـ وطبّاخ إذا أقوى من الطعام صَنَع له مايَهِيجُ شهوته ، وامرأةٌ جميلة إذا دخل أذهبتْ همَّه . فى الحديث المرفوع : خيرُ الصحابة أربعة ؛ وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ،

ولن يُغلب اثنا عشر ألفا من قِلة إذا اجتمعت كلمتهم .

كان يقال : ثلاثة مَن كنّ فيه لم يُفلح فى الحرب : البَغْى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم ﴾[1] ، والمكر السىء ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[2] والنكث ، قال تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[3] .

* * *

يقال : خرجت خارجة بخراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمّه ذلك ، فقيل : مايهمّك منهم ! وجِّه إليهم وكيع بن أبى أسوَد يكفيك أمرَهم ، فقال : لا أوجّهه ، وإنّ وكيعا رجل فيه كِبْر ، وعنده بَغى ، يحقِر أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مبالاتُه بخَصْمه فلم يحترس ، فوجد عدوُّه فيه غِرّة ، فأوقع به .

وفى بعض كتب الفُرْس : إنّ بعض ملوكِهم سأل : أىّ مكايد الحرب أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار القوّة والسرور والغَلَبة ، وإماتة الفَرَق ، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح ، ولا انتصاح لمن يغشّ ، وكتمان السرّ ، وإعطاء المبلِّغين على الصِّدْق ، ومعاقبة المتوصلين بالكذب ، وألاّ تُخرج هاربا فتحوجه إلى القتال ، ولا تُضيِّق أمانا على مستأمِن ، ولا تدهشنّك الغنيمة عن المجاوزة .

وفى بعض كُتُب الهند : ينبغى للعاقل أن يحذَر عدوَّه المحاربَ له على كلّ حال ؛ يرهَب منه المواثَبة إنْ قرُب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولّى ، والمكْر إن رآه وحيدا . وينبغى أن يؤخّر القتال ماوجد بُدًّا ، فإنّ النفقة عليه من الأنفس ، وعلى غيره من المال .

---

(١) سورة يونس ٢٣ .

(٢) سورة فاطر ٤٣ .

(٣) سورة الفتح ١٠ .

(١٣)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه :

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا ، وَاجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ ، وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ .

• • •

[فصل فى نسب الأشتر وذكر بعض فضائله]

الشَّرْح :

هو مالكُ بنُ الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعةَ بن خُزيمة بن سعد بن مالك ابن النَّخَع بن عمرو بن عُلَة بن خالد بن مالك بن أُدَد . وكان فارسا شجاعا رئيسا من أكابر الشِّيعة وعُظمائها ، شديدَ التحقّق بولاء أميرِ المؤمنين عليه السلام ونصرِه ، وقال فيه بعد موته : رحم الله مالِكاً ، فلقد كان لى كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله !

ولما قَنَت علىٌّ عليه السلام على خمسة ولَعَنهم وهم : معاوية ، وعَمرو بن العاص ، وأبو الأعورَ السُّلَمىّ ، وحبيب بن مسلمة ، وبُسْرُ بنُ أرطاة ، قَنَت معاوية على خمسة ، وهم : علىّ ، والحسن ، والحسين — عليهم السلام — وعبد الله بن العبّاس ، والأشتر ، ولعنهم .
وقد روى أنه قال لما ولّى على عليه السلام بنى العباس على الحجاز واليَمَن والعِراق: فلماذا قتلْنا الشيخَ بالأمس ! وإنّ عليا عليه السلام لما بلغتْه هذه الكلمة أحضرَه ولاطفَه واعتَذَر إليه وقال له : فهل ولّيتُ حَسَنا أو حُسَينا أو أحدا من وَلَد جعفر أخى، أو عَقيلا

أو واحدا من ولده ! وإنما ولّيت ولد عمّي العباس ، لأنّي سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مرارا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : ياعمّ ، إنّ الإمارة إن طلبتها وكلتَ [1] إليها ، وإن طلبتْك أُعنت عليها . ورأيتُ بَنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم إذ ولّى غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يولّ أحدا منهم ، فأحببتُ أن أصل رَحِمهم ، وأُزيلَ ما كان في أنفسهم ؛ وبعد فإنْ علمتَ أحداً من أبناء الطُّلقاء هو خير منهم فأتني به . فخرج الأشتر وقد زال ما في نفسه .

وقد رَوَى المحدِّثون حديثا يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتَر رحمه الله ، وهي شهادةٌ قاطعةٌ من النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّه مؤمن ، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " في حرف الجيم ، في باب « جُندب » قال أبو عمر [2] :

لمّا حضرتْ أبا ذرّ الوفاةُ وهو بالرَّبَذة [3] بكت زوجه أمّ ذرّ ، فقال لها : ما يُبكيك ؟ فقالت : مالي لا أبكي وأنت تموت بفلاةٍ من الأرض ، وليس عندي ثوبٌ يسعُك كفَنا ، ولا بدّ لي من [4] القيام بجهازك ! فقال : أبشري ولا تبكي ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا يموت بين امرأين مُسلمين ولَدان أو ثلاثة ، فيصبران ويحتَسِبان فيَرَيان النار أبدا » ؛ وقد مات لنا ثلاثةٌ من الولد . وسمعتُ أيضا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتَنّ أحدُكم بفلاةٍ من الأرض يَشهده عِصابة من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر أحدٌ إلّا وقد مات في قرية وجماعة فأنا — لا أشكّ — ذلك الرجل ، والله ما كَذَبتُ ولا كُذِبت ، فانظري الطريق . قالت أمّ ذرّ : فقلتُ : أنّى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطُّرق ! فقال : اذهبي فتبصّري . قالت : فكنت

---

(١) وكلت إليها ، أي أحجمت إليها وعجزت .

(٢) بسنده عن علي بن المديني ، عن يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر ، عن أبيه .

(٣) الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة قريبة من ذات عرق .

(٤) الاستيعاب : « القيام » .

أشتد [١] إلى الكثيب ، فأصعد فأنظر ، ثم أرجع إليه فأمرضه ، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركابهم [٢] كأنهم الرخم [٣] تخبُّ بهم رواحلهم ، فأسرعوا إلىّ حتى وقفوا علىّ وقالوا : ياأمة الله ، مالك ؟ فقلتُ : امرؤٌ من المسلمين يموت، تكفنونه ؟ قالوا : ومن هو ؟ قلتُ : أبو ذرّ ، قالوا : صاحبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قلتُ: نعم ، ففدّوه بآبائهم وأمهاتهم ، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم : أبشروا فإنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول لنفرٍ أنا فيهم : « ليموتنّ رجل منكم بفلاةٍ من الأرض تشهده عصابةٌ من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر إلّا وقد هلك فى قرية وجماعة ، والله ما كذبت ولا كذبت ، ولو كان عندى ثوب يسعنى كفنا لى أو لامرأتى لم أكفّن إلا فى ثوب لى أو لها ؛ وإنى أنشدكم الله ألا يكفنى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا ! قالت : وليس فى أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال، إلّا فتى من الأنصار قال له : أنا أكفنك ياعم فى ردائى هذا ، وفى ثوبين معى فى عيبتى من غزل أمى ؛ فقال أبو ذرّ : أنت تكفّنى ، فمات فكفّنه الأنصارى وغسله النفرُ الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه ؛ فى نفر كلّهم يمان [٤] .

روى أبو عمر بن عبد البرّ قبل أن يروى هذا الحديث فى أول باب جُندَب : كان النفرُ الّذين حضروا موتَ أبى ذرّ بالرّبذة مصادفة جماعة ؛ منهم حُجْر بن الأدبر ، ومالك ابنُ الحارث الأشتر [٥] .

قلت : حُجر بن الأدبر هو حُجر بن عدىّ الذى قتلَه معاويةُ ، وهو من أعلام الشّيعة وعظمائها ، وأما الأشتر فهو أشهر فى الشّيعة من أبى الهذيل فى المعتزلة .

---

(١) أشتد : أعدو . (٢) الاستيعاب : « رحالهم » .

(٣) الرخم : جمع رخمة ، الطائر المعروف .

(٤) الاستيعاب : ٨٣ .

(٥) الاستيعاب : « وفتى من الأنصار معهم امرأته إليه فشهدوا موته ، وغمضوا عينيه ، وغسلوه وكفنوه فى ثياب الأنصارى ، فى خبر عجيب حسن فيه طول » .

قرئ كتاب " الاستيعاب " على شيخنا عبد الوهّاب بن سُكَينة المحدّث وأنا حاضر ، فلمّا انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذى عمر بنُ عبد الله الدبّاس ـ وكنت أحضرُ معه سَماعَ الحديث ـ : لتقل الشّيعة بعد هذا ما شاءتْ ، فما قال المرتضى والمفيد إلّا بعض ما كانَ حُجْر والأشترُ يعتقدانِه فى عثمان ومن تقدّمه ، فأشار الشيخ إليه بالسكوت ، فسكت .

وذكرْنا آثار الأشتر ومقاماته بصفّين فيما سبق .

والأشتر هو الّذى عانَقَ عبد الله بن الزبير يومَ الجَمَل فاصطرَعا على ظهر فرسَيْهما حتى وقعا فى الأرض ، فجعل عبدُ اللهِ يصرُخُ من تحتهِ : اقتلُونى ومالِكا ! فلم يُعلَم من الذى يعنيه لشدة الاختلاط وثَوَران النقع[1] ؛ فلو قال : اقتلُونى والأشتَر لقُتِلا جميعا ؛ فلما افترقا قال الأشتر :

أعائشَ لولا أنّنى كنتُ طاوِيًا ... ثلاثًا لألفيتِ ابن أختكِ هالِكا[2]

غداةَ يُنادِى والرِّماح تنوشُه ... كوَقع الصَّياصِيّ : اقتلُونى ومالِكَا[3]

فنجّاه منّى شِبعه وشَبابُه ... وأنّىَ شيخٌ لم أكن متماسِكا

ويقال : إنّ عائشةَ فقدتْ عبدَ الله فسألت عنه ، فقيل لها : عهدُنا به وهو معانق للأشتر ، فقالت : واثُكْلَ أسماء !

ومات الأشترُ فى سنة تسع وثلاثين متوجّها إلى مصر واليًا عليها لعلىّ عليه السلام . قيل : سُقِىَ سُمًّا ، وقيل : إنه لم يصحّ ذلك ، وإنما مات حَتْفَ أنفه .

* * *

فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه فى هـذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل ، ولعمرى لقد كان الأشتر أهلًا لذلك ، كان شديد البأس ، جواداً

---

(١) النقع : الغبار .

(٢) الطاوى : الجائع .

(٣) تنوشه : تتناوله .

رئيسا حليما فصيحا شاعراً ، وكان يجمع بين اللين والعنف ، فيسطو فى موضع السطوة ، ويرفق فى موضع الرفق .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر : إن هذا الأمر لا يصلح إلا القوىّ فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف .

وكان أنو شروان إذا ولّى رجلا أمر الكتابة أن يدع فى العهد موضع ثلاثة أسطر ليوقع فيها بخطه ، فإذا أتى بالعهد وقع فيه : سس خيار الناس بالمودة ، وسفلتهم بالإخافة ، وامزج العامة رهبة برغبة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنى لآمر أن أخرج للناس أمرا من العدل ، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم ، فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من ذلك سكنت إلى هـذا .

وقال معاوية : إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ؛ ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له : كيف ؟ قال : إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها .

وقال الشعبى فى معاوية : كان كالجمل الطب . إذا سكت عنه تقدم ، وإذا رد تأخر .

وقال ليزيد ابنه : قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالإيقاع ، وإياك والقتل ، فإن الله قاتل القتالين .

وأغلظ له رجل فحلم عنه ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ قال : إنا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

وتحرّ سليم مولى زياد عند معاوية بن زياد ، فقال معاوية : اسكت ويحك فما أدرك صاحبك بسيفه شيئا قط إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانى .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ما السياسة يا أبت ؟ قال : هيبة الخاصة لك ، مع صدق مودتها ، واقتيادك قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع.

***

وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرّقه هؤلاء فى كلامهم بكلمة واحدة قالها فى الأشتر ، وهى قوله : « لا يخاف بُطْؤُهُ عما الإسراعُ إليه أحزم ، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل .

***

قوله عليه السلام : « وعلى من فى حيّزكما » أى فى ناحيتكما .

والمِجَنّ : الترس .

والوَهْن : الضعف .

والسَّقطة : الغلطة والخطأ .

وهذا الرأى أحزم من هذا ، أى أدخل فى باب الحزم والاحتياط ، وهذا أمثل من هذا أى أفضل .

(١٤)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدو :

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّةٍ ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً ؛ وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

الشرح :

نهى أصحابه عن البغى والابتداء بالحرب ، وقد رُوِى عنه أنه قال : ما نُصِرت على الأقران الذين قتلتهم إلّا لأنّى ما ابتدأتُ بالمبارزة . ونهى — إذا وقعت الهزيمة — عن قتل المدبر ، والإجهاز على الجريح ، وهو إتمام قتله .

قوله عليه السلام : « ولا تصيبوا مُعوِرا » هو من يعتصم منك فى الحرب بإظهار عورته لتكفّ عنه ، ويجوز أن يكون المُعوِر هاهنا المريب الذى يظنّ أنه من القوم وأنّه حضَر للحرب وليس منهم ، لأنّه حضر لأمرٍ آخر .

قوله عليه السلام : « ولا تهيجوا النّساء بأذًى » ، أى لا تحرّكوهنّ .

والقهر : المتجبر : والهِراوة : العصا .

وعطَف « وعقبه » على الضمير المستكنّ المرفوع فى « فيميز » ولم يؤكد للفصل بقوله : بها ، كقوله تعالى : ﴿ ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾[1] ، لما فصل بلا عطف ولم يحتج إلى تأكيد .

•••

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومما ورد فى الشعر فى هذا المعنى قول الشاعر[2] .

إنّ مِنْ أعظم الكبائر عندى   قتلُ بيضاء حُرّة عُطْبُولِ[3]

كُتب القتلُ والقتالُ علينا   وعلى المحصنات جرُّ الذُّيولِ

وقالت امرأة عبد الله بن خلف الخزاعىّ بالبصرة لعلىّ عليه السلام بعد ظفره ـ وقد مرّ ببابها : ياعلىّ ، ياقاتلَ الأحبّة ، لا مرحباً بك ! أيتم الله منك ولدك كما أيتمتَ بنى عبدِ الله بن خلف ! فلم يردّ عليها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها ، ففهمت إشارتَه ، فسكتتْ وانصرفتْ . وكانت قد سترتْ عندها عبدَ الله بن الزّبير ومروانَ بنَ الحكم ، فأشار إلى الموضع الذى كانا فيه ، أى لو شئتُ أخرجتُهما ! فلما فهمت انصرفتْ ، وكان عليه السلام حليماً كريماً .

وكان عمر بنُ الخطّاب إذا بعثَ أمراء الجيوش يقول : بسم الله ، وعلى عَوْن الله ،

---

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) من أبيات تنسب لعمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه : ٤٩٨ .

(٣) العطبول : الشابة الفتية الممتلئة ؛ وبعده :

قُتلتْ باطلاً على غير ذنبٍ   إنّ لله درّها من قتيـــلِ

وبركته ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند الغارة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ، ولا امرأة ، ولا وليدا ، وتوقوا أن تطئوا هؤلاء عند التقاء الزحفين وعند حمة النهضات وفي شن الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

واستشار قوم أكثم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، واثبتوا ، فإن أحزم الفريقين الركين[1] ، ورب عجلة تهب[2] ريثا .

وكان قيس بن عاصم المنقري إذا غزا شهد معه الحرب ثلاثون من ولده يقول لهم : إياكم والبغي ، فإنه ما بغى قوم قط إلا ذلوا ؛ قالوا : فكان الرجل من ولده يظلم فلا ينتصف مخافة الذل .

قال أبو بكر يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة – وكانوا اثني عشر ألفا – فهزموا يومئذ هزيمة قبيحة ، وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾[3] .

وكان يقال : لا ظفر مع بغي ، ولا صحة مع نهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا سؤدد مع شح .

* * *

(١) الركين : الحريز المحتمي .
(٢) الريث : الإبطاء ؛ وهو مثل .
(٣) سورة التوبة : ٢٥ .

[قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا مَلِك الهياطلة]

ومن الكلمات المستحسنة فى سوء عاقبة البَغْى ما ذكره ابن قتيبة فى كتاب " عيون الأخبار " أن فَيروز بن يزدَجرد بن بهرام لما مَلَك سار بجنوده نحو بلاد الهياطلة ، فلما انتهى إليهم اشتدّ رعبُ مَلِكهم أخشنوار منه وحذره ، فناظر أصحابَه ووزراءه فى أمره فقال رجل منهم : أعطِنى مَوْثقا من الله وعَهْدا تطمئنّ إليه نفسى أن تَكفِيَنى الغمّ بأمر[1] أهلى وولدى ، وأن تُحسِن إليهم ، وتخلُفنى فيهم ، ثم اقطَع يدىّ ورجْلىّ وألقِنى فى طريق فَيروز حتى يمرّ بى هو وأصحابه ، وأنا أكفيك أمرَهم[2] ، وأورِطهم مَوْرِطا تكون فيه هَلَكتُهم . فقال له أخشنوار : وما الذى تنتفع به من سلامتنا وصلاحِ حالِنا إذا أنت هلكتَ ولم تشركنا فى ذلك! فقال : إنى قد بلغتُ ما كنتُ أحِبّ أن أبلغ من الدنيا ، وأنا موقن أن الموت لابدّ منه ، وإن تأخّر أياما قليلة ، فأحِبّ أن أختِم عمَلى بأفضل ما يُختَم به الأعمال من النصيحة لسلطانى ، والنِّكاية فى عدوّى ، فيَشرُف بذلك عَقِبى ، وأصيبَ سعادة وحُظوة فيما أمامى .

ففعل أخشنوار به ذلك ، وحمَله فألقاه فى الموضع الذى أشار إليه ، فمرّ به فيروزُ فى جنوده ، فسأله عن حالِه ، فأخبره أن أخشنوار فعل به ما يراه وأنه شديد الأسف ، كيف لا يستطيع أن يكون أمام الجيش فى غزوِ بلادِه وتخريب مدينتِه ، ولكنه سيدُلّ الملكَ على طريق هو أقربُ من هـذا الطريق الذى يريدون سلوكه وأخفَى ، فلا يشعر أخشنوار حتى يهجُم عليه فينتقمَ الله منه بكم ، وليس فى هـذا الطريق من المكروه إلا تغوير[3] يومين ، ثم تفضُون إلى كلّ ما تُحبّون .

---

(١) العيون : « أن تكفيني أهلي وولدي » . (٢) العيون : « أكفيك مؤونتهم وأمرهم » .

(٣) التغوير : إتيان الغور . وفى عيون الأخبار « تغوير يومين » ؛ أى السير فى المفازة .

فقبِل فيروز قولَه بعد أن أشار إليه وزراؤه بالاتّهام له، والحذرِ منه ، [وبغير ذلك][1]. فخالفهم وسلك تلك الطريقَ ، فانتهوا بعد يومين إلى موضع من المفازة لاصَدَرَ لهم عنه ، ولا ماء معهم ، ولا بين أيديهم ، وتبيّن لهم أنّهم قد خُدِعوا ، فتفرّقوا في تلك المفازة يمينا وشمالا يلتمِسون الماء ، فقتل العطشُ أكثرَهم ، ولم يَسلَم مع فيروز إلّا عدّة يسيرة ، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه ، فواقعَهم في تلك الحال التي هم فيها من القِلّة والضُرّ والجَهْد ، فاستمكنوا منهم ، بعد أن أعظموا[2] النّكاية فيهم .

وأُسِر فيروز ، فرغب أخشنوار أن يمُنّ عليه وعلى من بَقِيَ من أصحابه على أن يجعل له عهدَ الله وميثاقه؛ ألّا يغزُوَهم أبدا ما بَقِيَ ، وعلى أن يَحُدّ فيما بينه وبين مملكتهم حدّا لا يتجاوزه جنودُه . فرضي أخشنوار بذلك ، فخلّى سبيله ، وحمّلا بين المملكتين حجرا[3] لا يتجاوزه كلّ واحد منهما .

فمكث فيروز بُرْهة من دهره ، ثم حمَلَه الأَنَفُ على أن يعود لغزْو الهياطِلة ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فنهوْه عنه ، وقالوا : إنّك قد عاهَدْتَه ، ونحن نتخوّف عليك عاقبة البغى والغَدْر ، مع مافي ذلك من العار وسوء القالة[4] .

فقال لهم : إنما اشترطت له ألّا أحوز الحجرَ الّذى جعلناه بيننا ، وأنا آمرُ بالحجر فيحمَل أمامنا على عَجل .

فقالوا : أيّها الملك ، إنّ العهود والمواثيق التى يتعاطاها النّاسُ بينهم لا تُحمَل على مايُسِرّه المعطى لها ، ولكن على مايعلن به المعطَى إيّاها ، وإنّما جعلتَ عهدَ الله وميثاقه على الأمر الذى عرَفه ، لاعلى الأمر الّذى لم يخطر له ببال . فأبى فيروز ومضى في غزْوته حتى انتهى إلى الهياطلة ، وتصافّ الفريقان للقتال .

---

(١) من عيون الأخبار .
(٢) عيون الأخبار : « وأعظموا النكاية » .
(٣) عيون الأخبار : « حدا لا تجاوزه » .
(٤) القول في الخير ، والقالة في الشر ، وفي عيون الأخبار : « المقالة » .

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صفّيهم ، فخرج إليه ، فقال له أخشنوار : إنّى قد ظننتُ أنه لم يدعك إلى مُقامك هذا إلا الأنَف مما أصابك ، ولعمرى إن كنّا قد احتلنا لك بما رأيتَ لقد كنت التمستَ منّا أعظمَ منه ، وما ابتدأناك ببغى ولا ظلم ، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحريمنا ، ولقد كنتَ جديرا أن تكون من سوء مكافأتنا بمنّنا عليك وعلى من معك ، ومن نقض العهد والميثاق الذى أكّدته على نفسك أعظم أنفا ، وأشدّ امتعاضا مما نالك منا ، فإنا أطلقناكم وأنتم أسارى ، ومننا عليكم وأنتم عَلَى الهلكة مُشرفون ، وحقنّا دماءكم ولنا عَلَى سفكها قُدرة . وإنا لم نجبُرك عَلَى ما شرطتَ لنا ، بل كنتَ أنتَ الراغبُ إلينا فيه ، والمريدُ لنا عليه ، ففكّر فى ذلك ، وميّزْ بين هذين الأمرين فانظر أيّهما أشدّ عارا ، وأقبح سماعا ، إن طلب رجل أمرا فلم يَقدِر له ولم يَنجَح فى طِلبته وسلك سبيلا فلم يظفر فيه ببغيته ، واستمكن منه عدوّه على حال جَهْد وضَيعة منه وممّن هم معه ،

فمنّ عليهم وأطلقهم على شرطٍ شرطوه وأمرٍ اصطلحوا عليه ، فاصطبر[1] بمكروه القضاء ، واستحيا مِن الغَدْر والنّكث ، أن يقال : نقض العهدَ وأخفر[2] الميثاق ، مع أنى قد ظننت أنه يزيدك لجاجة[3] ما تثق به مِنْ كثرة جنودِك ، وما ترى من حسن عُدّتهم ، وما أجِدُنى أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شُخوصِك بهم ، عارفون بأنك قد حملتهم عَلَى غير الحق ، ودعوتهم إلى ما يُسخط الله ، وأنهم فى حربنا غير مستبصِرين ، ونيّاتهم عَلَى مناصحتك مدخولة .

فانظر ما قَدْر غَناء من يُقاتل عَلَى هذه الحال ، وما عسى أن يبلغ نكايته فى عدوّه ، إذا كان عارفا بأنه إن ظفِر فمع عار ، وإن قُتِل فإلى النار ! وأنا أذكّرك الله الذى جعلته

---

(١) عيون الأخبار : « فاصطبر » .
(٢) أخفر ميثاقه : نقض عهده ؛ وفى عيون الأخبار : « خفر الميثاق » .
(٣) عيون الأخبار : « نجاحاً » .

على نفسك كفيلا ، وأذكّرك نعمتى عليك وعلى مَنْ معك ، بعد يأسكم من الحياة ، وإشفائكم عَلَى الممات ، وأدعوك إلى ما فيه حظّك ورُشْدُك من الوفاء بالعهد ، والاقتداء بآبائك وأسلافك الذين مضَوا عَلَى ذلك فى كلّ ما أحبّوه وكرِهوه ، فأحمدوا عواقبه وحسُن عليهم أثرُه .

ومع ذلك فإنك لستَ عَلَى ثقة من الظفر بنا ، وبلوغ نُهْمَتك[1] فينا ، وإنما تلتمس أمراً يلتمس منك مثله ؟ وتنادى عدوّا لعلّه يمنح النصرَ عليك ، فاقبلْ هذه النصيحة فقد بالغتُ فى الاحتجاج عليك ، وتقدّمتُ بالإعذار إليك ، ونحن نستظهر بالله الذى اعتذَرْنا إليه ، ووثِقْنا بما جعلت لنا من عهده ، إذا استظهرتَ بكثرة جنودِك ، وازدهتك عِدّة أصحابك ، فدونك هذه النصيحة ، فوالله ما كان أحدٌ من أصحابك يبالغ لك أكثرَ منها ، ولا يزيدك عليها ، ولا يحرمنّكَ منفعتَها مخرجُها منى ، فإنه ليس يُزْرِى بالمنافع والمصالح عند ذوى الآراء صُدورُها عن الأعداء ، كما لا تحسُن المضارُّ أن تكون عَلَى أيدى الأصدقاء .

واعلم أنه ليس يدعونى إلى ما تسمع من مخاطبتى إيّاك ضعفٌ من نفسى ، ولا من قِلّة جنودى ، ولكنى أحببتُ أن أزداد بذلك حجّةً واستظهارا ، فأزداد به للنصر والمعُونة من الله استيجابا ، ولا أوثر عَلَى العافية والسلامة شيئاً ما وجدتُ إليهما سبيلا[2] .

فقال فيروز : لستُ ممن يَرْدَعه عن الأمر يهُمّ به الوعيد ، ولا يصده التهدد والترهيب ، ولو كنتُ أرَى ما أطلب غَدْرا منى ، إذاً ما كان أحدٌ أنظرَ ولا أشدّ إبقاء منى على نفسى ، وقد يعلم اللهُ أنى لم أجعل لك العهدَ والميثاقَ إلا بما أضمرتُ فى نفسى ، فلا يغرنّك الحالُ التى كنتَ صادفتَنا عليها من القِلّة والجَهْد والضعف .

---

(١) النهمة : الحاجة والشهوة .

(٢) فى عيون الأخبار بعدها : « فأبى فيروز إلا تمنعا لجحه فى الحجر الذى جعله حدا بينه وبينه » .

فقال أخشنوار : لا يغرنّك ماتخدع به نفسك من حَمْلِك الحجَر أمامك ، فإنّ الناس لو كانوا يُعطُون العهودَ على ماتَصِف من إسرارِ أمرٍ وإعلانِ آخر ، إذاً ما كان ينبغى لأحـد أن يغترّ بأمان ، أو يثقَ بعهد ! وإذاً ما قَبِل الناسُ شيئاً مما كانوا يعطون من ذلك ، ولـكنّه وضع على العلانية ، وعلى نيّة من تُعقَد له العهود والشروط . ثم انصرف.

فقال فيروز لأصحابه : لقد كان أخشنوار حَسَن المحـاورة ، وما رأيتُ للفرَس الّذى كان تحته نظيرا فى الدّوابّ ، فإنه لم يُزِل قوائمه ، ولم يرفع حوافره عن مواضعها ، ولا صَهل ، ولا أحدَث شيئا يقطع به المحاورة فى طولِ ماتواقفْنا .

وقال أخشنوار لأصحابه : لقد واقفتُ فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كله ،فلم يتحرك، ولم ينزع رجلَه من ركابه ، ولا حنَى ظهره ، ولا التفتَ يمينا ولا شمالا ، ولقد تورّكت أنا مرارا ، وتمطّيت على فرسى ، والتفتّ إلى من خلفى ، ومددتُ بصرى فيما أمامى، وهو منتصب ساكنٌ على حاله ، ولولا محاورته إياى لظننت أنه لايبصرنى. وإنما أرادا بما وصفا من ذلك أن يُنشرَ هذان الحديثان فى أهلِ عسكرهما فيشتغلوا بالإفاضة فيهما، عن النظر فيما تذاكرا .

فلما كانـ فى اليوم الثـانى أخرَج أخشوار الصحيفـة التى كتبها لم فيروز ، ونصبهـا على رُمح ليراها أهلُ عسكر فيروز فيعرفوا غدْره وبغْيـه ، ويخرجوا من متابعته على هَواه ، فما هو إلا أن رأوها ، حتى انتقض عسكرُهم واختلفوا ، وماتلبثوا إلا يسيرا حتى انهزَموا ، وقُتِل منهم خلقٌ كثير ، وهلك فيروز ، فقال أخشنوار: لقد صدق الذى قال : لامردّ لما قدّر ولا شىء أشدّ إحالة لمنافع الرأى من الهوى واللّجاج، ولا أضيع من نصيحة يُمنَحها من لايوطّن نفسَه على قبولها ، والصّبر على مكروهِها، ولا أسرع عقوبةً وأسوأ عاقبةً من البغى والغَدْر ، ولا أجلب لعظيم العـارِ والفُضوح من الأنف وإفراط العُجْب [١] .

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١١٧ — ١٢١ .

(١٥)

الأصْلُ

وكان عليه السلام يقول إذا لقى العدو محاربا :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ ، وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ .

اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا ، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا .

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .

● ● ●

الشَّرْحُ :

أفضت القلوب : أى دنت وقرُبَت ، ومنه أفضَى الرجلُ إلى امرأته أى غشيها ، ويجوز أن يكون « أفضت » أى بسرّها ، فحذف المفعول .

وأنضيت الأبدان : هزلت ، ومنه النِّضو ، وهو البعير المهزول .

وصرّح : انكشف . والشنآن : البغضة .

وجاشت : تحركت واضطربت .

والمراجل : جمع مِرْجل ، وهى القِدْر .

والأضغان : الأحقاد ، واحدها ضغن .

وأخذ سَدِيف مولى المنصور هذه اللفظة فكان يقول فى دعائه : اللهم إنا نشكو

إليك غيبة نبيّنا وتشتّت أهوائنا، وماشملنا من زَيْغ الفِتَن، واستولى علينا من غَشْوة الحَيْرة حتى عاد فينا دولة بعد القِسْمة، وأمارتنا غلبة بعد المشورة؛ وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمّة؛ واشتريت الملاهي والمعازِف بمال اليتيم والأرملة، ورَعَى في مالِ الله من لا يَرْعَى له حرمة، وحكم في أبشار المؤمنين أهلُ الذمّة، وتولّى القيامَ بأمورهم فاسقُ كلّ محلّة، فلا ذائدَ يذودُهم عن هَلَكة، ولا راعٍ ينظرُ إليهم بعين رحمة، ولا ذو شَفَقة يُشبِع الكَبِد الحرّى من مَسْغَبة، فهم أولو ضَرَعٍ وفاقة، وأسراء فقرٍ ومَسْكنة، وحُلَفاء كآبة وذلّة. اللهمّ وقد استَحصَدَ زرعُ الباطل وبلغ نهايتَه، واستَحْكَم عمودُه، واستَجمَع طَرِيدُه، وحذف وَليدُه، وضَرَبَ بجرانه، فأتِحْ له من الحقّ يداً حاصدة، تجذّ سَنامَه، وتهشم سُوقَه، وتَصرَع قائمه، ليَستحقّ الباطل بقُبح حِلْيته، ويظهرَ الحقّ بحُسْن صورته.

ووُجدتْ هذه الألفاظ في دعاء منسوب إلى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعلّه من كلامه، وقد كان سَديف يَدْعو به.

(١٦)

الأصل :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب :

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا ، وَوَطِّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا ، وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ .

وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

* * *

الشرح :

قال : لا تستصعبوا فَرَّةً تفرّونها بعدها كَرَّة ، تجبُرون بها ما تكسّر من حالكم ، وإنما الذى ينبغى لكم أن تستصعبوه فَرّة لا كَرّة بعدها ؛ وهذا حضٌّ لهم على أن يكرّوا ويعودُوا إلى الحرب إن وقعتْ عليهم كَسْرةٌ .

ومثله قولُه : « ولا جَوْلةٌ بعدَها حَمْلة » ، والجوْلة : هزيمة قريبة ليست بالممعنة [1] .

واذمُرُوا أنفسكم ، مِن ذمَره على كذا أى حضّه عليه . والطّعن الدَّعْسىّ : الذى يُحشَى به أجواف الأعداء ، وأصل الدَّعْس الحشْو ، دَعستُ الوعاء : حشوْته .

وضرب طِلَحْفِىّ ، بكسر الطاء وفتح اللام ، أى شديد ، واللام زائدة .

---

(١) الممعنة ؛ من الإمعان ؛ وفى ب : « ممعة » تحريف .

ثم أمرَهم بإماتة الأصوات ، لأنّ شِدّة الضَّوضاء فى الحرب أمارة الخوف والوَجَل .

ثم أقسم أنّ معاوية وعَمْراً ومنَ والاهما من قريش ما أسلَموا ولكن استَسلَموا خوفاً من السّيف ونافقُوا ؛ فلمّا قدَروا على إظهار ما فى أنفسهم أظهروه ؛ وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام جعل محاربتَهم له كفرا .

وقد تقدّم فى شرح حالِ معاويةَ وما يذكره كثيرٌ من أصحابنا من فساد عقيدتِه مافيه كفاية .

• • •

[نبذ من الأقوال المتشابهة فى الحرب]

وأوصَى أكثمُ بنُ صَيفِي قوما نهضُوا إلى الحرب فقال : ابرزُوا للحرْب ، وادّرعوا الليل ، فإنه أخفَى للوَيْل ، ولا جماعةَ لمن اختلف ، واعلموا أن كثرة الصِّياح من الفَشَل ، والمرء يَعجز لا محالة .

وسمعتْ عائشةُ يومَ الجمل أصحابها يُكبّرون ، فقالت : لا تكبّروا هاهنا ، فإنّ كثرة التكبير عند القتال من الفشَل .

وقال بعض السّلَف : قد جمع الله أدبَ الحرب فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا . . . ﴾ [١] الآيتين .

وقال عُتبة بنُ ربيعةَ لقريش يومَ بدر : ألا ترَونهم - يعنى أصحابَ النبيّ صلى الله عليه وآله - جُثِيّاً على الرُّكب ، يتلمّظون تلمُّظ الحيّات !

وأوصى عبدُ الملك بنُ صالح أميرَ سَرِيّة بعثَها ، فقال : أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكَيِّس الذى إن وَجَد رِبحا تجر ، وإلا احتفظ برأس المال ؛ ولا تطلب

(١) سورة الأنفال ٤٥ ، ٤٦ .

الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشدّ حذرًا من احتيال عدوّك عليك .

وفي الحديث المرفوع أنّه صلّى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة : لا تُشقِ حبشَك ؛ فإن الله تعالى ينصُر القومَ بأضعَفِهم .

وقال ابنُ عبّاس – وذكر عليًّا عليه السلام : ما رأيتُ رئيسًا يُوزَن به ، لقد رأيته يومَ صِفّين وكأن عينيه سراجا سليط [1] وهو يحمّس أصحابَه إلى أن انتهى إليّ وأنا في كَنَف فقال : يامعشرَ المسلمين ، استشعِروا الخشية ، وتجلببُوا السكينة ، وأكمِلوا اللأْمة... الفصل المذكور فيما تقدّم .

(١) السليط : زيت يضاء به .

(١٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه :

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ ؛ أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ .

وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ ، فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فَكَذَلِكَ نَحْنُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ . وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ . وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً ، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً ، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً ، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً . وَالسَّلَامُ .

● ● ●

الشرح :

يقال : طلبتُ إلى فلان كذا ، والتقدير طلبتُ كذا راغبا إلى فلان ، كما قال تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ [١] أى مُرسلا .

ويُروى « إلّا حُشاشةَ نَفْسٍ » ، بالإفراد ، وهو بقيّة الرُّوح فى بدَن المريض .

ورُوِى : « ألا ومَن أكله الحقّ فإلى النار » ، وهذه الرواية أليَق من الرّواية المذكورة فى أكثر الكُتُب ، لأنّ الحق يأكل أهلَ الباطل ، ومَن روَى تلك الرواية أضمَرَ مُضافاً تقديرُه « أعداء الحق » ، ومضافاً آخَر تقديرُه « أعداء الباطل » . ويجوز أن يكون مَن أكله الحقّ فإلى الجنّة ، أى من أفضَى به الحقّ ونُصرتُه والقيامُ دونَه إلى القتل ؛ فإنّ مصيرَه إلى الجنة ، فيسمَّى الحقّ لما كانت نُصرته كالسبب إلى القَتل أكْلا لذلك المقتول ، وكذلك القولُ فى الجانب الآخَر .

وكان الترتيب يقتضى أن يجعل هاشماً بإزاء عبدِ شمس ، لأنّه أخوه فى قُعدد [٢] ، وكِلاهُما ولَدُ عبدِ مناف لصُلْبه ، وأن يكون أميّة بإزاء عبد المطلب ، وأن يكون حَرْبٌ بإزاء أبى طالب ، وأن يكون أبو سُفيانَ بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّ كلّ واحد من هؤلاء فى قُعْدُدِ صاحبه ، إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان فى صِفّين بإزاء معاويةَ اضطرَّ إلى أن جعَل هاشما بإزاء أمية بن عبد شمس .

فإن قلت : فهلاّ قال : « ولا أنا كأنت » ؟ قلتُ : قبيحٌ أن يقال ذلك ، كما لا يقال : السَّيفُ أمضَى من العصا ، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافّةً ، نعم قد يقولها لا تصريحا ، بل تعريضا ، لأنه يرفع نفسَه على أن يقيسَها بأحَد .

وها هنا قد عرّض بذلك فى قوله : « ولا المهاجرُ كالطّليق » . فإن قلتَ : فهل معاوية

---

(١) سورة النمل ١٢ .
(٢) قعدد : أى قريب الآباء من الجد الأكبر .

من الطُّلَقاء ؟ قلت : نعم ، كلُّ من دَخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله مكّة عَنوةً بالسّيف فملكه ثم مَنّ عليه عن إسلامٍ أو غيرِ إسلام فهو من الطُّلَقاء ممّن لم يُسلم كصفوان ابن أميّة ، ومَن أسلَم كمعاوية بن أبى سُفْيان ، وكذلك كلُّ من أُسِرَ فى حَرْب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ثم امْتَنّ عليه بِفداء أو بغيرِ فِداء فهو طَليق ، فمَن امتَنّ عليه بفداء كسهيل بن عمرو ، وممّن امتنّ عليه بغير فداء أبو عزّة الجُمَحىّ ، وممن امتنّ عليه معاوَضة أى أطلق لأنه بإزاء أسيرٍ من المسلمين عَمْرو بن أبى سُفْيان بن حَرْب ، كلّ هؤلاء معدودون من الطُّلقاء .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولا الصريح كاللَّصيق » ، وهل كان فى نسب معاويةَ شُبهةٌ ليقول له هذا ؟

قلتُ : كلاّ إنه لم يقصد ذلك ، وإنما أراد الصريحَ بالإسلام واللّصيق فى الإسلام ، فالصريح فيه هو من أسلَم اعتقاداً وإخلاصاً ، واللّصيق فيه مَن أسلم تحتَ السيف أو رغبةً فى الدنيا ، وقد صرّح بذلك فقال : « كنتم ممّن دخل فى هذا الدين إمّا رَغبةً وإمّا رَهْبة » .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولَبِئس الخَلَف خَلَفاً يتبع سَلَفاً هَوَى فى نار جهنّم » ؟ وهل يُعابُ المسلم بأنّ سَلَفه كانوا كفّاراً !

قلتُ : نعم ، إذا تَبِع آثارَ سَلفِه واحتذَى حذوَهم ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام ما عابَ معاويةَ بأنّ سَلَفه كُفّار فقط ، بل بكونه متبعاً لهم .

قولُه عليه السلام : « وفى أيدينا بعدُ فَضْل النبوّة » أى إذا فرَضْنا تساوِيَ الأقدام فى مآثِر أسلافكم كان فى أيدينا بعدُ الفَضلُ عليكم بالنبوّة التى نَعَشْنا بها الخاملَ وأخْمَلنا بها النّبيه .

قوله عليه السلام : « على حينَ فازَ أهلُ السّبْق » ، قال قوم من النُّحاة :

« حينَ » مبنىٌّ هاهنا عَلَى الفتْح. وقال قوم : بل منصوبٌ لإضافته إلى الفعل .

قوله عليه السلام : « فلا تجعلنّ للشيطان فيكَ نصيبا » ، أى لا تستلزم من أفعالك مايدوم به كونُ الشيطان ضارباً فيك بنصيب ، لأنّه ما كتب إليه هذه الرسالةَ إلّا بعد أن صار للشيطان فيه أوفرُ نصيب ، وإنّما المراد نهيُه عن دوام ذلك واستمراره .

* * *

[ذكر بعض ما كان بين علىّ ومعاوية يوم صفين]

وذكر نصرُ بنُ مُزاحم بن بشار المِنْقَرىّ فى كتاب "صِفّين" أنّ هذا الكتاب كتبه علىّ عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة . قال نصر : أظهر علىٌّ عليه السلام أنّه مُصَبِّحٌ معاويةَ ومناجزٌ له ، وشاعَ ذلك من قوله . ففزع أهلُ الشام لذلك ، وانكسروا لقوله . وكان معاويةُ بنُ الضحّاك بن سفيان صاحب راية بنى سُلَيم مع معاوية مُبغِضا لمعاوية وأهلِ الشام ، وله هوًى مع أهلِ العراق وعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وكان يكتُب بأخبار معاويةَ إلى عبد الله بن الطُّفَيل العامرىّ ، وهو مع أهل العراق ، فيخبر بها عليّاً عليه السلام ، فلما شاعت كلمةُ علىّ عليه السلام وَجِلَ لها أهلُ الشام ، وبعث ابن الضحاك إلى عبدِ الله بنِ الطفيل : إنى قائل شِعْرا أُذْعَر به أهلَ الشام وأُرغِم به معاوية ، وكان معاويةُ لا يتّهمه ، وكان له فضل ونجدة ولسان ، فقال ليلا ليستمع أصحابه :

ألا ليتَ هذا الليل أطبق سَرْمَدا	علينا وأنَّا لا نرَى بعدَه غـــدا
ويا ليتَــه إن جاءنا بصبـــاحِـــه	وجَدْنا إلى مَجرَى الكواكبِ مَصْعَدا
حِـــذارَ علىّ إنه غـــيرُ مُخلِفٍ	مَدَى الدهر مالبّى المُلبُّون مَوْعِدا
وأما قرارى فى البــلاد فليس لى	مُقامٌ وإن جاوزتُ جابَلْقَ مُصعِدا

كأنى به فى الناس كاشفُ رأسِه ... على ظهر خوّار الرّحالة أجردا
يخوضُ غمارَ الموتِ فى مُرْجَحِنّةٍ ... يُنادُون فى نقع العجاج محمّدا[1]
فوارسُ بدرٍ والنّضيرِ وخيبرٍ ... وأُحْدٍ يهزُّون الصفيحَ المهنّدا
ويومَ حنينٍ جالدوا عن نبيّهم ... فريقاً من الأحزاب حتى تبدّدا[2]
هنالك لاتلوِى عجوزٌ على ابنها ... وإن أكثرت من قولِ : نفسى لك الفدا
فقل لابن حَرْبٍ ما الذى أنت صانعٌ ... أتثبت أم تدعوك فى الحرب قُعْدُدَا[3] ؟
فلا رأىَ إلا تركنا الشامَ جهرةً ... وإن أبرقَ الفجفاجُ فيها وأرعدا[4]

فلما سمع أهلُ الشام شعرَه أتوا به معاوية ، فهمّ بقتله ، ثم راقب فيه قومه ، فطرده من الشام ، فلحق بمصر وندِم معاويةُ على تسييره إياه . وقال معاوية : لَشِعرُ السُّلَمى[5] أشدّ على أهل الشام من لقاء علىّ ، ماله قاتله الله ، لو صار خلف جابَلْق مصعداً لم يأمن علياً ! ألا تعلمون ماجابلق ؟ يقوله لأهل الشام ، قالوا : لا ، قال : مدينة فى أقصى المشرق ليس بعدها شىء .

• • •

قال نصر : وتناول الناس كلمة علىّ عليه السلام : « لأناجزنّهم مصبحاً[6] » ، فقال الأشتر :

قد دنا الفصلُ فى الصّباح وللسّلْمِ رجالٌ وللحروب رجالُ

---

(١) المرجحنة : الأمر العظيم .
(٢) جالدوا : دافعوا .
(٣) القعدد : الجبان القاعد عن الحرب ؛ وبعده فى صبى :

وظنّى بألّا يصبر القومُ موقفاً ... يقفهُ وإن لم يَجْرِ فى الدهر لِلمَدَى

(٤) الفجفاج : كثير الكلام المتشبع بما ليس عنده .
(٥) صبى : « لقول السلمى » .
(٦) صفين : « إنى مناجز القول إن أصبحت » .

فرجالُ الحروبِ كلُّ خِدَبٍّ ... مقحمٍ لاتَهدُّه الأهوالُ(1)

يضرب الفارسَ المدجَّجَ بالسَّيـ ... ـف إذا فرَّ في الوغَا الأكفالُ

يابنَ هندٍ شُدَّ الحيازيمَ للمو ... تِ ولا تذهبنْ بكَ الآمالُ

إن في الصّبح إن بقيت لأمراً ... تتفادى من هوله الأبطالُ

فيه عزّ العراق أو ظفر الشا ... مِ بأهلِ العراق والزلزالُ

فاصبرُوا للطِّعان بالأَسَل السُّمْـ ... ـرِ وضَرْبٍ تجرى به الأمثالُ(2)

إن تكونوا قتلتم النَّفَرَ البِيـ ... ـضَ وغالتْ أولئك الآجالُ(3)

فلنا مثلهم غداة التّلاق ... وقليلٌ من مثلهمْ أبدالُ

يخضِبون الوَشيجَ طعنًا إذا جرّ ... تْ من الموت بينهم أذيالُ(4)

طلب الفوزَ في المعادِ وفيه ... تُستهانُ النفوسُ والأموالُ

قال: فما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشتر قال: شعرٌ منكر، من شاعرٍ منكر، رأس أهل العراق وعظيمهم، ومِسعَر حربهم، وأول الفتنة وآخرُها، فقد رأيت أن أعاود عليًا وأسأله إقراري على الشام، فقد كنت كتبتُ إليه ذلك فلم يجب إليه، ولأكتبنّ ثانيةً فألقي في نفسه الشكَّ والرقة. فقال له عمرو بن العاص وضحك: أين أنتَ يامعاوية من خدعة عليّ! قال: ألسنا بني عبد مناف! قال: بلى، ولكن لهم النبوّة دونك، وإن شئت أن تكتب فاكتب؛ فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلامُ مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عُقْبة، وكان من ناقلة أهل العراق:

أما بعد فإنك لو علمتَ أن الحرب تبلغ بنا وبك مابلغتْ لم يجنها بعضنا على

---

(1) الخدب: الشديد الصلب. والمقحم، من قحم في الأمر كنصر قحوما؛ إذا رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية.

(2) الأسل: الرماح. والسمر: الذوابل.

(3) يقال: غاله غول؛ إذا أهلكه.

(4) الوشيج: شجر الرماح.

بَعْض ، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقى لنا منها ما نندم به على مامضى ، ونصلح به مابقىَ ، وقد كنت سألتُك الشام على أن تلزمنى لك بيعة وطاعة ، فأبيتَ ذلك علىّ ، فأعطانى الله مامنعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ماترجو ، ولا أخاف من الموت إلاّ ماتخاف ، وقدواللهفارقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنوعبد مناف ؛ ليس لبعضنا على بعض فَضْل إلا فضل لايُستَذَلّ بهعزيز ، ولا يسترقّ به حرّ ، والسلام .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علىّ عليه السلام قرأه ، ثم قال : العَجَب لمعاوية وكتابه ! (١ ودعا عبيد بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب جوابه ١) .

أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علِمت وعلمنا أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، فإنى لو قُتلتُ فى ذات الله ، وحييتُ ؛ ثم قُتِلتُ ثم حييتُ سبعين مرة لم أرجع عن الشدّة فى ذات الله والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك : إنه قد بقى من عقولنا مانندم به على مامضى ، فإنى مانقصت عقلى ، ولا ندمتُ على فعلى . وأما طلبك الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم مامنعتُك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرّجاء فلست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهلُ الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض ! فلعمرى إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحقّ كالمبطل ، وفى أيدينا بعد فضل النبوّة التى أذللنا بها العزيز وأعززنا بها الذليل . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ علىّ عليه السلام كتمه عن عمرو بن العاص أياما ، ثم دعاه

(١-١) صفين : « ثم دعا عبيدالله بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب إلى معاوية » .

فأقرأه إياه، فشمت به عمرو ـ ولم يكن أحد من قريش أشدّ إعظاما لعليّ من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه ـ فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية :

ألا لله درُّكَ يابن هنــدٍ ودرُّ الآمرين لك الشهودِ !
أتطمــع لا أبا لكَ في عليٍّ وقد قرع الحــديدَ على الحديدِ !
وترجــو أن تُحيِّــره بشكٍّ وتأمُل أن يهابك بالوَعيــد[1]
وقد كشفَ القناعَ وجــرّ حَرباً يشيبُ لهولها رأس الوليــد
له جَأْواء مُظلِمــةٌ طَحونٌ فوارِسُها تلهَّبُ كالأسُــودِ[2]
يقول لهــا إذا رجعتْ إليــه[3] وقد ملّت طعــانَ القــوم : عُودي
فإن وردَت فأوّلهــا ورودا وإن صــدّت فليس بذي صــدودِ
وما هي من أبي حسن بنُكْرٍ ولا هــو من مــآتك بالبعيدِ
وقلتَ له مقالة مستخفّين ضعيفِ الرّكن منقطِع الوريدِ
دَعَنْ لي الشامَ حسبُك يابن هندٍ من السّوءات والرأيِ الزّهيدِ
ولو أعطاكها مازدتَ عِزّاً ولا لك لو أجابك من مزيــد
فلم تكسِرْ بذاك الرأي عوداً لركّته ولا ما دون عــود[4]

فلما بلغ معاوية شعرُ عمرو دعاه فقال له : العجب لك ! تفيّل رأيي ، وتعظم عليّا وقد فضحك ! فقال : أما تفييلي رأيك فقد كان ، وأما إعظامي عليّا فإنك بإعظامه أشدّ معرفة مني ، ولكنك تطويه وأنا أنشره . وأمّا فضيحتي فلم يفتضح امرؤ لقيَ أبا حسن[5] .

(١) صفين : « وترجو أن يهابك بالوعيد »
(٢) الجأواء : الكتيبة يعلوها السواد لكثرة الدروع .
(٣) صفين : إذا دلفت إليه » .
(٤) الركة . الضعف . (٥) صفين ٥٣٥ ـ ٥٤٠

(١٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة :

وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً ، وَقَرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا ، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا .

فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

قوله عليه السلام : مَهبط إبليس : موضع هُبوطه .

ومغرس الفتن : موضع غَرْسِها ، ويروى « ومُغْرِس الفتن » ، وهو الموضع الذى ينزل فيه القومُ آخر الليل للاستراحة ، يقال غرّسوا وأغرسوا .

وقولهُ عليه السلام : « فحادِثْ أهلَها » ، أى تعهّدْهم بالإحسان ، من قولك : حادثت السيفَ بالصِّقال .

والتنمُّر للقوم : المغلظة عليهم ، والمصممة لهم بأخلاق النَّمِر ، من الجرأة والوثوب ، وسنذكر تصديقَ قوله عليه السلام : « لم يغب لهم نجمٌ إلاّ طلع لهم آخر » .

والوَغْم : التِّرة ، والأوْغام : التِّرات ، أى لم يُهدَر لهمْ دمٌ فى جاهليّة ولا إسلام ، يصفُهم بالشجاعة والحميّة .

ومأزُورون ، كان أصله « مَوْزورُن » ، ولكنّه جاء بالألف ليُحاذِى به ألفَ « مأجُورُون » وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله مثل ذلك .

قوله عليه السلام : « فارتَعْ أبا العباس » ، أى قِفْ وتثبّت فى جميع ماتعتمدُه فِعلا وقَوْلا من خَيْر وشر ، ولا تَعجَل به فإنّى شريكك فيه إذ أنتَ عاملى والنائبُ عنّى .

ويعنى بالشرّ هاهنا الضررَ فقط ، لا الظّلم والفعل القبيح .

قولُه عليه السلام : « وكن عند صالح ظنّى فيك » ، أى كن واقفا عندَه كأنك تشاهِدُه فتمسَّك مشاهَدتُه عن فعلٍ مالا يجوز

فال الرأىُ يَفيل ، أى ضَعُفَ وأخطأ .

• • •

[فصل فى بنى تميم وذكر بعض فضائلهم]

وقد ذكر أبو عُبيدةَ مَعمَر بنُ المثنَّى فى كتاب " التاج " أن لبنى تميم مآثرَ لم يَشرَكْهم فيها غيرُهم . أما بنو سعد بن زَيْد مَنَاةَ فلها ثلاثُ خِصال يَعرفها العَرَب :

إحداها : كثرة العَدَد فإنّه أضعف عددها على بنى تميم حتّى ملأتِ السَّهلَ والجبلَ عَدَلتْ مُضَرَ كثرة ، وعامة العَدَدِ منها فى كعب بنِ سعد بنِ زيد مَناة ، ولذلك قال أوْسُ ابن مَغْراء :

كَفَى مِنْ خَيرِ الكِعابِ كَفَا   مِن خَـيرِها فوارساً وعَقْبا

• تَعدِل جَنْبا وتَميم جَنْبا •

وقال الفرزدق أيضا فيهم هذه الأبيات :

لو كنتَ تعلَم ما بِرَمْل مُوَيْسِلٍ   فقرى عُمان إلى ذواتِ حُجورِ

لعلمتَ أنّ قبائلا وقبائلا   من آلِ سعدٍ لم تَدِنْ لأميرِ

وقال أيضا :

تبكَّى على سَعدٍ وسَعدٌ مقيمةٌ   بِيَبْرِينَ قد كادَتْ على النّاس تَضعُفُ[1]

ولذلك كانت تسمّى سعد الأكثرين . وفى المَثَل : « فى كل وادٍ بنو سَعْد »[2] .

والثانية : الإفاضة فى الجاهلية ، كان ذلك فى بنى عُطارِد ، وهم يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى قام الإسلام ، وكانوا إذا اجتمع الناسُ أيّامَ الحجّ بمِنًى لم يبرَح أحدٌ من الناس دينا وسنة حتى يجوزَ القائمُ بذلك من آلِ كَرِب بنِ صَفْوان ، وقال أوسُ ابن مَغْراء :

ولا يَرِيمُون فى التّعريف موقفَهمْ   حتى يقالَ : أجيزُوا آلَ صَفوانا

وقال الفرزدق :

إذا ما ٱلتَقَيـنا بالمحصَّب مِن مِنًى   صبيحةَ يومِ النَّحْرِ من حيث عرّفوا[3]

تَرى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ خَلْفَنا   وإن نحنُ أومأْنا إلى الناس وَقّفُوا

والثالثة : أنّ منهم أشرَفَ بيتٍ فى العرَب الذى شرّفته ملوكُ لَخْم . قال المنذرُ بن المنذر بن ماء السَّماء ذات يوم وعنده وفودُ العرب ودعا بِبُرْدَىْ أبيه محرِّق بن المنذر فقال : ليَلْبَس هذين أعزُّ العرَب وأكرمُهم حسَبا . فأحجمَ الناسُ ، فقال أحَيمِرُ بنُ

---

(١) ديوانه ٥٦٩ .

(٢) مجمع الأمثال ٢ : ٨٣ ؛ ولفظه فيه . « فى كل أرض سعد بن زيد » ؛ قاله الأضبط بن قريع .

(٣) عرفوا ؛ أى وقفوا بعرفات .

خَلَف بن بهدَلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم : أنا لهما ، قال الملك : بماذا ؟ قال : بأنّ مُضرَ أكرمُ العرب وأعزُّها وأكثرُها عديدا ، وأن تميماً كاهِلُها[1] وأكثرُها ، وأن بَيْتَها وعددها فى بنى بَهدلة بنِ عَوْف ، وهو حَدّى . فقال : هذا أنتَ فى أصلِك وعشيرتك ، فكيف أنت فى عِتْرَتِك وأدانيك !

قال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة . فدفعهما إليه ، وإلى هذا أشار الزِّبرِقان بنُ بدر فى قوله :

وبُرْدا ابنِ ماء المزْن عمّى اكتساهُما ... بفضل مَعَدّ حيثُ عُدّتْ مَحاصِلُهْ

قال أبو عُبيدة : ولهم فى الإسلام خَصْلة ، قدِم قيسُ بنُ عاصم المنقَرىّ على رسول الله صلى الله عليه وآله فى نفر من بنى سعد ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « هذا سيّد أهل الوبر » ، فجعله سيّد خِنْدِف وقيس بمن يسكُن الوبَر .

قال : وأما بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم فلهم خِصال كثيرة . قال : فى بنى دارم بن مالك بن حنظلة ، وهو بيتُ مُضر ، فمن ذلك زُرارة بن عُدُس بن زيد بن دارِم يقال : إنه أشرف البيوت فى بنى تميم ، ومن ذلك قوسُ حاجبِ بنِ زُرارة المرهونةُ عند كِسرى عن مُضر كلِّها ، وفى ذلك قيل :

وأقسم كِسرى لا يصالح واحداً ... من الناس حتى يرهنَ القوسَ حاجبُ

ومن ذلك فى بنى مُجاشع بن دارم صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان ابن مجاشع ، وهو أوّل من أحيا الوئيد ، قام الإسلامُ وقد اشترى ثلاثمائة موءودة فأعتقهنّ وربّاهن ، وكانت العرب تئِد البناتِ خوف الإملاق .

ومن ذلك غالِب بن صعصعة ، وهو أبو الفرزدق ، وغالِب هو الذى قَرى مائة ضيف ، واحتمل عشرَ ديات لقوم لا يعرفهم ، وكان من حديث ذلك أنّ بنى كلْب

---

(١) كاهلها ، أى أعلاها .

ابن وَبَرة افتخرتْ بينها في أنديتها ، فقالت : نحن لُبابُ العربِ وقلبُها ، ونحن الذين لا نُنازَع حَسَباً وكَرَماً . فقال شيخ منهم : إنّ العرب غيرُ مقرّةٍ لكم بذلك ، إنّ لها أحسابا ، وإنّ منها لُبابا ، وإنّ لها فعالا ، ولكن ابعثوا مائةً منكم في أحسن هيئة وبزّة يُفرّون من مرّوا به في العرب ويسألونه عَشْرَ ديات، ولا ينتسبون له ، فمن قرّاهم وبذلَ لهم الدّياتِ فهو الكريم الذي لا يُنازَع فضلا ؛ فخرجوا حتّى قدِموا على أرض بني تميم وأسد ، فنفّروا الأحياء حيّاً حيّاً ، وماء فماء ، لا يجدون أحدا على ما يريدون ؛ حتى مرّوا على أكثمَ بن صَيفيّ ، فسألوه ذلك ، فقال : مَن هؤلاء القتلى ؟ ومَن أنتم ؟ وما قصتُكم ؟ فإنّ لكم لشأنا باختلافكم في كلامكم ! فعدَلوا عنه ، ثم مرّوا بقُتيبة بن الحارث بن شهاب اليَرْبوعيّ فسألوه عن ذلك ، فقال : مَن أنتم ؟ قالوا : من كلبِ بنِ وبَرة . فقال : إنّي لأبغي كلْبا بدَم ، فإن انسلاخ الأشهر الحُرُم وأنتم بهذه الأرض وأدركتكم الخيلُ نَكَلَتْ بكم وأثكَلَتْكُم أمّهاتكم. فخرجوا من عنده مرعوبين ، فمرّوا بعُطارِد بن حاجب بن زُرارة، فسألوه ذلك ، فقال: قولوا بيانًا وخذوها ، فقالوا : أمّا هذا فقد سألكم قبل أن يُعطيكم فتركوه، ومرّوا ببني مُجاشع بن دارم فأتوا على وادٍ قد امتلأ إبلا فيها غالبُ بن صعصعة يهنأ[1] منها إبلا ، فسألوه القِرى والدّيات، فقال: هاكم البُزْلَ قبل النزول فابتزّوها من البَرْك وحوزوا دياتكم ، ثم انزلوا، فنزلوا وأخبروه الحال ، وقالوا : أرشدك الله من سيّدِ قوم ! لقد أرحتنا من طول النَّصَب ، ولو علمنا لقصدنا إليك ، فذلك قول الفرزدق :

فلله عَينا مَنْ رأى مِثلَ غالبٍ ... قِرَى مائةٍ ضيفاً ولم يتكلّمِ[2]

وإذ نبحتْ كلبٌ على الناسِ إنّهم ... أحقُّ بتاجِ الماجدِ المتكرِّمِ

---

(١) هنأ الإبل يهنؤها : طلاها بالهناء ، وهو القطران .

(٢) ديوانه ٧٥٩ ، وروايته : « ألا هل علمتم ميتا قبل غالب » .

لم يحلُ عن أحسابها غيرُ غالبٍ   جرى بعنانَيْ كلّ أبلجَ خضرمِ(١)

قال : فأمّا بنو يَرْبوع بن حنظلة ، فمنهم . ثمّ من بني رياح بن يربوع عتّاب بن هَرَمي ابن رياح ، كانت له ردافة للملوك ، ملوكِ آلِ المنذر ، وردافة الملك أن يُثنّى به في الشُّرب ، وإذا غاب الملكُ خلفه في مجلسه ، وورث ذلك بنوه كابراً عن كابر ، حتى قام الإسلام ، قال لبيدُ بن ربيعة :

وشهدتُ أنجية الأكارمِ غالباً   كعبي وأردافُ الملوكِ شهودُ(٢)

ويَرْبوع أوّل مَنْ قتل قتيلا من المشركين ، وهو واقد بنُ عبدِ الله بن ثعلبة بن يربوع ، حليفُ عمر بن الخطّاب ، قتل عمرو بن الحضرمي في سريّة نخلة ، فقال عمرُ ابن الخطّاب يفتخر بذلك :

سقَيْنا من ابن الحضرميّ رماحنا   بنخلة لمّا أوقدَ الحربَ واقدُ
وظلّ ابنُ عبدِ الله عثمان بيننا   ينازعه غُلٌّ من القِدِّ عاندُ(٣)

ولنا جَوادُ العربِ كلّها في الإسلام ، بل العرب كلّها جوداً ، خالدُ بنُ عتّاب بن ورقاء الرِّياحي . دخل الفرزدقُ على سليمانَ بن عبد الملك ، وكان يشنؤه لكثرة بأوِه(٤) وفخره ، فتجهّمه وتنكّر له ، وأغلظ في خطابه حتى قال : مَن أنت لا أمّ لك ؟ قال : أوما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ أنا من حيّ هم من أوفى العرب ، وأحلمِ العرب ، وأسودِ العرب ، وأجودِ العرب وأشجعِ العرب ، وأشعرِ العرب . فقال سليمان : والله لتحتجنّ لما ذكرتَ أو لأوجعنّ ظهرك ، ولأبعدنّ دارك . قال : أما أوفى العرب فحاجبُ بنُ زُرارة ؛ رهَن قوسه عن العرب كلها وأوفى . وأمّا أحلمُ العرب فالأحنف بنُ قيس يُضرَب به المثل حلماً ، وأما أسودُ العرب فقيس بنُ عاصم ، قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : «هذا سيّد أهل الوَبَر» ؟

---

(١) الأبلج : الواضح . والخضرم : الجواد المعطاء .
(٢) لم أجده في ديوانه .
(٣) الغل بالضم : طوق من حديد يجعل في العنق ، والجمع أغلال .
(٤) البأو : الفخر .

وأما أشجعُ العرب فالحُرَيش بنُ هلال السعديّ ؛ وأما أجودُ العرب فخالدُ بن عتّاب ابن وَرْقاء الرِّياحيّ ، وأما أشعر العرب فهأنذا عندك ! قال سليمان : فما جاء بك ؟ لا شيء لك عندنا ، فارجع على عَقِبك ؛ وغمّه ما سَمِع من عِزّه ، ولم يَستطع له رَدًّا ، فقال الفرزدق فى أبيات :

أتيناكَ لا من حاجةٍ عرَضَتْ لنا إليكَ ولا مِن قلّةٍ فى مجاشعِ[1]

قلتُ : ولو ذكر عُتيبةَ بنَ الحارث بن شهاب اليَرْبوعيّ وقال : إنه أشجعَ العرب لكان غيرَ مُدافَع . قالوا : كانت العرب تقول : لو وَقَع القمرُ إلى الأرض لما التقفه إلّا عُتَيبة بنُ الحارث لثقافته بالرُّمح . وكان يقال له : صيّاد الفوارس وسمّ الفوارس ، وهو الذى أسرَ بسطامَ بن قيس ، وهو فارس ربيعة وشجاعُها ، ومكث عنده فى القَيْد مُدّة حتّى استوفَى فِداءه وجزّ ناصيته ؛ وحلّ لصيقه على ألّا يغزوَ بنى يَرْبوع . وعُتيبة هذا هو المقدَّم على فُرسانِ العَرب كلّها فى كتاب طبقات الشُّجعان ومَقاتِل الفُرسان ، ولكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميميًا ، لأن جريرا يفتخر به ، لأنه من بنى يَرْبوع ، فحملتْه عداوةُ جرير على أن عدل عن ذكره .

* * *

قال أبو عبيدة : ولبنى عمرو بن تَميم خِصالٌ تعرفها لهم العَرَب ولا ينازعهم فيها[2] أحد ؛ فمنها أكرمُ الناس عمًّا وعمّة ، وجدًّا وَجدّة ، وهو هند بنُ أبى هالة ، واسم أبى هالةَ نبّاش بنُ زُرارة أحدُ بنى عمرو بن تميم ، كانت خديجةُ بنتُ خوَيلد قبلَ

---

(١) ديوانه ٤٩١ .

(٢) ا : « عليها » .

النبي صلّى الله عليه وآله تحت أبي هالة ، فولدت له هندا ، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وهندُ بنُ أبي هالةَ غلامٌ صغير ، فتبنّاه النبي صلى الله عليه وآله ، ثم ولدتْ خديجةُ من رسول الله صلى الله عليه وآله القاسمَ والطاهرَ وزينبَ ورقيّةَ وأمَّ كلثوم وفاطمة ، فكان هندُ بنُ أبي هالة أخاهم لأمّهم ، ثم أولد هند بن أبي هالة هندَ بن هند ، فهند الثاني أكرمُ الناس جدّا وجدّة ، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة ، وأكرم الناس عمّا وعمّة — يعني بَني النبيّ صلى الله عليه وآله وبناتِه .

ومنها أنّ لهم أحكَمَ العَرب في زمانه أكثمُ بن صَيْفيّ ؛ أحد بني أسَد بن عمرو بن تميم ، كان أكثر أهل الجاهلية حِكما ومثلا وموعظة سائرة .

ومنها ذو الأعواز ، كان له خَراجٌ على مُضَر كافّةً تؤدِّيه إليه ، فشاخَ حتى كان يُحمَل على سرير يُطاف به على مياه العرَب ، فيؤدّى إليه الخراج ، وقال الأسودُ بن يَعفُر النَّهْشَليّ وكان ضريراً :

ولقد علمتُ خلافَ ما تُنْبِئي أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوازِ

ومنها هلال بنُ أحوَزَ المازنيُّ الذي ساد تميما كلَّها في الإسلام ، ولم يَسُدْها غيرُه .

قال : ودخل خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ مسجدَ الكوفة ، فانتهى إلى حَلْقةٍ فيها أبو الصَّقْعَب التيميّ ، من تَيْم الرِّباب ، والمخزوميّ لايعرفه ، وكان أبو الصَّقْعَب من أعلَمَ الناس ، فلما سمع علمَهُ وحديثه حسَدَه ، فقال له : ممّن الرجل ؟ قال : من تَيْم الرِّباب ؛ فظنّ المخزوميُّ أنه وَجدَ فرصةً ، فقال : واللهِ ما أنت من سعد الأكثرين ولا مِن حنظلة الأكرمين ، ولا من عَمرو الأشدِّين ! فقال أبو الصقعب : فمَن أنتَ ؟ قال مِن بني مَخزوم . قال : واللهِ ما أنتَ من هاشمٍ المنتخَبين ، ولا من أميّة المستخلَفين ،

ولا من عبد الدار المستحجّبين ، فبمَ تفخر ؟ قال : نحن رَيْحانة قريش ، قال أبو العقب : قُبحاً لما جئتَ به ! وهل تدرى لم سميتْ مخزوم ريحانةَ قريش ؟ سميتْ لحظوة نسائها عند الرجال ، فأفحمَه .

روَى أبو العباس المبرّد فى كتاب " الكامل " أنّ معاوية قال للأحنف بن قيس وجارية[1] بنِ قُدامة ورجالٍ من بنى سعد معهما كلاما أحفظهم ، فردّوا عليه جوابا مُقذِعا ، وامرأتُه فاختِة بنت قرظة فى بيتٍ يقرُب منهم ، وهى أمّ عبدِ الله بن معاوية ، فسمعتْ ذلك ، فلما خرجوا قالت : يا أميرَ المؤمنين ، لقد سمعتَ من هؤلاء الأجلاف كلاما تلقّوك به فلم تُنكِر ، فكدتُ أن أخرجَ إليهم فأسطُوَ بهم ! فقال معاوية : إن مضرَ كاهلُ العرَب ، وتميما كاهلُ مُضر ، وسعدا كاهلُ تميم ، وهؤلاء كاهلُ سعد[2] .

ورَوَى أبو العباس أيضا أن عبد الملك ذَكر يوما بنى دارِم فقال أحدُ جُلَسائه : يا أميرَ المؤمنين ، هؤلاء قوم مَحظوظون ـ يعنى فى كثرة النّسْل ونماء الذرية ـ فلذلك انتشَر صِيتُهم . فقال عبدُ الملك : ما تقول ! هذا وقد مضى منهم لَقيطُ بنُ زُرارة ولم يُخلّف عَقِبا ، ومضى قَعقاع بن مَعبَد بن زُرارة ولم يخلّف عَقِبا ، ومضى محمد بن عُمير بن عطاردِ بن حاجب بن زُرارة ولم يخلّف عقِبا ! والله لا تَنسَى العربُ هذه الثلاثةَ أبدا[3] .

قال أبو العباس : إنّ الأصمعىّ قال : إنّ حرْبا كانت بالبادية ثمّ اتصلتْ بالبَصرة ، فتفاقَمَ الأمرُ فيها ، ثم مُشِى بين الناس بالصلح ، فاجتمعوا فى المسجد الجامع . قال : فبُعثتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارم ، فاستأذنتُ عليه ، فأذِن لى ، فدخلتُ ، فإذا به فى شَمْلة يخلط بزراً لعنزٍ له حَلوب ، فخبّرته بمجتمَع القوم ، فأمهل حتى أكلتِ العنزُ ، ثم غسَل الصحفة وصاح : يا جارية ، غَدّينا ، فأتته بزيت وتمرٍ ، فدعانى ، فتقذّرته

(١) ب : « حارثة » ، والصواب ما فى ا والكامل .
(٢) الكامل ١ : ٦٥ .
(٣) الكامل ١ : ٢٠٨ .

أن آكلَ ممحق إذا قمّص من أكله وحاجته وَطَرا وثَب إلى طينٍ مُلقًى فى الدار، فغسل به يدَه ، ثم صاح : ياجارية ، اسقيني ماء ؛ فأتته بماء،فشرِبه ومَسَح فضلَه على وجهه،ثم قال: الحمد لله ، ماء الفرات بتمر البصرة بزَيْت الشام ، متى نؤدّى شكرَ هذه النِّعَم ! ثم قال: علىَّ بردائى ، فأتته بِرداء عدَنىّ (١) فارتدى به على تلك الشَّمْلة .قال الأصمعىّ:فتجافيتُ عنه استقباحا لزِيّه ، فلما دخل المسجدَ صلّى ركعتين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تبق حُبْوَةٌ إلا حُلَّت إعظاما له ، ثم جلس فتحمّل جميعَ ما كانَ بين الأحياء فى مالِه،ثم انصرف (٢) .

قال أبو العباس : وحدثنى أبو عثمانَ المازنىّ ، عن أبى عُبيدة ، قال : لما أتى زيادُ ابنُ عَمرو المِرْبَد فى عَقِب قَتْل مسعود بن عمرو العَتَكىّ ، وجاء زياد بن عمرو بن الأشرَف العَتَكى لِيَثْأر به من بنى تميم صَفّ أصحابه ، فجعَل فى الميمنة بكرَ بن وائل ، وفى الميسرة عبدَ القيس ، وهم لُكَيْز بن أفصى بن دُعْمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، وكان زياد بنُ عمرو العَتكى فى القلب ، فبلغ ذلك الأحنف بن قيس ، فقال: هذا غلامٌ حدَث ، شأنُه الشُّهْرة ، وليس يبالى أين قَذَف بنفسه ! فندب أصحابه ، فجاءه حارثة بن بَدْر الغُدانىّ ، وقد اجتمعتْ بنو تميم ، فلما أتى (٣) قال : قوموا إلى سيِّدكم ، ثم أجلسه فناظَره ، فجعلوا سعْدا والرِّباب فى القلب ورئيسهم عَبْس بنُ طَلْق الطّعان المعروف بأخى كَهْمَس ، وهو أحد بنى صُرَيم بن يَرْبوع ، فكانوا بحذاء زياد بن عمرو ومن معه من الأزْد ، وجعل حارثة بن بدر الغُدانىّ فى بنى حنظلة بحذاء بكر بن وائل،وجعل عمرو بن تميم بحذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيكفيكَ عبسٌ أخو كَهْمَسٍ ... مُقارعةَ الأزْدِ فى المِرْبَدِ (٤)

ويكفيك عَمْرو على رِسْلِه ... لُكَيْزَ بن أفصَى وما عدَّدوا

---

(١) عدنى : منسوب إلى عدن أبين ، وهى جزيرة باليمن ، تنسب إليها الثياب المدفئة .
(٢) الكامل ١ : ١٣٩ .
(٣) الكامل : « طلع » .
(٤) فى هذا البيت إقواء .

وتكفيك بكراً إذا أقبلتْ بضربٍ يَشيبُ له الأمرَدُ

ولُكَيْزُ بن أفصى بن عبدِ القيس. قال : فلما تواقفوا بعث إليهم الأحنف: يامعشرَ الأزد من اليَمَن وربيعة من أهل البَصرة ، أنتم والله أحبُّ إلينا من تَميم الكوفة، وأنتم جيرانُنا فى الدار ، ويدُنا على العدوّ ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ، ووَطِئتم حَريمَنا ، وحرّقتم علينا ، فدَفعنا عن أنفسنا ، ولا حاجة لنا فى الشرّ ماطلَبْنا فى الخير مَسلَكا ، فتيمّموا بنا طريقةً مستقيمة[1] . فوجّه إليه زيادُ بنُ عمرو ، نخيِّرُ خَلّة من ثلاث : إن شئتَ فانزل أنت وقومُك على حكمنا ،وإن شئتَ تخلِّ لنا عن البَصرة ، وارحل أنتَ وقومُك إلى حيث شئتم ، وإلا فدَوا قتلانا ، واهدُروا دِماءكم ، ولْيَودَ مسعود دِيَةَ المُشعِرة .

ـ قال أبو العباس : وتأويل قوله : «دِيَة المُشعِرة» ، يريد أمرَ الملوك فى الجاهلية ،وكان الرجل إذا قُتِل وهو من أهل بيت المملكة وُدِيَ عَشْرَ دِيات ـ فبعث إليه الأحنفُ : سنختار . فانصرفوا فى يومكم ، فهزّ القومُ رايَتهم وانصرفوا ، فلما كان الغد بعث الأحنف إليهم : إنكم خيّرتمونا خِلالا ليس لنا فيها خيار ، أمّا النزول على حكمكم فكيف يكون والكَلْم[2] يَقطُر ، وأمّا ترك دِيارنا فهو أخو القتل . قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3] ، ولكنّ الثالثة إنما هى حَملٌ على المال ، فنحن نُبطِل دماءنا ، ونَدِى قتلاكم ، وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين ، وقد أذهب اللهُ عزّ وجلّ أمرَ الجاهليّة . فاجتمع القومُ على أن يقفوا أمرَ مسعود ، ويُغمِدوا السيف ،وتُودَى سائرُ القتلَى من الأزدِ وربيعة ، فضمِن ذلك الأحنف ، ودفع إليهم إياسَ بنَ قتادة المجاشعيّ رهينة حتى يؤدى هذا المال ،فرضىَ به القومُ ، ففخر بذلك الفرزدق ، فقال لجرير :

---

(١) الكامل : « قاصدة » .

(٢) الكلم : الجرح .

(٣) سورة النساء ٦٦ .

ومنّا الذى أعطى يديه رَهينة ... لدارَىْ مَعدٍّ يومَ ضَرْبِ الجماجمِ [١]

عشيّة سـال المِرْبدانِ كلاهما ... عجاجةَ موتٍ بالسّيوف الصّوارم

هنالك لو تبغى كليباً وجدتَها ... أذلَّ من القِرْدانِ تحتَ المناسِمِ

ويقال : إنّ تميما فى ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزّطّ والسيابجة وغيرهم كانوا زُهاء سبعين ألفا ، وفى ذلك يقول جرير :

سائلْ ذَوِى يمنٍ ورَهطَ محرِّقٍ ... والأزْدَ إذ ندبوا لنا مسعودا [٢]

فأتاهمُ سبعون ألف مـدجّجٍ ... متسربلين يَلامِقاً وحديدا [٣]

قال الأحنفُ بنُ قيس : فـكثرت علىّ الديات فلم أجدها فى حاضرة تميم ، فخرجت نحو يَبْرِين إلى بادية تميم ، فسألتُ عن المقصود هناك ، فأرشِدْتُ إلى قبّة ، فإذا شيخٌ جالس بفنائها مؤتزر بشملة ، مُحْتَبٍ بحبل ، فـسلّمتُ عليه ، وانتسبتُ له ، فقال لى : مافعل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؟ قلتُ : توفّىَ . قال : فما فعل عمر بن الخطّاب الذى كان يحفظ العرب ويحوطها ؟ قلت : تُوفّىَ . قال : فأىّ خير فى حاضرتكم بعدهما ؟ قال : فذكرتُ له الديات التى لزمتنا للأزد وربيعة ، قال : فقال لى : أقم ، فإذا راعٍ قد أراح عليه ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح علينا آخر مثلها ، فقال : خُذها ، فقلتُ : لاأحتاج إليها . قال : فانصرفتُ بالألف عنه ، ووالله ماأدرى من هو إلى الساعة [٤] !

---

(١) ديوانه ٨٦١ . والمربدان ، مثنى مربد ، وهو المجلس . (٢) ديوانه ١٧٢ ؛ وهو مسعود بن عمرو العتكى .
(٣) اليلامق : جمع يلمق ؛ وهو القباء ، فارسى معرب . وفى الكامل : « يلامعا » ، واليلمع : هو الدرع .
(٤) الكامل ١ : ١٤٠ — ١٤٣ .

(١٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ ، وداوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ ، والإبعاد والإقصاء . إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

الشرح :

الدَّهاقين : الزعماء أربابُ الأملاك بالسواد ، واحدُهم دِهقان بكسر الدال ، ولفظُه معرَّب .

وداوِلْ بينهم ، أى مرة هكذا ومرة هكذا ، أمره أن يسلك معهم منهجا متوسطا ، لا يُدنيهم كلَّ الدنو لأنهم مُشرِكون ، ولا يقصيهم كلَّ الإقصاء لأنهم مُعاهِدون ، فوجب أن يعاملهم معاملة آخِذةً من كلِّ واحدٍ من القسمين بنصيب .

(٢٠)

الأصْلُ

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو خليفةُ عاملِهِ عبد الله بن عباس على البصرة ــ وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كُوَر الأهواز وفارس وكِرْمَان وغيرها :

وَإِنّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً ، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً ، لَأَشُدَّنَّ عليك شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ ، ضَئِيلَ الْأَمْرِ . والسَّلَامُ .

•••

الشّرْحُ :

سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استلحاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قوله عليه السلام : « لأَشُدَّنَّ عليك شدّة » ، مثلُ قوله : « لأحملنّ عليك حَملةً » ، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال.

ثم وصف تلك الشدّة فقال : « إنها تتركك قليل الوَفْر » ، أي أُفقِرك بأخذ ما احتجنتَ من بيت مال المسلمين .

وثقيل الظّهر ، أي مسكين لاتقدِر على مَئونة عيالك .

وضئيل الأمر ، أي حقير ، لأنك إنما كنت نبيها بين الناس بالغنى والثّروة ، فإذا افتقرتَ صغرتَ عندهم ، واقتحمتك أعينُهم .

(٢١)

الأصل

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضا :

فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً ، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً ، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ ، أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ أَنْ تَمْنَعَهُ الضَّعِيفَ والأَرْمَلَةَ ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَاقَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

• • •

الشَّرْحُ :

المتمرّغ فى النعيم : المتقلّب فيه . ونهاه عن الإسراف وهو التبذير فى الإنفاق ، وأمره أن يمسك من المال ما تدعو إليه الضرورة ، وأن يقدّم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجة ضرورية فى الصدقة فيدّخره ليوم حاجته ، وهو يوم البعث والنشور .

قلتُ : قبّح الله زيادا ! فإنه كافأ إنعام علىّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بمالاحاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف فى لعنه ، وتهجين أعماله ، والمبالغة فى ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه ، ولم يكن يفعلُ ذلك لطلب رضا معاوية ، كلاّ ، بل يفعله بطبعه ، ويعاديه بباطنه وظاهره ، وأبى اللهُ إلاّ أن يرجع إلى أمّه ، ويصحّح نسبه ، وكلُّ إناء ينضح بما فيه . ثم جاء ابنه بعد ختم تلك الأعمال السيئة بما ختم ، وإلى الله ترجع الأمور !

(٢٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى ، وكان ابنُ عباس يقول : ما انتفعتُ بكلامٍ بعدَ كلام رسولِ الله صلى الله عليه وآله كانتفاعى بهذا الكلام :

أمَّا بَعْدُ ، فإنَّ المَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مالَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مالَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَافَاتَكَ مِنْهَا ، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً ، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلاَ تَأْسَ عَلَيْهِ جزَعاً ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ المَوْتِ .

●●●

الشرح :

يقول : إنّ كلّ شيء يصيب الإنسانَ فى الدّنيا من نَفْع وضَرّ فبقضاءمن الله وقدرِه تعالى ؛ لكنّ الناسَ لا ينظرون حقّ النظر فى ذلك ، فيُسَرّ الواحدُ منهم بما يصيبه من النفع ، ويُساء بفَوْت ما يَفوته منه ، غيرَ عالم بأنّ ذلك النفعَ الّذى أصابه ، كان لابدّ أن يصيبه ، وأنّ ما فاته منه كان لابدّ أن يفوته ، ولو عرَف ذلك حقّ المعرفة لم يفرَح ولم يحزَن .

ولقائلٍ أن يقول : هَبْ أن الأمور كلّها بقضاءوقدَر ، فلم لا ينبغى للإنسان أن يفرَح بالنفع وإن وقع بالقدَر ، ويُساء بفَوْته أو بالضرر وإن وقَعا بقدَر ! أليس العُرْيان يُساء

بقدوم الشتاء وإن كان لا بدّ من قدومه ، والحمومُ غباً[1] يساء بتجدد نوبة الحمى، وإن كان لا بدّ من تجدُّدها ! فليس سبب الاختيار فى الأفعال عمّا يوجب أن لا يسرّ الإنسان ولا يساء بشىء منها .

والجواب ينبغى أن يُحمل هذا الكلامُ على أنّ الإنسان ينبغى أن لا يعتقد الرّزق أنه أتاه بسَعْيه وحرَكته فيَفرَح مُعْجَبا بنفسه ، معتقدا أن ذلك الرزقَ ثمرةُ حركته واجتهاده ، وكذلك ينبغى ألّا يساء بفوات مايفوته من المنافع لائما نفسه فى ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفسادِ الحيلة والاجتهاد ، لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أثرَ للحركة فيه ، وإن وقع عندها ؛ وعلى هذا التأويل ينبغى أن يُحمل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ● لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2] .

من النَّظم الجيّد الرّوحانىّ فى صفة الدنيا والتحذير منها ، والوَصاة بترك الاغترار بها ، والعمل لما بعدها ، ما أورَدَه أبو حيّان فى كتاب " الإشارات الإلهيّة " ، ولم يسمّ قائله :

دارُ الفجائعِ والهمومِ ودا	ر البثّ والأحزانِ والبلْوَى
مُرُّ المذاقة غبّ ما احتلبتْ	منها يدَاكَ وَبِيئةُ المرعَى
بينا الفَتَى منها بمنزلةٍ	إذ صار تحت تُرابِها مُلْقَى
تقفو مساويها محاسنُها	لا شىء بين النَّعْى والبُشْرَى
ولقلَّ يومٌ ذرَّ شارقُه	إلا سمعتَ بهالكٍ يُنْعَى
لا تعتبنّ على الزّمان لما	يأتى به فلقلّما يرْضَى

(١) الغب من الحمى : ما تأخذ يوما وتدع يوما .

(٢) سورة الحديد ٢٢ ، ٢٣ .

للمرء رزقٌ لا يفوت ولو جَهَد الخلائقُ دونَ أن يُلْقَى
ياعامرَ الدنيا للسدّ لها ماذا عَمِلتَ لدارك الأخرى !
ومُمهِّدَ الفرْش الوطيئــة لا تُغفِلْ فِراشَ الرقدة الكبرى
لو قد دُعِيتَ لقد أجبتَ لمـا تُدْعى له فانظر متى تُدعى !
أتراك تُحصِى كم رأيتَ من الـ أحيــاء ثمّ رأيتهم موتى
مَنْ أصبحتْ دنياه همّتـــه فمتى ينالُ الغايةَ القُصْوَى !
سبحانَ من لا شيء يَعدِلُه كم من بصير قلبُه أعمى !
والموتُ لا يُبقى على أحـــدٍ ممّن أرى وكأنه يُخشى
والليلُ يذهبُ والنهارُ بأحـــبابى ، وليس عليهما عدوَى

(٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضربه ابن ملجم لعنه الله :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ ! أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي ، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا : ﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ [1] .

وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلاَ طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلاَّ كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ؛ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [2] .

* * *

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أَقُولُ وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هذَا الْكَلاَمِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطَبِ ، إِلاَّ أَنَّ فِيهِ هاهُنَا زِيَادَةً أَوْجَبَتْ تَكْرِيرَهُ .

* * *

الشرح :

فإن قلت : لقائل أن يقول : إذا أوصاهم بالتوحيد واتباع سنة النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة النور ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٨ .

فلم يبقَ شيء بعد ذلك يقول فيه : أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذمّ ؛ لأنّ سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله فعلُ كلّ واجب ، وتجنّب كلّ قبيح ؛ فخلام ذمّ فماذا يقال ؟

والجواب أنّ كثيرا من الصّحابة كلّفوا أنفسهم أموراً من النّوافل شاقّة جدّاً ، فمنهم من كان يقوم الليل كلّه ، ومنهم من كان يصوم الدهر كلّه ، ومنهم المرابط الثّغور ، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به ، ومنهم تاركُ النّكاح ، ومنهم تاركُ المطاعم والملابس ؛ وكانوا يتفاخرون بذلك ، ويتنافسون فيه ، فأراد عليه السلام أن يبيّن لأهله وشيعته وقتَ الوصيّة أنّ المهمّ الأعظم هو التّوحيد ، والقيام بما يُعلم من دين محمّد صلّى الله عليه وآله أنّه واجب ، ولا عليكم بالإخلال بما عدا ذلك ، فليت من المائة واحداً نَهَضَ بذلك ، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التّكاليف عنهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] . وقال صلّى الله عليه وآله : « بُعثتُ بالحنيفيّة السّهلة السّمحة » .

قوله : « وخلاكم ذمّ » : لفظةٌ تقال على سبيل المثل أي قد أعذرتم ، وسقط عنكم الذمّ .

ثم قسم أيامه الثلاثة أقساما فقال : أنا بالأمس صاحبُكم أي كنت أرجى وأخاف ، وأنا اليوم عِبرةٌ لكم ، أي عِظة تعتبرون بها ، وأنا غدا مفارقكم ، أكون في دار أخرى غير داركم .

ثم ذكر أنه إن بقي ولم يمتْ من هذه الضربة فهو وليّ دمه ، إن شاء عفا ، وإنْ شاء اقتصّ ، وإن لم يبْقَ فالفناء للوعد الّذي لابدّ منه .

ثم عاد فقال : وإن أعفُ ، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلّمين . والمعنى منه مفهوم ، وهو إمّا أن أسلم من هذه الضربة أولا أسلم ، فإن سلمت منها فأنا وليّ دمي ؛ إن شئتُ عفوتُ فلم أقتصّ ، وإن شئتُ اقتصصتُ ، ولا يعني بالقصاص ههنا القتل ، بل ضربة بضربة ، فإن سَرَتْ إلى النفس كانت السراية مُهدَرة كقطع اليد .

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

ثم أومأ إلى أنه إن سلِم عفا بقوله : إن العفو لى إن عفوت قربة .

ثم عُدْنا إلى القسم الثانى من القسمين الأوَّلين ، وهو أنه عليه السلام لا يَسلَم من هذه ؛ فولاية الدم إلى الورثة ، إن شاءوا اقتصّوا وإن شاءوا عفوا .

ثم أومأ إلى أنّ العفو منهم أحسن ، بقوله : « وهو لكم حسنة » ، بل أمرَهم أمراً صريحاً بالعفو ، فقال : فاعفوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . وهذا لفظ الكتاب العزيز ، وينبغى أن يكون أمرُه بالعفو فى هذا الكلام محمولاً على النّدب .

ثم أقسَم عليه السلام أنه ما فجأه من الموت أمرٌ أنكرَه ولا كَرِهه ، فجأنى الشىء : أتانى بغتة .

ثم قال : « ما كنتُ إلا كقارِب وَرَد » ، والقارب : الّذى يسير إلى الماء وقد بقى بينه وبينَه ليلة واحدة ، والاسم : القَرَب ، فهم قاربون ، ولا يقال « مقرِبون » ، وهو حرف شاذّ .

(٣٤)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد منصرفه من صفين :

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ .

الشرح :

قد عابت العثمانية وقالت : إن أبا بكر مات ولم يخلف دينارا ولا درهما ، وإن عليا عليه السلامُ مات وخلف عقارا كثيرا ـ يعنون نخلا ـ قيل لهم : قد علم كلُّ أحد أنّ عليّا عليه السلامُ استخرج عيونا بكدّ يده بالمدينة وينبع وسُوَيعة ، وأحيا بها مواتا كثيرا ، ثم أخرجها عن ملكه ، وتصدّق بها على المسلمين ، ولم يمتْ وشيء منها في ملكه ، ألا ترى إلى ماتتضمنه كتبُ السِّيَر والأخبار من منازعة زيد بن علي وعبد الله ابن الحسن في صدقات عليّ عليه السلام ، ولم يُورِّث عليٌّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيرا إلا عبيدَه وإماءه وسبعمائة درهم من عطائه ، تركها ليشتري بها خادما لأهله قيمتُها ثمانيةٌ وعشرون دينارا ، على حسب المائة أربعة دنانير ، وهكذا كانت المعاملة بالدراهم إذ ذاك ، وإنما لم يترك أبو بكر قليلا ولا كثيرًا لأنه ما عاش ، ولو عاش لترك ، ألا ترى أن عمر أصدق أمّ كلثوم أربعين ألف درهم ، ودفعها إليها ! وذلك لأنّ هؤلاء طالت أعمارهم ، فمنهم من درّت عليه أخلاف التجارة ، ومنهم من كان يستعمر الأرض ويزرعها ، ومنهم من استفضل من رزقه من الفيء[1] .

---

(١) الفيء : الغنيمة .

وفضلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يعمل بيده ، ويحرث الأرض ويستقى لله ويغرس النحل ، كل ذلك يباشره بنفسه الشريفة ، ولم يستبق منه لوقته ولا لعقبه قليلا ولا كثيرا ؛ وإنما كان صدقة ؛ وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وله ضياع كثيرة حليلة جدا بخيبر وفدك وبنى النضير ، وكان له وادى نخلة وضياع أخرى كثيرة بالطائف ، فصارت بعد موته صدقة بالخبر الذى رواه أبو بكر . فإن كان على عليه السلام مضيعا بصياعه ونخله فكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا كفر وإلحاد ؛ وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله إنما ترك ذلك صدقة فرسول الله صلى الله عليه وآله ما روى عنه الخبر فى ذلك إلا واحد من المسلمين ، وعلى عليه السلام كان فى حياته قد أثبت عند جميع المسلمين بالمدينة أنها صدقة ، فالتهمة إليه فى هذا الباب أبعد . وروى : « ويعطيني به الأمنة » ، وهى الأمن .

•••

الأصل :

منها :

فإنه يقوم بذلك الحسن بن على يأكل منه بالمعروف ، وينفق منه بالمعروف ، فإن حدث بحسن حدث وحسين حى ، قام بالأمر بعده وأصدره مصدره ؛ وإن لابنى فاطمة من صدقة على مثل الذى لبنى على .

وإنى إنما جعلت القيام بذلك إلى ابنى فاطمة ابتغاء وجه الله ، وقربة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتكريما لحرمته ، وتشريفا لوصلته ، ويشترط على الذى يجعله إليه أن يترك المال على أصوله ، وينفق من ثمره حيث أمر به وهدى له ، وألا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى ودية حتى تشكل أرضها غراسا .

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِى ٱللَّاتِى أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِىَ حَامِلٌ فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِىَ مِنْ حَظِّهِ ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِىَ حَيَّةٌ فَهِىَ عَتِيقَةٌ قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا ٱلرِّقُّ وَحَرَّرَهَا ٱلْعِتْقُ .

* * *

قَالَ ٱلسَّيِّدُ ٱلرَّضِىُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى :

قولهُ عليهِ السَّلامُ فِى هَذِهِ ٱلْوَصِيَّةِ « وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدِيَّةً » ، ٱلْوَدِيَّةُ : ٱلْفَسِيلَةُ ، وَجَمْعُهَا وَدِىٌّ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً » هُوَ مِنْ أَفْصَحِ ٱلْكَلَامِ ، وَٱلْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَكْثُرُ فِيهَا غِرَاسُ ٱلنَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا ٱلنَّاظِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ ٱلصِّفَةِ ٱلَّتِى عَرَفَهَا بِهَا ، فَيُشْكِلُ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحْسَبُهَا غَيْرَهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

جَعلَ للحَسَن ابنه عليه السلامُ ولاية صَدَقات أمواله ، وأذن له أن يأكل منه بالمعروف ، أى لا يُسرف ، وإنما يتناول منه مقدارَ الحاجة ، وما جرتْ بمثلِهِ عادة من يتولّى الصدقات ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾[1] .

ثم قال : فإن مات الحسنُ والحسين بعدَه حىّ فالولايةُ للحسين ، والهاء فى «مَصدره» ترجع إلى الأمر ، أى يصرفه فى مَصارفه التى كان الحسن يصرفه فيها . ثم ذكر أنّ لهذين الولدين حصّة من صدقاته أسوةَ سائر البنين ، وإنما قال ذلك لأنه قد يتوهّم متوهِّم

---

(١) سورة التوبة ٦٠ .

أنهما لكونهما قد فوِّض إليهما النظرُ في هذه الصدقات ، قد مُنِعا أن يُسهما فيها بشيء ، وإن الصّدقات إنما يتناولها غيرهما من بني عليّ عليه السلام ممّن لا ولاية له مع وجودهما ، ثم بيّن لماذا خصّهما بالولاية ؟ فقال : إنما فعلتُ ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله ، فتقرّبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلتُ لسِبْطيه هذه الرياسة ، وفي هذا رَمْز وإزراء بمن صَرَف الأمر عن أهل بيتِ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ،مع وجود من يصلُح للأمر ،أي كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرّياسة بعده لأهله قُربةً إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وتكريما لحرمته ،وطاعةً له ،وأنفةً لقَدْره،صلى الله عليه وآله أن تكونَ وَرَثَته سُوقةً ، يليهم الأجانب ، ومن ليس من شَجَرته وأصلِه . ألا ترى أنّ هيبة الرّسالة والنّبوة في صدور الناس أعظمُ إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوة ؟ وليس يُوجد مثل هذه الهَيْبة والجلال في نفوس الناس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظمُ بعيدَ النسب من صاحبِ الدعوة عليه السلام !

ثم اشترط على مَنْ يلي هذه الأموال أن يتركها على أصولها ، وينفق من ثمرتها ،أي لايقطع النخل والثمر ويبيعه خشبا وعيدانا ، فيفضي الأمرُ إلى خراب الضِّياع وعُطلة العقار.

قوله : « وألّا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى » أي من الفُسْلان الصِّغار،سمّاها أولادا ، وفي بعض النُّسخ ليست « أولاد » مذكورةً ، والوَدِيَّة : الفسيلة .

تُشْكِلَ أرضها : تمتلئ بالفِراس حتى لا يُرَى فيه طريقة واضحة .

قوله : « أطوفُ عليهنّ » ، كنايةً لطيفة عن غِشْيان النساء،أي من السّراري؛وكان عليه السلامُ يذهبُ إلى حِلّ بَيْع أمهاتِ الأولاد ، فقال : من كان من إمائي لها ولد منّي ؛ أو هي حاملٌ منّي وقسمتْ تركتي فلتكن أمُّ ذلك الولدِ مبيعةً على ذلك الولَد،ويُحاسَب بالثمن من حصته من التركة ، فإذا بيعتْ عليه عتقتْ عليه ، لأنّ الولدَ إذا اشترى الوالدَ عتق الوالدُ

عنه ، وهذا معنى ، قوله « فتُمسَك على ولدها » ، أى تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر ، وهى منْ حظّه ، أى من نصيبه وقسطه من التركة .

قال : فإن مات ولدها وهى حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعُها لأنها خرجتْ عن الرِّقّ بانتقالها إلى ولدها ، فلا يجوز بيعُها .

فإن قلت : فلماذا قال : فإن مات ولدُها وهى حيّة ؟ وهلّا قال : فإذا قُوِّمتْ عليه عتقتْ ؟

قلت : لأنّ موضع الاشتباه هو موتُ الولد وهى حيّة ، لأنه قد يَظُنُّ ظانٌّ أنه إنما حَرُم بيعُها لمكان وجود ولدها ، فأراد عليه السلام أن يبيّن أنها قد صارت حُرّة مطلقا سواء كان ولدُها حيّا أو ميّتا .

(٢٥)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وإنما ذكرنا هنا جُمَلاً منها ليُعلَمَ بها أنه عليه السلام كان يقيم عِمادَ الحق ، ويشرع أمثلةَ العدل في صغير الأمور وكبيرها ، ودقيقِها وجليلِها :

انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى ٱللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً ، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى ٱلْحَيِّ فَٱنْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ ٱمْضِ إِلَيْهِمْ بِٱلسَّكِينَةِ وَٱلْوَقَارِ ؛ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ .

وَلَا تُخْدِجْ بِٱلتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولَ : عِبَادَ ٱللهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ ٱللهِ وَخَلِيفَتُهُ ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ ٱللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ !

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا ، فَلَا تُرَاجِعْهُ ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَٱنْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَلَا عَنِيفٍ بِهِ .

وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا ، وَلَا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا .

وَٱصْدَعِ ٱلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ .
ثُمَّ ٱصْدَعِ ٱلْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ، ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ ؛ فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ ؛ فَٱقْبِضْ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ .

فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ ، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ .

وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً ، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ؛ وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ،وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً ،غَيْرَ مُعَنِّفٍ وَلَا مُجْحِفٍ ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ .

ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ ، نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا ، وَلَا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا ، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً ، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ ،وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالْأَعْشَابِ ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ ،غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

وقد كرّر عليه السلامُ قوله : « لنقسمها على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله » في ثلاثة مواضع من هذا الفصل :

الأول قوله : « حتى يوصله إلى وليّهم ليَقسِمَه بينهم » .

الثاني قوله عليه السلام : « نصيِّره حيث أمرَ الله به » .

الثالث قوله : « لتقسمها عَلَى كتاب الله » ، والبلاغةُ لاتقتضى ذلك ، ولكنى أظنه أحبَّ أن يحتاط ، وأن يدفع الظِّنَّة[1] عن نفسه ، فإن الزمان كان فى عهده قد فسد ، وساءت ظنونُ الناس ، لا سيما مع مارآه من عثمان واستئثاره بمالِ الفَىْء .

ونعود إلى الشرح . قوله عليه السلام : « عَلَى تقوَى الله » ، « على » ليست متعلقة بـ « انطلِقْ » ، بل بمحذوف ، تقديرُه : مُواظِباً .

قوله : « ولا تُروعَنَّ » أى لا تُفزِعَنَّ ، والرَّوع الفزَع ، رُعتُه أَرُوعه ، ولا تُروِّعنَّ بتشديد الواو وضَمِّ حرف المضارعة ، من روَّعت للتكثير .

قوله عليه السلام : « ولا تجتازَنَّ عليه كارها » ، أى لا تَمُرَّنَّ ببيوت أحدٍ من المسلمين يكره مُرورَك . ورُوِى : « ولا تحتازَنَّ عليه » ، أى لا تقسِم مالَه وتحتَزْ أحدَ القِسمين ، والهاء فى « عليه » ترجع إلى « مُسلِماً » وتفسير هذا سيأتى فى وصيته له أن يَصدَع المال ثم يصدعه ، فهذا هو النهى عن أن يحتار عَلَى المسلِم . والرواية الأولى هى المشهورة .

قوله عليه السلام : « ما تَزِلْ بمائهم » ، وذلك لأنَّ الغريبَ يَجِد منه الانقباض ، ويُستَهجَن فى القادم أن يخالط بيوت الحىّ الذى قدم عليه فقد يكون من النساء من لا تليق رؤيتُه ، ولا يحسُن سماعُ صَوته ، ومن الأطفال من يَستهجِن أن يرى الغريبَ انبساطَه على أبويه وأهلِه ، وقد يكره القومُ أن يطلع الغريبُ عَلَى مآ كلهم ومشرَبهم وملبَسهم وبواطن أحوالهم ، وقد يكونون فقراء فيكرهون أن يعرف فقرَهم فيحتقرهم ، أو أغنياء أربابَ ثروة كثيرةٍ فيكرهون أن يَعلم الغريبُ ثروتَهم فيحسُدَهم ، ثم أمره أن يَمضِىَ إليهم غيرَ متسرِّع ولا عَجِل ولا طائشٍ نزِق ، حتى يقوم بينهم فيسلِّمَ عليهم

---

(١) : الظنة التهمة .

ويحيِّيهم تحيةً كاملة ، غير مخدَجة ، أى غير ناقصة ، أخدجتِ الناقةُ إذا جاءت بولَدها ناقصَ الخلْق ، وإن كانت أيامه تامة ، وخَدَجتْ : ألقتْ الولدَ قبل تمام أيامه . ورُوى : « ولا تُخْدِج بالتحيّة » ، والباء زائدة .

ثم أمره أن يسألهم : هل فى أموالهم حقٌّ لله تعالى ؟ يعنى الزكاة ، فإن قالوا : لا ، فلينصرف عنهم ، لأنّ القولَ قولُ ربِّ المال ، فلعلّه قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدِّق إليه .

قوله : « وأنعِمْ لك » ، أى قال : نعم .

ولا تعسِفه ، أى لا تطلب منه الصدقة عَسْفا ، وأصلُه الأخذ عَلَى غير الطريق .
ولا تُرهِقه : لا تكلِّفه العسرَ والمشقة .

ثم أمرَه أن يَقبِضَ ما يدفع إليه من الذهب والفضة ، وهذا يدلّ عَلَى أن المصدِّق كان يأخذ العَينَ والورِق كما يأخذ الماشية ، وأن النصاب فى العَين والورِق تُدفع زكاتُه إلى الإمام ونوّابه ، وفى هذه المسألة اختلافٌ بين الفقهاء .

قوله : « فإنّ أكثرها له » : كلامٌ لا مَزيدَ عليه فى الفصاحة والرياسة والدِّين ، وذلك لأنّ الصدقة المستحَقّة جزء يسيرٌ من النِّصاب ، والشَّريك إذا كان له الأكثر حَرُم عليه أن يدخل ويتصرّف إلا بإذن شريكه ، فكيف إذا كان له الأقلّ .

قوله : « فلا تَدخلها دخولَ متسلِّط عليه » ، قد علم عليه السلام أن الظلم من طَبْع الوُلاة ، وخصوصا من يتولّى قبضَ الماشية من أربابها عَلَى وجه الصَّدقة ، فإنهم يدخلونها دخول متسلِّط حاكم قاهر ، ولا يَبقى لرب المال فيها تصرّف ، فنهى عليه السلام عن مِثل ذلك .

قوله : «ولا تفرِّقنَّ بهيمةً ، ولا تفزِّعنها» ، وذلك أنهم على عادة السوء يُهَجْهِجون[1] بالقطيع حتى تنفر الإبل ، وكذلك بالشاء إظهارا للقوة والقهر ، وليتمكّن أعوانهم من اختيار الجيِّد ، ورفض الرديء .

قوله : «ولا تسوءنّ صاحبها فيها» أي لا تغتنه ولا تُحزِنوه ، يقال : سؤته في كذا سَوائيةً ومَسائيةً .

قوله : «واصدَع المال صدعين وخيِّره» ، أي شقّه نصفين ثم خيِّره ، فإذا اختار أحد النصفين فلا تَعرِضنّ لما اختار ، ثم اصدع النصف الذى ما ارتضاه لنفسه صدعين وخيِّره ، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُبقِيَ من المال بمقدار الحقّ الذى عليه ، فاقبِضه منه ، فإن استقالك فأقِلْه ، ثم اخلط المال ، ثم عُدْ لمثل ماصنعتَ حتى يرضى ، وينبغى أن يكون المعيبات الخمس وهى المهلوسة والمكسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قسمته ثم يقسم وإلا فربما وقعتْ فى سهم المصدِّق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرة بعد مرة .

والعَوْد : المسِنّ من الإبل ، والهرمة : المسِنة أيضاً ، والمكسورة : التى أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور ، والمهلوسة : المريضة قد هلَسها المرض وأفنى لحمها ، والهُلاس : السّلّ . والعَوار : بفتح العين : العيْب ، وقد جاء بالضم .

والمُنِفّ : ذو العنف بالضم وهو ضِدّ الرِّفق . والمجحِف : الذى يسوق المال سوقا عنيفا فيجحف به أى يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه ونِقْيه[2] .

والمُلغِب : المتعب ، واللُّغوب : الإعياء .

وحَدَرتُ السفينة وغيرها ـ بغير ألف أحدُرها بالضم .

---

(١) يقال : هجهج بالسبع : صاح به ، وبالجمل زجره .
(٢) النِقى ، بكسر النون وسكون القاف : المخ .

قوله : « بين ناقة وبين فصيلها » الأفصح حذف بين الثانية ؛ لأنّ الاسمين ظاهران، وإنّما تكرّر إذا جاءت بعد المضمر، كقولك : المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرٍو ، وذلك لأنّ المجرور لا يُعطَف عليه إلّا باعادة حرف الجرّ والاسم المضاف ، وقد جاء : المالُ بين زيدٍ وعمرٍو ، وأنشدوا :

بين السّحاب وبين الرّيح ملحَمَةٌ   قعاقعٌ وظُبًى في الجوّ تخترط[1]

وأيضاً :

بين النّدِيّ وبين برقة ضاحكٍ   غَيْثُ الضّريكِ وفارسٌ مقدامُ[2]

ومن شعر الحماسة :

وإنّ الّذى بينى وبين بنى أبى   وبين بنى عمّى لمختلفٌ جدّا[3]

وليس قولُ من يقول : إنه عطف بين الثالثة على الضمير المجرور بأولى من قولِ من يقول : بل عطفَ بينَ الثالثةِ على بين الثانية ، لأنّ المعنى يتمّ بكلّ واحد منها .

قوله عليه السلام : « ولا تمْصُرْ لبنها » ، المَصر حَلْب ما في الضرع جميعه، نهاه من أن يحلب اللبن كلّه فيبقى الفصيلُ جائعا ؛ ثم نهاه أن يُجهِدَها ركوبا ، أى يُتعبها ويُحمِّلها مشقّة ؛ ثم أمرَه أن يعدِل بين الركاب فى ذلك ، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينها ، ليكون ذلك أروحَ لهنّ ، ليرفُهْ على اللاغب، أى ليتركه وليُعفِه عن الركوب ليستريح. والرفاهيَة : الدّعة والراحة .

والنَّقِب : ذو النَّقَب ، وهو رقّة خُفّ البعير حتى تكاد الأرضُ تجرحه : أمرَه أن يستأنى بالبعير ذى النّقَبِ ، من الأناة ، وهى المُهلة .

---

(١) الملحمة : الحرب ، والقعاقع : حكاية أصوات الترسة فى الحرب. والظبى: جمع ظبة ، وهو حد السيف .
(٢) برقة ضاحك : موضع بعينه .   (٣) ديوان الحماسة ٣٠ : ١٧٢ ، والبيت للمقنع الكندى .

والظالع : الذى ظَلَع ، أى غَمز فى مَشْيه .

والغُدُر : جمع غدير للماء . وجوادُّ الطريق : حيث لا ينبت المرعَى .

والنِّطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى القليل .

والبُدْن بالتشديد : السِّمان ، واحدها بادن .

ومُنْقِيات : ذواتُ نِقْى ، وهو المُخ فى العَظْم ، والشحم فى العَين من السِّمَن،وأنْقَت الإبلُ وغيرُها : سَمِنتْ وصار فيها نِقْىٌ ، وناقة مُنْقِيةٌ ، وهذه الناقة لا تُنْقِى .

(٣٦)

الأصل :

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة :

آمُرُهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ؛ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لا شَاهِدَ غَيْرُهُ ، ولا وَكِيلَ دُونَهُ .

وَآمُرُهُ أَلا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلانِيَتُهُ ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ ، فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ ، وَأَخْلَصَ العِبَادَةَ .

وَآمُرُهُ أَلا يَجْبَهَهُمْ ، وَلا يَعْضَهَهُمْ ، وَلا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمُ الإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الحُقُوقِ .

وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وَحَقّاً مَعْلُوماً ، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ .

وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ القِيَامَةِ . وَبُؤْسَى لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ الفُقَرَاءُ وَالمَسَاكِينُ ، وَالسَّائِلُونَ وَالمَدْفُوعُونَ ، وَالغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ !

وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ ، وَرَتَعَ فِي الخِيَانَةِ ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا ، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالخِزْيَ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ الخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ الغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ . وَالسَّلامُ .

• • •

الشرح :

حيث لا شهيد ولا وكيلَ دونَه ، يعنى يومَ القيامة .

قوله : « ألّا يعمل شيء من طاعة الله فيما ظهر » ، أى لا يُنافق فيَعمَل الطاعة فى الظاهر ، والمعصية فى الباطن .

ثم ذكر أن الذين يتحسَّون النِّفاق والرِّياء هم المُخلِصون .

وألّا يجْبَهَهم : لا يواجِهِهمُ بما يَكرهونه ، وأصل الجَبْهِ لقاء الجَبْهة أو ضربُها ، فلمّا كان المواجِه غيرَه بالكلام القبيح كالضارب جَبهتَه به سُمّى بذلك جَبْهًا .

قوله : « ولا يعضههم » : أى لا يرميهم بالبُهْتان والكَذِب ، وهى العَضِيهة ، وعَضَهتُ فلانا عَضْها ، وقد عَضِهتَ يا فلان ، أى جئتَ بالبهتان .

قوله : « ولا يرغب عنهم تفضّلا » ، يقول : لا يحقرهم ادّعاء لفضله عليهم ، وتمييزه عنهم بالولاية والإمرة ؛ يقال فلان يرغَب عن القوم ، أى يأنف من الانتماء إليهم ، أو من المخالطة لهم .

وكان عمرُ بن عبد العزيز يدخُل إليه سالم مولى بنى مخزوم وعمرُ فى صدر بيته فيتنحّى عن الصَّدْر ، وكان سالم رجلا صالحا ، وكان عمر أراد شراءه وعتقه ، فأعتقوه إليه ؛ فكان يسمّيه : أخى فى الله ؛ فقيل له : أتتنحّى لسالم ! فقال : إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه فضلا فلا تأخذ عليه شرفَ المجلس . وهمّ السراج ليلة بأن يخمُد ، فوثَب إليه رجاء بن حَيْوة ليُصلحه ، فأقسم عليه عمرُ بنُ عبد العزيز ، فجلس ، ثم قام عمر فأصلحَه ، فقال له رجاء : أتقوم أنت يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : نعم ، قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعتُ وأنا عمرُ بنُ عبد العزيز .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « لا ترفعونى فوق قدرى فتقولوا فىّ ماقالت النصارى فى ابن مريم ، فإنّ الله عزّ وجلّ اتخذنى عبدا قبل أن يتخذنى رسولا ».

ثم قال : إنّ أربابَ الأموال الّذين تجب الصدقةُ عليهم فى أموالهم إخوانُك فى الدّين، وأعوانُك على استخراج الحقوق ، لأنّ الحق إنما يمكن العامل استيفاؤه بمعاونة ربّ المال واعترافه به ، ودفعه إليه ، فإذا كانوا بهـذه الصّفة لم يجُزْ لك عضْهُم وجَبْهُم وادّعاء الفضل عليهم .

ثم ذكر أنّ لهذا العامل نصيبا مفروضا من الصدقة ، وذلك بنصّ الكتاب العزيز؛ فكما نوفّيك نحن حقّك يجب عليك أن توفّى شركاءك حقوقهم ، وهم الفقراء والمساكين والغارمون وسائرُ الأصناف المذكورة فى القرآن ، وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام قدفوّضه فى صرف الصّدقات إلى الأصناف المعلومة ، ولم يلزمْه بأن يحمل مااجتمع إليه ليوزّعه هو عليه السلام على مستحقّيه كما فى الوصيّة الأولى، ويجوز للإمام أن يتولّى ذلك بنفسه ، وأن يَكِلَه إلى من يثق به من عمّاله .

وانتصب « أهلَ مَسْكنة » لأنّه صفة « شركاء » ، وفى التحقيق أنّ « شركاء » صفةٌ أيضا موصوفُها محذوف ، فيكون صفةً بعد صفة .

وقال الراوندىّ : انتصب « أهلَ مسكنة » لأنه بدَلٌ من « شركاء » ، وهذا غلط، لأنّه لا يُعطى معناه ليكون بدلًا منه .

وقال أيضا : بؤسى ، أى عذابا وشدّة ، فظنّه منوّنا وليس كذلك ، بل هو بؤْسَى على وزن « فُعلَى » كفُضْلَى ونُعمَى ، وهى لفظة مؤنّثة ؛ يقال : بؤسى لفلان ، قال الشاعر :

أرى الحلم بؤْسَى للفتى فى حياته ... ولا عيش إلّا ماحَبَاكَ به الجهلُ

والسائلون هاهنا هم الرقاب المذكورون في الآية ، وهم المكاتبون يتعذر عليهم أداء مال الكتابة ، فيسألون الناسَ ليتخلصوا من ربقة الرق . وقيل : هم الأسارى يطلبون فكاكَ أنفسهم ، وقيل : بل المراد بالرقاب في الآية الرقيق ، يسأل أن يبتاعه الأغنياء فيُعتِقوه . والمدفوعون هاهنا هم الذين عناهم اللهُ تعالى في الآية بقوله : ﴿وفي سبيل الله﴾[1] ، وهم فقراء الغُزاة ، سمّاهم مدفوعين لفقرهم . والمدفوع والمدفّع : الفقير ، لأن كل أحد يكرَهه ويدفعه عن نفسه . وقيل : هم الحجيج المنقطع بهم ، سمّاهم مدفوعين لأنهم دُفِعوا عن إتمام حجّهم ، أو دُفِعوا عن العَوْد إلى أهلهم.

فإن قلتَ : لم حملتَ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على مافسّرته به ؟

قلت : لأنه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية ، فترك ذكر المؤلفة قلوبهم لأن سهمهم سقَط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كان يُدفَع إليهم حينَ الإسلامُ ضعيف ، وقد أعزّه الله سبحانه ، فاستغنى عن تأليف قلوب المشركين ، وبقيتْ سبعةُ أصناف ، وَهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل .

فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام في قوله : « وإنّ لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا » ، فبقيتْ ستّة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها، وهي: الفقراء ، والمساكين ، والغارم ، وابنُ السبيل ، وأبدل لفظتين وهما الرقاب وفي سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون .

فإن قلتَ : مايقوله الفقهاء في الصّدقات ؟ هل تُصرَف إلى الأصناف كلّها أم يجوز صَرفها إلى واحد منها ؟

---

(١) سورة التوبة ٦٠ .

قلت : أما أبو حنيفة فإنه يقول : الآية قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة فهى مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها ، كأنه تعالى قال : إنما هى لهم لا لغيرهم ، كقولك : إنما الخلافة لقريش ، فيجوز أن تصرف الصدقة إلى الأصناف كلها ، ويجوز أن تصرف إلى بعضها ، وهو مذهب ابن عباس وحذيفة وجماعة من الصحابة والتابعين . وأما الشافعى فلا يرى صرفها إلا إلى الأصناف المعدودة كلها ، وبه قال الزهرى وعكرمة .

فإن قلتَ : فمن الغارم وابنُ السبيل ؟

قلت : الغارمون الذين ركبتهم الديونُ ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب . وقيل : هم الذين يتحملون الحمالات فتدينوا فيها وغرموا ، وابنُ السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ، فهو — وإن كان غنيا حيث ماله موجود — فقيرٌ حيث هو بعد .

وقد سبق تفسيرُ الفقير والمسكين فيما تقدم .

قوله : «فقد أحلّ بنفسه الذلّ والخزى» ، أى حمل نفسه محلا لهما ، ويُروَى : « فقد أحلّ بنفسه » بالخاء المعجمة ، ولم يذكر الذلّ والخزى أى حمل نفسه مخلّا ، ومعناه حمل نفسه فقيرا ، يقال : خلّ الرجل : إذا افتقر ، وأخلّ به غيرُه ، وبغيره أى جعل غيرَه فقيرا ، ورُوِى : « أحلّ » بنفسه بالحاء المهملة ، ولم يذكر « الذلّ والخزى » . ومعنى « أحلّ بنفسه » أباح دمه ، والرواية الأولى أصحّ ، لأنه قال بعدها : « وهو فى الآخرة أذلّ وأخزى » .

وخيانة الأمة : مصدرٌ مُضاف إلى المفعول به ، لأنّ الساعىَ إذا خان فقد خان الأمة كلها ؛ وكذلك غِشّ الأئمة ، مصدرٌ مُضاف إلى المفعول أيضا ؛ لأنّ الساعىَ إذا غشّ فى الصدقة فقد غشّ الإمام .

* * *

(٢٧)

الأصل :

ومن عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حين قلده مصر :

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ ؛ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَاسُكِنَتْ ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ ؛ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ .

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ؛ بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً ؛ أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً ، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا !

وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ .

فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ.

وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ؛ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلهِ.

وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.

• • •

الشَّرْح:

آسِ بينهم: اجعلهم أسوة، لا تفضّل بعضهم على بعض فى اللّحظة والنظرة، ونبّه بذلك على وجوب أن يجعلهم أسوة فى جميع ماعدا ذلك، من العطاء والإنعام والتقريب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ (١).

قوله: «حتى لا يطمع العظماء فى حَيْفك لهم»، الضمير فى «لهم» راجع إلى الرعيّة لا إلى العظماء، وقد كان سبق ذكرهم فى أوّل الخطبة، أى إذا سلكتَ هذا المسلك لم يطمع العظماء فى أن تحيف على الرعيّة وتظلمهم وتدفع أموالهم إليهم، فإنّ وُلاة الجور

(١) سورة الإسراء ٢٣.

هكذا يفعلون ، يأخذون مال هذا فيعطونه هذا . ويجوز أن يرجع الضمير إلى العطاء ، أى حتى لا يطمع العظماء فى جَوْرك فى القَسْم الذى إنما تعمله لهم ولأجلهم ، فإنّ ولاة الجور يَطمع العظماء فيهم أن يحيفوا فى القسمة فى الفىء ، ويخالفوا ماحدّه اللهُ تعالى فيها ، حفظاً لقلوبهم ، واستمالةً لهم ، وهذا التفسير أليَقُ بالخطبة ؛ لأنّ الضمير فى « عليهم » فى الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء ؛ فيجب أن يكون الضمير فى « لهم » فى الفقرة الثانية عائداً إلى العظماء .

قوله : « فإن يعذب فأنتم أظلم » أفعل هاهنا بمعنى الصّفة ، لا بمعنى التفضيل ، وإنما يراد فأنتم الظالمون ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [1] . وكقولهم : الله أكبر .

ثم ذكر حال الزُّهاد فقال : أكلوا من الدنيا بنصيب قوىّ ، وحصلت لهم الآخرة ؛ ويُروَى أنّ الفُضَيل بن عياض كان هو ورفيق له فى بعض الصّحارى ، فأكلا كسرة يابسة ، واغترفا بأيديهما ماء من بعض الغُدران ، وقام الفُضيلُ فخطّ رجليه فى الماء ، فوجد بَرْدَه ، فالتذّ به وبالحال التى هو فيها ، فقال لرفيقه : لو علم الملوكُ وأبناء الملوكِ مانحن فيه من العيش واللذة لحسدونا .

ورُوِى : « والمَتْجَر المربح » ، فالرابح فاعلٌ من ربح رِبحا ، يقال : بيعٌ رابح أى يُربَح فيه ، والمُربح : اسم فاعل قد عدّىَ ماضيه بالهمزة ، كقولك : قام وأقمته .

قوله : « جيرانُ الله غداً فى آخرتهم » ؛ ظاهر اللفظ غيرُ مراد ، لأنّ البارى تعالى ليس فى مكان وجهةٍ ليكونوا جيرانَه ، ولكن لما كان الجار يُكرِم جاره سمّاهم جيران الله ، لإكرامه إيّاهم ، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت فى السّماء والعرش هو السماء العليا ، كان فى الكلام محذوف مقدّر ، أى جيرانُ عرش الله غداً .

---

(١) سورة الروم ٢٧ .

قوله : « فإنه يأتى بأمرٍ عظيم ، وخطب جليل ، بخيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبداً وشرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً » ، نصّ صريح فى مذهب أصحابنا فى الوعيد ، وأنّ من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج ، لأنه لو خرج منها لكان الموتُ قد جاءه بشرٍّ معه خير ، وقد نفى نفياً عامّاً أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير ألبتّة .

قوله : « من عاملها » ، أى من العامل لها .

قوله : « طُرَداء الموت » ، جمع طَرِيد ، أى يطردكم عن أوطانكم ويُخرجكم منها ، لا بدّ من ذلك ، إن أقمتم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم .

وقال الراوندىّ : طُرَداء هاهنا : جمع طريدة وهى ما طردتَ من الصيد أو الوسيقة[1] ، وليس بصحيح ، لأن « فعيلة » بالتأنيث لا تُجمع على فعلاء . وقال النحويّون : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾[2] جاء على « خليف » لا على « خليفة » ، وأنشدوا لأوس بن حجَر بيتاً ، استعملها جميعاً فيه ، وهو :

إنّ من القوم مَوجوداً خَليفتُه ... وما خَليفُ أبى لَيلَى بموجودِ[3]

قوله : « ألزَم لكم من ظِلّكم » ، لأنّ الظلّ لا تصحّ مفارقته لذى الظلّ مادام فى الشمس ، وهذا من الأمثال المشهورة .

قوله : « معقودٌ بنواصيكم » ، أى ملازمٌ لكم ، كالشىء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه .

وقال الراوندىّ : أى الموت غالبٌ عليكم ، قال تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾[4] ، فإنّ الإنسان إذا أُخذ بناصيته لا يُمكنه الخلاص ، وليس بصحيح ، لأنه لم يقل : « أخذ بنواصيكم » .

قوله : « والدنيا تُطوى من خلفكم » من كلام بعض الحكماء : الموتُ والناس كسطور

(١) الوسيقة : الجماعة من الإبل ، إذا سوقت طردت معاً .

(٢) سورة النمل ٦٢ .

(٣) ديوانه ٢٥ ، وروايته : « وما خليف أبى وهب » .

(٤) سورة الرحمن ٤١ .

فى صحيفة يقرؤها قارئٌ ويطوى مايقرأ ، فكلّما ظهر سطرٌ خَفِيَ سطر .

ثم أمره عليه السلام بأن يَجمع بين حُسن الظن بالله وبين الخوف منه ، وهذا مَقامٌ جليل لا يصل إليه إلّا كلُّ ضامرٍ مهزول ، وقد تقدّم كلامُنا فيه . وقال علىّ بنُ الحسين عليه السلام : لو أنزل اللهُ عزّ وجلّ كتابا أنّه معذّب رجلا واحدا لرجوتُ أن أكونه ، وأنّه راحمٌ رجلا واحدا لرجوتُ أن أكونَه ، أو أنّه معذّبى لامحالة ماازددتُ إلّا اجتهادا لئلّا أرجع إلى نفسى بلائمة .

ثم قال : « ولّيتُك أعظمَ أجنادى » ، يقال للأقاليم والأطراف : أجناد ، تقول : وَلِىَ جُندَ الشام ، ووَلِىَ جند الأُرْدُنّ ، وولى جندَ مِصرَ .

قوله : « فأنت محقوق » ، كقولك حَقِيق وجَدِير وخَلِيق ، قال الشاعر :

وإنّى لمحقوقٌ بألّا يَطولَنى نَداهُ إذا طاولْتُه بالقصائدِ

وتُنافِح : تُجالِد ، نافحتُ بالسيف أى خاصمتُ به .

قوله : « ولو لم يكن إلّا ساعة من النهار » ، المراد تأكيد الوَصاة عليه أن يخالف على نفسه ، وألّا يَتّبع هَواها ، وأن يُحامِيَ عن دِينه ، وأنّ ذلك لازمٌ له ، وواجبٌ عليه ، ويلزم أن يفعله دائما فإن لم يستطع فليَفعلْه ولو ساعة من النهار ، وينبغى أن يكون هذا التقييد مصروفا إلى المنافحة عن الدّين ، لأن الخصامَ فى الدّين قد يَمنعُه عنه مانع، فأمّا أمرُه إيّاه أن يخالفَ على نفسه فلا يجوز صرفُ التقييد إليه ، لأنّه يُشعِر بأنه مفسوحٌ له أن يتّبع هوَى نفسه فى بعض الحالات ، وتلك غيرُ جائز ، بخلاف المخاصمة والنّضال عن المعتقَد .

قال : « ولا تُسخِط اللهَ برضا أحد من خلقه ، فإنّ فى الله خلَفاً من غيره ، وليس من الله خلَفٌ فى غيره » ، أخذه الحسنُ البصرىّ فقال لعمر بن هُبيرة

أميرِ العراق : إنّ الله مانِعُك من يزيدَ ، ولم يَمنعك يزيدُ من الله ـ يعني يزيدَ بن عبد الملك .

ثم أمَرَه بأن يصلّي الصلاةَ لوقتها ؛ أي في وقتها ، ونهاه أن يحمِله الفراغُ من الشّغل على أن يُعجّلها قبل وقتها ، فإنها تكون غيرَ مقبولة ، أو أن يحمِله الشّغل على تأخيرها عن وقتها فيأثم .

ومن كلام هشام بن عتبة أخي ذي الرُّمة ـ وكان من عقلاء الرّجال ـ قال المبرّد في الكامل : حدّثني العبّاس بن الفرَج الرِّياشيّ بإسناده، قال هشام لرجل أراد سفرا : اعلم أنّ لكل رُفقة كلبًا يَشركُهم في فضل الزاد ، ويَهِرّ دونهم ، فإن قدرتَ ألّا تكون كلبَ الرُّفقة فافعل ، وإيّاك وتأخيرَ الصلاة عن وقتها ، فإنك مُصلّيها لامحالةَ ، فصلّها وهي تُقبَل منك[٢] .

قوله : « واعلم أنّ كل شيء من عملك تَبَعٌ لصلاتك » ، فيه شَبَهٌ من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الصلاةُ عِماد الإيمان ، ومن تَركها فقد هَدَم الإيمان». وقال صلى الله عليه وآله : « أوّل مايحاسَبُ به العبدُ صلاتُه ، فإن سُهّل عليه كان مابعدَه أسهل ، وإن اشتدّ عليه كان مابعدَه أشدّ » .

ومثل قولِه : « ولا تُسخِط اللهَ برضا أحد من خلقِه»،مارواه المبرّد في " الكامل " عن عائشة قالت : من أرضَى اللهَ بإسخاط الناس كفاه الله مابينه وبين الناس،ومَن أرضَى الناسَ بإسخاط الله وَكَله الله إلى النـاس .

ومثل هذا مارواه المبرّد أيضا قال : لما وُلّي الحسنُ بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هَرْمة : إنّي لستُ كمن باعَ لك دينَه رجاءَ مدحِك ، أو خوفَ ذمّك،فقدرزقني[٣]

---

(١) الكامل : « بإسناد له » .
(٢) الكامل ١ : ٢٦٢ .
(٣) الكامل : قد أغناني الله بولادة نبيه الممادح » .

الله عزّ وجلّ بولادة نبيّه صلى الله عليه وآله المادح ، وجنّبنى المقابح ، وإنّ من حقّه علىّ ألا أغضىَ على تقصير فى حقّ الله . وأنا أقسم بالله ، لئن أتيتَ بك سكرانَ لأضربنّك حدًّا للخَمْر ، وحدًّا للسُّكْر ، ولأزيدنّ لموضع حُرْمتك بى ، فليكن تركُك لها لله عزّ وجلّ تُعَن[1] عليه ، ولا تدعها للنّاس فتوكل إليهم ، فقال ابن هَرْمة[2] :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدّبنِى بآدابِ الكرامِ

وقال لىَ اصطبرْ عنها ودَعْها ... لخوفِ الله لا خوفِ الأنامِ

وكيف تَصبُّرِى عنها وحُبِّى ... لها حُبٌّ تمكّن فى عِظامِى !

أرَى طِيبَ الحلالِ علىّ خُبْثًا ... وطِيبَ النفس فى خُبثِ الحرامِ[3]

(١) كذا فى ا والكامل ، وفى ب : « تعز » .
(٢) الكامل : « فنهض ابن هرمة وهو يقول » .
(٣) الكامل ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الأصْـلُ :

ومن هذا العهد :

فَإِنَّهُ لَا سَوَاءٌ ، إِمَامُ الْهُــدَى وَإِمَامُ الرَّدَى ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ ؛ وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً ؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ ، وَلَــكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ ، عَالِمِ اللِّسَانِ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ

* * *

الشَّـرْح :

الإشارة بإمام الهدى إلى نفسه ، وبإمام الرّدى إلى معاوية ، وسماه إماما ، كما سمّى الله تعالى أهلَ الضلال أئمة ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [1] ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدوّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ليس يعني بذلك أنه كان عدوّا أيام حرب النبي صلّى الله عليه وآله لقريش ، بل يريد أنه الآن عدوّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ، لقوله صلى الله عليه وآله له عليه السلام : « وعدوّك عدوّي ، وعدوّي عدوّ الله » . وأوّل الخبر : « وليّك وليّي ، ووليّي وليّ الله » ، وتمامه مشهور ، ولأنّ دلائل النفاق كانت ظاهرة عليه من فلتات لسانه ومن أفعاله ، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة ، فلتُطلب من كتبهم ، خصوصا

---

(١) سورة القصص ٤١ .

من كُتُب شيخنا أبي عبد الله ، ومن كتب الشيخين أبي جعفر الإسكافيّ ، وأبي القاسم البَلْخيّ ، وقد ذكرنا بعضَ ذلك فيما تقدّم .

ثم قال عليه السلام : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إني لا أخاف على أمّتي مؤمناً ولا مُشركاً » أي ولا مشركاً يُظهر الشِّرك ، قال : لأن المؤمن يمنعه اللهُ بإيمانه أن يُضِلّ الناسَ . والمُشرك مُظهِر الشّرك ، يَقمَعه الله بإظهار شِركه ويَخذُله ، ويَصرِف قلوبَ الناس عن اتّباعه ، لأنّهم يَنفِرون منه لإظهاره كلمةَ الكُفْر ، فلا تطمئنّ قلوبُهم إليه ، ولا تَسكُن نفوسهم إلى مقالته ، ولكنّي أخاف على أمّتي المنافقَ الّذي يُسِرُّ الكفر والضلال ، ويُظهِر الإيمانَ والأفعال الصالحة ، ويكون مع ذلك ذا لَسَن وفصاحة ، يقول بلسانه ماتعرفون صوابَه ، ويفعل سرّاً ماتُنكِرونه لو اطّلعتم عليه ، وذاك أنّ مَن هذه صِفتُه تَسكُن نفوسُ الناس إليه ؛ لأن الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلّده الناس فيضلّهم ويوقعهم في المفاسد .

* * *

[كتاب المعتضد بالله]

ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله أبو العبّاس أحمد بنُ الموفّق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله في سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بنُ سليمان ، وأنا أذكره مختصراً من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

قال أبو جعفر : وفي[1] هذه السنة عزَم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس ، فخوّفه عبيدُ الله بنُ سليمان اضطرابَ العامة ،

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٦٤ وما بعدها .

وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إليه . فكان أول شيء بدأ به المعتضد من ذلك التقدم[1] إلى العامة بلزوم أعمالهم ، وترك الاجتماع والعصبية[2] ، [والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا] [3] ، ومنع[4] القُصّاص عن القعود على الطُرُقات ، وأنشأ هذا الكتاب وعملت به نُسَخ قرئتْ بالجانبين من مدينة السلام فى الأرباع والمحال والأسواق يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه ، ومنع القصّاص من القعود فى الجانبين ، ومنع أهل الحِلَق من القعود فى المسجدين ، ونودى فى المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع وغيره وبمنع القُصّاص وأهل الحلق من القُعود ، ونودى : إنّ الذّمة قد برئتْ ممن اجتمع من الناس فى مناظرةٍ أو جدال ، وتقدّم إلى الشرّاب الذين يسقون الماء فى الجامعين ألّا يترحّموا على معاوية ، ولا يذكروه [بخير] [3] ، وكانت عادتهم جاريةً بالترحّم عليه ، وتحدث الناس أن الكتاب الذى قد أمر المعتضدُ بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر ، فلما صلى الناسُ بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب ، فلم يُقرأ : وقيل : إن عبيد الله بن سليمان صرفه عن قراءته ، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضى ، وأمره أن يُعمل الحيلة فى إبطال ما عزم المعتضد عليه ، فمضى يوسف فكلّمَ المعتضد فى ذلك ، وقال له : إنى أخاف أن تضطرب العامة ، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحرّكت العامةُ أو نطقتْ وضعتُ السيفَ فيها . فقال : يا أمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيِّين الذين يخرجون فى كل ناحية ، ويميل إليهم خلقٌ كثير ، لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما فى هذا الكتاب من إطرائهم — أو كما قال — وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميَل ، وكانوا هم أبسط

---

(١) الطبرى : « الأمر بالتقدم » .

(٢) الطبرى : « القضية » .

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « وبمنع » .

ألسنة ، وأثبت حجةً منهم اليوم . فأمسك المعتضد فلم يردّ إليه جوابا ، ولم يأمر بعد ذلك فى الكتاب بشىء . وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الله صلى الله عليه وآله :

أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةُ العامة من شُبهةٍ قد دخلتهم فى أديانهم ، وفسادٍ قد لحقهم فى معتقدهم ، وعصبيةٍ قد غلبتْ عليها أهواؤهم ، ونطقت بها ألسنتُهم ، على غير معرفة ولا رويّة ، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة ، وخالفوا السنن المتبعة ، إلى الأهواء المبتدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١] ﴾ . خروجا من الجماعة ، ومسارعةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفرقة ، وتشتيتا للكلمة ، وإظهاراً لموالاة من قطع اللهُ عنه الموالاة ، وبَتَرَ منه العِصْمة ، وأخرجه من المِلّة لما أوجب عليه اللعنة ، وتعظيما لمن صغر الله حقّه ، وأوهن أمرَه ، وأضعف رُكنه ، من بنى أمية ، الشجرة الملعونة ، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهَلَكة ، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة ، ﴿ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [٢] .

فأعظمَ أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ، ورأى [٣] ترك إنكاره حَرَجا عليه فى الدين ، وفسادا لمن قلّده الله أمرَه من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجّة على الشاكّين ، وبسط اليد على المعاندين [٤] ! وأمير المؤمنين يخبركم معاشرَ المسلمين أنّ الله جلّ ثناؤه لما ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بدينه ، وأمره أن يَصدَع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إليه ، وأنذرهم وبشّرهم ،

---

(١) سورة القصص ٥٠ .

(٢) سورة البقرة ١٠٥ .

(٣) الطبرى : « ترك » .

(٤) الطبرى : « العاندين » .

ونصح لهم وأرشدهم ، فكان من استجاب له ، وصدّق قوله ، واتّبع أمره نُفَيْرٌ[١] يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتى به من ربه ، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازا له ، وإشفاقا عليه ، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته ، وكافرهم مجاهدٌ بنُصْرته وحميّته ، يدفعونَ من نابذه ، ويقهرون من عازّه وعانده ، ويتوثقون له ممن كانفه وعاضده ، ويبايعون من سمح بنصرته ، ويتجسسون أخبار أعدائه ، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين ، حتى بلغ المدى ، وحان وقت الاهتدا ، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة ، وأحسن هدى ورغبة ، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا . معدن الحكمة ، وورثة النبوّة ، وموضع الخلافة . أوجب الله لهم الفضيلة ، وألزم العباد لهم الطاعة .

وكان ممن عانده وكذّبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم ، يتلقّونه بالضرر والتثريب[٢] ، ويقصدونه بالأذى والتخويف ، وينابذونه بالعداوة ، وينصبون له المحاربة ويصدّون من قصده ، وينالون بالتعذيب من اتّبعه ، وكان أشدّهم فى ذلك عداوة ، وأعظمهم له مخالفة ، أوّلهم فى كلّ حرب ومناصبة ، ورأسهم فى كل إجلاب وفتنة ، لا يرفع على الإسلام راية إلّا كان صاحبها وقائدها ورئيسها : أبا سفيان بن حرب صاحب أُحُد والخندق وغيرهما ، وأشياعه من بنى أمية الملعونين فى كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله فى مواطنَ عدّة ، لسابق علم الله فيهم ، وماضى حُكْمِه فى أمرهم ، وكفرهم ونفاقهم . فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً ، ويدافع مكايداً ، ويجلب منابذاً ، حتى قهره السيف ، وعلا أمرُ الله وهم كارهون ، فتعوّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه ، وأسرّ الكفر غير مقلعٍ عنه ، فقبله وقبل ولدَه على علمٍ منه بحاله وحالهم . ثم أنزل الله

---

(١) الطبرى : « نفر » .

(٢) التثريب : « العتاب واللوم » .

تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿والشجرةَ الملعونة في القرآن﴾[1] ، ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بني أميّة .

ومما ورد من ذلك في السنة ، ورواه ثقات الأمة ، قول رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه وقد رآه مقبلا على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه[2] : « لعن الله الراكب والقائد والسائق » .

ومنه ماروته الرّواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان : تلقّفوها يابني عبد شمس تلقّف الكرة ، فوالله مامن جنة ولا نار ؛ وهذا كُفر صُراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الّذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون .

ومنه مايُروَى من وقوفه على ثنيّة أُحُد من بعد ذَهاب بصره وقوله لقائده : هاهنا رمَيْنا محمدا وقتلْنا أصحابه .

ومنها الكلمة التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عُرِضت عليه الجنود : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال له العباس : ويحك ! إنه ليس بملك ، إنها النبوّة .

ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالا على ظهر الكعبة يؤذِّن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد .

ومنه الرؤيا التي رآها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فوجَم لها . قالوا : فما رُئيَ بعدها ضاحكا[3] ؛ رأى نفراً من بني أمية يَنْزُون[4] على منبره نزوة القِرَدَة .

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحَكَم بن أبي العاص لحكاته إياه في

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ . (٢) الطبري « يسوق به » .

(٣) بعدها في الطبري: فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ .

(٤) ينزون : يثبون ويعدون .

مِشيته ، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخلّج يحكيه ، فقال : « كن كما أنت » ، فبقى على ذلك سائر عمره.

هذا إلى ما كان من مروان ابنه فى افتتاحه أوّل فتنة كانت فى الإسلام ، واحتقابه[1] كلّ حرام سُفِك فيها أو أريق بعدها .

ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله ليلة القدر ، خيرٌ من ألف شهر ا قالوا : ملك بنى أمية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا معاوية ليكتب بين يديه ، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « لا أشبع الله بطنه » . فبقى لا يشبع وهو يقول: والله ما أترك الطعام شبعاً ، ولكن إعياء !

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يطلع من هذا الفجّ رجل من أمتى يُحشَر على غير ملتى » ؛ فطلع معاوية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه » .

ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ معاوية فى تابوت من نار ، فى أسفل دَرْك من جهنّم ، ينادى : ياحنّان يامنّان . فيقال له : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

ومنها انتزاؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين فى الإسلام مكانا ، وأقدمهم إليه سبقا ، وأحسنهم فيه أثرا وذِكرا ، علىّ بن أبى طالب ، ينازعه حقّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه ، ويحاول مالم يزل هو وأبوه يحاولانه ، من إطفاء نور الله ، وجحود دينه

---

(١) يقال : احتقب فلان الإثم ؛ إذا ارتكبه .

(٢) سورة يونس ٩١ .

﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] ؛ ويستهوى أهلَ الجهالة ، ويموّه لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول الله صلّى الله عليه وآله الخبرَ عنهما، فقال لعمّار بن ياسر : « تقتلك الفئةُ الباغية » ؛ تدعوهم إلى الجنّة ويدعونك إلى النار ؛ مؤثرا للعاجلة ، كافراً بالآجلة ؛ خارجا من رِبقة[2] الإسلام ، مستحلّا للدّم الحرام ؛ حتى سُفِك فى فتنته ، وعلى سبيل غَوايته وضلالته مالا يُحصَى عددُه من أخيار المسلمين ، الذابّين عن دين الله والناصرين لحقّه ، مجاهدا فى عداوة الله ، مجتهدا فى أن يُعصَى الله فلا يُطاع ، وتُبطَل أحكامُه فلا تقام ، ويُخالَف دينُه . فلا بدّ وأن تعلوَ كلمةُ الضلال وترتفعَ دعوةُ الباطل ، وكلمةُ الله هى العليا ، ودينه المنصور ، وحكمُه النافذ ، وأمرُه الغالب وكيدُ مَن عاداه وحادّه المغلوبُ الداحض ؛ حتى احتمل أوزارَ تلك الحروب وما تبعها ، وتطوّق تلك الدّماء وما سُفِك بعدَها ، وسَنّ سُنَن الفساد التى عليه إثمها وإثمُ مَن عَمِل بها ، وأباحَ المحارمَ لمن ارتكبها ، ومَنَع الحقوقَ أهلَها ، وغرّته الآمال ، واستدرجه الإمهال.

وكان ممّا أوجَب الله عليه به اللعنة قتلُه من قُتِل صبراً[3] من خيار الصّحابة والتابعين ، وأهلِ الفضل والدّين ، مثل عَمْرو بن الحَمِق الخزاعىّ وحُجْر بن عدىّ الكندىّ ، فيمن قتل من أمثالهم ، على أن تكون له العزّة والملك والغَلَبة ، ثم ادّعاؤه زياد ابن سُميّة أخا ، ونسبتُه إيّاه إلى أبيه ، والله تعالى يقول : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾[4] ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ملعونٌ من ادّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه » . وقال : « الولد للفراش وللعاهرِ الحجَر » ، فخالَف حكمَ الله تعالى ورسولِه جهاراً ، وجعلَ الولدَ لغير الفِراش والحجَرَ لغير العاهر ، فأحلّ بهذه الدعوة من محارم الله ورسولِه فى أمّ حَبيبة أمِّ المؤمنين وفى غيرها من النساء من شعور ووجوه قد

---

(١) سورة التوبة ٣٢ .
(٢) الربقة : الواحدة من العرى التى فى الحبل .
(٣) صبرا ، أى حبساً .
(٤) سورة الأحزاب ٥ .

حرّمها الله وأثبت بها من قُرَبي قد أمدّها الله ، مالم يدخل الدِّين خلل مثله ، ولم ينل الإسلام تبديلٌ يشبهه .

ومن ذلك إيثاره لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السِّكّير الخِمّير صاحب الدِّيَكة والفهود والقِرَدة ، وأخذ البَيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسَّطوة والتوعُّد والإخافة ، والتهديد والرَّهبة ، وهو يعلم سَفَهه ، ويطّلع على رَهَقه وخبثه ؛ ويُعاين سَكَراته وفَعَلاته ، وفجوره وكفره . فلما تمكّن ـ قاتله الله ـ فيما تمكّن منه ، طَلَب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين ، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرّة الوقعة التي لم يكن في الإسلام أشنعُ منها ولا أفحش ، فشَفى عند نفسه غليله ؛ وظنّ أنه قد انتقم من أولياء الله ، وبلغ الثأر لأعداء الله ؛ فقال مجاهرا بكفره ، ومظهرا لشركه :

ليتَ أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزعَ الخزرجِ من وقعِ الأسَل[1]

قول[2] من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه ، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده .

ثم أغلظُ ما انتهك ، وأعظمُ ما اجترم ، سفكُه دمَ الحسين بن عليّ عليه السلام ، مع موقعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومكانه ومنزلته من الدّين والفضل والشهادة له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة ؛ اجتراءً على الله ، وكفراً بدينه ، وعداوةً لرسوله ، ومجاهرةً لعترته ، واستهانةً لحرمته ، كأنما يقتلُ منه ومن أهل بيته قوماً من كَفَرة التُّرك

(١) لعبد الله بن الزبعرى ، من كلمة يوم أحد ، سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ وبعده في الطبري :

قَدْ قتلْنَا القومَ مِنْ ساداتِكُمْ ... وعَدلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فاعْتَدَلْ

فأهَلُّوا واستَهلُّوا فرحاً ... ثُمَّ قالوا يا يزيدُ لا تُشَلّ

لَسْتُ مِنْ خِنْدِفَ إنْ لم أنْتَقِمْ ... من بني أحمدَ ما كانَ فَعَلْ

لعبَتْ هاشمُ بالمُلْكِ فلا ... خَبَرٌ جاءَ ولا وَحْيٌ نَزَلْ

(٢) الطبري : هذا هو المروق من الدين وقول من لا يرجع . . . .

والدَّيْلم ، ولا يخاف من الله نقمة ،ولا يُراقب منه سَطْوة ، فتبّر اللهُ عمرَه ، أجبثّ أصله وفرعَه ، وسلّطه ماتحتَ يدِه ، وأعدَّ له من عذابه وعقوبتِه ، ما استحقّه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بنى مَرْوانَ من تبديل كتاب الله ، وتعطيل أحكام الله ، واتخاذِ مالِ الله بينهم دُوَلا ، وهدمِ بيت الله ، واستحلالهم حَرَمه ، ونَصْبهم المجانيقَ عليه ، ورَمْيهم بالنّيران إيّاه ، لا يألون له إحراقا وإخرابا ، ولِما حَرّم الله منه استباحة وانتهاكا ، ولمن لجأ إليه قتلا وتنكيلا ، ولمن أمّنه اللهُ به إخافةً وتشريدا ؛حتى إذا حَقّت عليهم كلمةُ العذاب ، واستحقّوا من الله الانتقام ، وملئوا الأرض بالجور والعُدْوان ، وعَمّوا عباد بلادِ الله بالظُّلم والاقتسار ، وحلّت عليهم السَّخْطة ، ونزلت بهم من الله السَّطوة ، أباح الله لهم من عِترةِ نبيّه وأهل وراثته ، ومن استخلصه منهم لخلافته ، مِثلَ ماأتاح من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المجاهدين ، لأوائلهم الكافرين ، فسفك اللهُ به دماءهم ودماء آبائهم مرتدّين ، كما سفك بآبائهم مُشركين ، وقطع الله دابرَ الذين ظلموا والحمدُ لله ربّ العالمين .

أيّها الناس، إن الله إنما أمَر ليطاع ، ومَثّل ليتمثّل ، وحَكم ليفعَل ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾[1]، وقال: ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[2].

فالعنوا أيّها الناس مَن لعنه الله ورسوله ، وفارِقوا من لاتنالون القربةَ من الله إلّا بمفارقته ؛ اللهمّ العنْ أبا سُفيان بن حرب بن أميّة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وولده وولدولده ! اللهمّ العنْ أئمة الكفر، وقادةَ الضّلال، وأعداء الدّين ، ومُجاهدِي الرّسول ، ومعطِّلى الأحكام ، ومبدِّلى الكتاب ، ومنتهكى الدّمِ الحرام ! اللهمّ إنّا نبرأ إليك من مُوالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك،

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .   (٢) سورة البقرة ١٥٩ .

كما قلت : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[١].

أيها الناس، اعرفوا الحق تعرفوا أهله ، وتأملوا سُبل الضلالة تعرفوا سالِكَها ، فقفوا عندما وقفكم الله عليه ، وانفذوا كما أمركم الله به ، وأمير المؤمنين يستعصم بالله لكم، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إليه في هدايتكم . والله حسبُه ، وعليه توكّلُه ، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم[٢].

• • •

قلت : هكذا ذكر الطبريّ الكتاب ،وصدى أنه الخطبة، لأن كلّ ما يُخطب به فهو خُطبة ،وليس بكتاب ، والكتاب ما يُكتب إلى عامل أو أمير ونحوهما، وقد يقرأ الكتابُ على المنبر فيكون كالخطبة ، ولكن ليس بخطبة ، ولكنه كتابٌ قرئ على الناس .
ولعلّ هذا الكلامَ كان قد أنشئ ليكون كتاباً، ويُكتب به إلى الآفاق ، ويُؤمَروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد . والذي يؤكّد كونه كتاباً ،وينصر ماقاله الطبريّ ،أن في آخره : « كتب عُبيدُ الله بنُ سليمان في سنة أربع وثمانين ومائتين»، وهذا لا يكون في الخُطب ، بل في الكتب ، ولكنّ الطبريّ لم يذكر أنه أمر بأن يكتب إلى الآفاق ولا قال : وقع العزم على ذلك ، ولم يذكر إلّا وقوع العزم على أن يقرأ في الجوامع ببغداد .

---

(١) سورة المجادلة ٢٢ .
(٢) الطبري حوادث سنة ٢٨٤ بتصرف واختصار .

(٢٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا ، وهو من محاسن الكتب -

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً ؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللهِ تَعَالَى عِنْدَنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ . وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ ، لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا !

أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ ؛ وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ .

أَلَا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ؛ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ - أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ : سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ !

أَوَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَافُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ !

وَلَوْلَا مَانَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً ، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ .

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا ، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا ، وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا ؛ فِعْلَ الْأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ؛ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ !

فَإِسْلَامُنَا مَاقَدْ سُمِعَ ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَاشَذَّ عَنَّا ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾[1]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] ، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ .

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ .

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ .

---

(١) سورة الأنفال ٧٥ . (٢) سورة آل عمران ٦٨ .

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتَ : إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ ؛ وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ ؛ وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَالَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ !

وَهٰذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا ، وَلٰكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ ؛ فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ ، أَمَّنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ ! كَلَّا وَاللهِ لَقَدْ ﴿ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [1]

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً ؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ *

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ ، فـ

---

(١) سورة الأحزاب : ١٨ .

• لَسْتُ قَلِيلاً بِلَحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ •

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [1].

• • •

الشــرح :

[كتاب لمعاوية إلى عليّ]

سألتُ النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبي زيد؛ فقلتُ : أرى هذا الجوابَ مُنطبقا على كتابِ معاوية الذي بعثه مع أبي مُسلِم الخَوْلانيّ إلى عليّ عليه السلام؛ فإن كان هذا هو الجواب فالجواب الذي ذكَرَه أرباب السِّيرة وأورَدَه نصرُ بن مُزاحم في كتاب صِفِّين إذن غير صحيح، وإن كان ذلك الجواب، فهذا الجواب إذنْ غيرُ صحيح ولا ثابت، فقال لي : بل كلاهما ثابت مَرْويّ، وكلاهما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وألفاظُه، ثم أمرني أن أكتب ما عليه عليّ عليه السلام، فكتبته، قال رحمه الله :

كان معاويةُ يتسقّط [2] عليًا ويَنْعَى عليه ماعساه يذكره من حالِ أبي بكر وعمر، وأنهما غَصَباه حقَّه، ولا يزال يكيدُه بالكتاب يكتبُه، والرِّسالة يَبعثُها يطلب غِرّته؛ لينفُثَ بما في صَدْرِه من حالِ أبي بكر وعمر، إمّا مكاتبةً أو مُراسلةً، فيجعل ذلك حجّةً

---

(١) سورة هود ٨٣.

(٢) يتسقطه : يتنقصه.

عليه عند أهل الشام ، ويضيفه إلى ما قرّره في أنفسهم من ذنوبه كأزعم ،فقد كان غمصه(١) عندهم بأنَّه قتل عثمانَ ومالأ على قتله ، وأنه قتل طلحةَ والزبير ،وأسَرَ عائشة ،وأراق دماء أهلِ البَصرة . وبقيتْ خَصلةٌ واحدة ، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرّأ من أبي بكر وعمر، وينسُبهما إلى الظُّلم ومخالفةِ الرّسول في أمر الخلافة ، وأنهما وثَبا عليها غَلَبة ،وغصَباه إيّاها؛ فكانت هذه الطامّة الكبرى ليست مقتصرةً على فساد أهل الشام عليه،بل وأهلِ العراق الّذين هم جُندُه وبطانتُه وأنصارُه ؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامةَ الشّيخَين؛ إلّا القليل الشاذّ من خواصّ الشّيعة ، فلما كَتَب ذلك الكتابَ مع أبي مسلم الخولانيّ قصد أن يُغضِب عليّاً ويُحرِجَه ويحوجَه إذا قرأ ذكر أبي بكر، وأنه أفضل المسلمين ، إلى أن يَخلِط خطه في الجواب بكلمةٍ تقتضي طَعْناً في أبي بكر، فكان الجواب مُجَمْجَماً(٢) غيرَ بيّن ، ليس فيه تصريح بالتظليم لهما ، ولا التصريح ببراءتهما ، وتارةً يترحّم عليهما ، وتارةً يقول : أخذا حقي وقد تركته لهما ، فأشار عمرو بنُ العاص على معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأوّل ليستفزّا فيه عليّاً عليه السلام ويستخفّاه، ويحمِله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في تقبيح حالِه وتهجين مذهبه . وقال له عمرو : إنّ عليّاً عليه السلام رجل نَزِق تيّاه ، وما استطعَمت منه الكلامَ بمثل تقريظ أبي بكر وعمر ، فاكتب . فكتب كتاباً أنفذه إليه مع أبي أُمامة الباهليّ ، وهو من الصحابة ، بعد أن عزم على بعثه مع أبي الدَّرْداء . ونسخةُ الكتاب : من عبدِ الله معاوية بن أبي سُفيان إلى عليّ بن أبي طالب .

أما بعد ، فإنّ الله تعالى جَدُّه اصطفى محمداً عليه السلام لرسالته ، واختصّه بوحيه وتأديةِ شريعته ، فأنقذ به من العَماية ، وهَدَى به من الغَواية ، ثم قبضه إليه رشيداً حميداً، قد بَلّغ الشّرع ، ومَحَقَ الشِّرك ، وأخمَدَ نار الإفك،فأحسن الله جزاءه،وضاعَفَ عليه نِعمه وآلاءه ، ثم إنّ الله سبحانه اختصّ محمداً عليه السلام بأصحابٍ أيّدوه وآزروه ونصروه

---

(١) غمصه : اتهمه .

(٢) مجمجماً : غير واضح .

وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]؛ فكان أفضلهم مرتبة ، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة : الخليفة الأول ، الذى جمع الكلمة، ولم الدعوة، وقاتل أهلَ الرِّدّة ، ثم الخليفة الثانى الذى فتح الفتوح ، ومصّر الأمصار وأذلّ رقاب المشركين . ثم الخليفة الثالث المظلوم الذى نشر الملّة ، وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفية .

فلما استوثقَ الإسلام وضربَ بجِرانه عدوتَ عليه فبغيته الغوائل، ونصبت له المكايد، وضربتَ له بطنَ الأمر وظهرَه ، ودسستَ عليه ، وأغريتَ به ، وقعدتَ حيث استصرخك عن نصره ، وسألك أن تدركه قبل أن يمزّق فما أدركته ، وما يومُ المسلمين منك بواحد!

لقد حسدتَ أبا بكر والتويتَ عليه ، ورُمتَ إفسادَ أمره ، وقعدتَ فى بيتك ، واستغويتَ عصابةً من الناس حتى تأخروا عن بيعته ، ثم كرهتَ خلافةَ عمرَ وحسدتَه واستطلتَ مدّته ، وسُررتَ بقتله ، وأظهرتَ الشماتة بمصابه ؛ حتى إنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتلَ أبيه ، ثم لم تكن أشدّ منك حسداً لابن عمك عثمان ؛ نشرت مقابحه ، وطويتَ محاسنه ، وطعنتَ فى فقهه ، ثم فى دينه ، ثم فى سيرته ، ثم فى عقله؛ وأغريتَ به السفهاء من أصحابك وشيعتك ، حتى قتلوه بمحضر منك ، لا تدفع عنه بلسان ولا يد؛ وما من هؤلاء إلا مَنْ بغيتَ عليه ، وتلكأتَ فى بيعته ؛ حتى حُملتَ إليه قهراً ، تُساقُ بحزائم الاقتسار كما يُساقُ الفحل المخشوش ، ثم نهضتَ الآن تطلب الخلافة ، وقتلةُ عثمان خلصاؤك وسُجراؤك والمحدقون بك ، وتلك من أمانى النفوس ، وضلالاتِ الأهواء .

فدعِ اللَّجاجَ والعبث جانبا ، وادفع إلينا قتلةَ عثمان، وأعدِ الأمرَ شورى بين المسلمين ليتفقوا على مَنْ هو لله رِضاً . فلا بيعةَ لك فى أعناقنا ، ولا طاعةَ لك علينا، ولا عُتبَى لك

(١) سورة الفتح ٢٩ .

عندنا ، وليس لك ولأصحابك عندى إلّا السيف. والّذى لا إله إلّا هو لأطلبنّ قتلة عثمان أين كانوا ، وحيث كانوا ؛ حتى أقتلهم أو تنتحق رُوحى بالله .

فأمّا ما لا تزال تمنّ به من سابقتك وجهادك فإنّى وجــدتُ الله سبحانه يقول : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] . ولو نظرتَ فى حالِ نفسك لوجدتها أشدّ الأنفس امتنانا على الله بعملها ؛ وإذا كان الامتنان على السائل يُبطل أجرَ الصدقة ، فالامتنان على الله يُبطِل أجر الجهاد ، ويجعله ﴿ كَصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[2] .

• • •

قال النقيب أبو جعفر : فلما وصل هذا الكتاب إلى علىّ عليه السلام مع أبى أُمامة الباهلىّ ، كلّم أبا أُمامة بنحوٍ ممّا كلّم به أبا مسلم الخولانىّ ، وكتب معه هذا الجواب .

قال النقيب : وفى كتاب معاوية هذا ذِكْرُ لفظ الجمل المخشوش أو الفحل المخشوش ، لا فى الكتاب الواصل مع أبى مسلم ، وليس فى ذلك هذه اللفظة ، وإنّما فيه : «حسدتَ الخلفاء وبغيتَ عليهم ، عرفنا ذلك من نظرك الشزْر[3] ، وقولك الهُجْر[4] وتنفسك الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخلفاء » .

قال : وإنما كثيرٌ من الناس لا يعرفون الكتابين ؛ والمشهور عندهم كتابُ أبى مسلم فيجعلون هــذه اللفظة فيه ، والصحيح أنها فى كتاب أبى أُمامة ، ألا تراها عادت

---

(١) سورة الحجرات ١٧ .
(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .
(٣) يقال : شزره وإليه : نظر إليه بأحد شقيه ؛ أو هو نظر فيه إعراض .
(٤) الهجر (بضم فسكون) : القبيح من الكلام .

فى جوابه ولو كانت فى كتاب أبى مسلم لعادتْ فى جوابه !

انتهى كلامُ النقيب أبى جعفر .

• • •

ونحن الآن مبتدئون فى شرح ألفاظ الجواب المذكور .

قولُه : « فلقد خَبَأ لنا الدهرُ منك عجبا » ، موضعُ التعجُّب أنّ معاوية يُخبِر عليًّا عليه السلام باصطفاء الله تعالى محمدا وتشريفه له ، وتأييده له ؛ وهذا طريف لأنّه يجرى كإخبار زيدٍ عمرا عن حالِ عمرو ، إذ كان النبيُّ صلّى الله عليه وآله وعلىٌّ عليه السلام كالشىء الواحد . وخبأ مهموز ، والمصدرُ الخبْء ، ومنه الخابية ، وهى الخبء إلا أنهم تركوا همزَها ، والخبء أيضا والخبِىء على « فعيل » ما خُبِىء .

وبلاء الله تعالى : إنعامُه وإحسانُه .

وقولُه عليه السلام : « كناقلِ التمرِ إلى هَجَر » ، مَثَلٌ قديم . وهَجَر : اسم مدينة لا ينصرف للتعريف والتأنيث . وقيل : هو اسم مذكَّر مصروف ، وأصل المَثَل « كمُسْتَبْضِع تمرٍ إلى هَجَر[1] » ، والنسبة إليه هاجرِىٌّ على غير قياس ، وهى بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها ، قال الشاعر فى هذا المعنى :

أُهْــدِى له طُرَفَ الــكلامِ كما ... يُهْــدَى لِوالِى البَصْرة التَّمرُ

قولُه : « وداعى مسدِّده إلى النضال » ، أى معلِّمه الرَّمْىَ ، وهذا إشارة إلى قول القائل الأوّل :

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٥٢ ؛ قال أبو عبيد : هذا من الأمثال المبتذلة ومن قديمها ؛ وذلك أن هجر معدن التمر ؛ والمستبضع إليه مخطئ ؛ ويقال أيضاً : كمستبضع التمر إلى خيبر ؛ قال النابغة الجعدى :

وإنّ امرأً أهدى إليكَ قصيدةً ... كمستبضعٍ تمرًا إلى أرضِ خَيْبَرا

أعلّمه الرِّمايةَ كلَّ يومٍ ... فلمّا استدَّ ساعدُه رماني[1]

هكذا الرِّواية الصحيحة بالسين المهملة ، أى استقام ساعدُه على الرمى ، وسدّدتُ فلانا : علّمته النِّضالَ ، وسهمٌ سَديد : مُصيب ، ورمحٌ سديد ، أى قلَّ أن تخطئ طعنتُه ، وقد ظرُف القاضى الأرّجانيّ فى قوله لسديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنبارىّ كاتب الإنشاء :

إلى الذى نَصَب المكارمَ للوَرَى ... غَرَضا يَلُوح من المدى المتباعِدِ
نَثَل الأماثِلَ مِن كنانته فــمــا ... وَجدتْ يداه سوى سديدٍ واحدِ

ومن الأمثال فى هذا المعنى : « مَنْ كَنَك يا كُنَك »[2] ، ومنها : « أحسّك وتَروثُنى ! »[3] .

قوله عليه السلام : « وزعمتَ أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان » ، أى أبو بكر وعمر .

قوله عليه السلام : « فذكرتَ أمرا إن تمّ اعتزَلَك كله ، وإن نَقَص لم يلحَقْك ثَلْمه » ، مِن هذا المعنى قولُ الفرزدق لجرير ، وقد كان جريرٌ فى مهاجاته إياه يفخَر عليه بقيسِ عيلان ، فقد كانت لجرير فى قيس خُؤُولة ، يعيّره بأيّامهم على بنى تميم ، فلما قتل بنو تميم قُتيبة بن مسلم الباهلىّ بخراسان قال الفرزدق يفتخِر :

أتانى وأهــــلِي بالمدينة وقعةٌ ... لآل تميم أقعدتْ كلَّ قائمِ[4]

---

(١) استدّ : استقام ؛ والبيت ينسب لمعن بن أوس ، أو مالك بن فهم الأزدى ، أو عقيل بن علفة ؛ وبعده :

فَلاَ ظَفِرَتْ يَمِينُكَ حِينَ تَرْمِى ... وشَلَّتْ مِنْكَ حَامِلَةُ الْبَنَانِ

وانظر اللسان ٤ : ١٩١ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٣٣٣ ؛ قالوا : أول من قال ذلك حازم بن المنذر .

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٢٠٠ ؛ أراد : تردت على .

(٤) ديوانه ٨٥٣ .

كأنّ رءوس الناس إذ سَمِيموا بها مشدَّخة هاماتُهـــا بالأمائم
وما بين من لم يُؤْت سمعاً وطاعةً وبين تميم غـــير جزّ الحلاقم

ثم خرج إلى خِطاب جرير بعد أبيات تركنا ذكرها ، فقال :

أتغضبُ إنْ أُذْنا قُتيبة حُزَّتا جهاراً ولم تغضبْ لقتل ابن حازم!
وما منهما إلا نقلْنا دماغَـــه إلى الشام فوق الشاحجات الرّواسم
تذبذب فى المخلاة تحت بُطونها محذّفة الأذناب جُلْح المقادم
وما أنتَ من قيسٍ فتنبح دونها ولا مِنْ تميمٍ فى الرءوس الأعاظمِ
تخوَّفُنـــا أيامَ قيسٍ ولم تَدَعْ لعَيلانَ أنفاً مستقيمَ الخياشم
لقد شهدتْ قيسٌ فما كان نصرُها قتيبـــةَ إلّا عضّها بالأباهم

فقوله :

* وما أنتَ من قيس فتنْبح دونها *

هو معنى قولِ علىّ عليه السلام لمعاوية : « فدكرتَ أمْراً إن تمّ اعتزَلَك كلّه » ، وابن حازم المذكور فى الشعر هو عبد الله بنُ حازِم ، من بنى سُلَيم ، وسُلَيم من قَيْس عَيْلان ، وقتلته تميم أيضا ، وكان والىَ خُراسان .

قوله عليه السلام : « وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ » ، الرّواية المشهورةُ بالرّفع ، وقد رواها قوم بالنّصب ، فمن رفع احتجّ بقوله : وما أنت وبَيْتُ أبيكَ والفَخْر .

وبقوله :

* فما القيسىّ بعدكَ والفَخارُ *

ومن نصب فعلى تأويل « مالكَ والفاضِلَ » ، وفى ذلك معنى الفِعْل ، أى ماتصنع ، لأن

هذا الباب لا بدّ أن يتضمنَ الكلام فيه فِعْلا ، أو معنَى فعلٍ ، وأنشدوا :

* فما أنتَ والسَّيْرَ في مَتْلَفٍ[1] .

والرفع عند النحويّين أولى .

ثم قال : « وما للطُّلقاء وأبناء الطُّلَقاء والتمييزَ » النصبُ هاهنا لا غير ، لأجل اللام في الطلقاء .

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ، هذا الكلامُ يتضمّن مايقول من يطعن في السَّلف ، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنكرَ على معاوية تعرّضَه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين ، ولم يذكر معاوية إلّا المفاضَلة بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر ، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهما من المهاجرين الأوّلين ومن ذوِي الدّرجات والطّبقات التي اشتبهَ الحالُ بينهما وبينه عليه السلام في أيّ الرجال منهم أفضل ، وأنّ قَدْرَ معاوية يصغُر أن يدخل نفسَه في مثل ذلك شهادةٌ قاطعةٌ على علوّ شأنهما ، وعظم منزلتهما .

قوله عليه السلام : « هيهات ، لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها » هذا مَثَلٌ يضرَب لمن يُدخل نفسه بين قوم ليس له أن يَدخُل بينهم ؛ وأصله القِداح من عودٍ واحد يُجعَل فيها قِدْح من غير ذلك الخشَب ، فيصوّت بينها إذا أرادها المفيض ، فذلك الصوت هو حنينُه .

قوله « وطفِق يحكُم فيها مَن عليه الحكم لها » ، أى وطفِق يحكُم في هذه القصّة

---

(١) لأسامة بن الحارث الهذلي ؛ وبقيته :

* يُعبِّر بالذِّكْرِ الضابِطِ *

وانظر ديوان الهذليين ٢ : ١٩٥ .

أو فى هذه القضيّة مَنْ يجب أن يكون الحكْمُ لها عليه لا له فيها ؛ ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطّبقات .

ثم قال : « ألا ترْبَع أيّها الإنسان على ظلْعك ! » أى ألا ترْفُق بنفسك وتكفّها، ولا تحمل عليها مالا تطيقه ، والظلْع : مصدرُ ظَلَع البعيرُ يظلَع أى غمز فى مشْيه .

قوله : « وتعرف قُصورَ ذرْعك » ، أصل الذرْع بَسْط اليد ؛ يقال : ضِقتُ به ذرْعا : أى ضاق ذرْعى به . فنقلوا الاسمَ من الفاعلية فجعلوه منصوبا على التمييز ؛ كقولهم :طبت به نفسا .

قوله : « وتتأخّر حيث أخّرك القَدر » ، مِثل قولك: ضع نفسَك حيث وضعَها الله؛ يقال ذلك لمنْ يرفع نفسَه فوق استحقاقه .

ثم قال : « فما عليك غَلبة المغلوب، ولا لك ظفرُ الظّافر » ، يقول : وما الذى أدخلكَ بينى وبين أبى بكر وعمرَ ، وأنتَ من بنى أميّة ، لستَ هاشميّا ولا تيميّا ولاعدويّا هذا فيما يرجع إلى أنسابنا ، ولستَ مُهاجِراً ولا ذا قَدَم فى الإسلام فتزاحِمَ المهاجرين وأربابَ السّوابق بأعمالِك واجتهادك ، فإذَنْ لا يضرّك غَلَبة الغالب منّا ولا يسرّك ظفر الظافر . ويُروَى أنّ مروان بنَ الحكَم كان يُنشِد يوم مرْج راهط والرءوس تُنْدَر عن كواهلها بينه وبين الضّحاك بن قيس الفهْرىّ :

وما ضرّهم غـيرُ حَيْنِ النفو س أىّ غلامَىْ قُرَيشٍ غلَبْ

قوله عليه السلام : « وإنّك لذهاب فى التّيه ، روّاغ عن القَصْد » ، يحتمل قوله عليه السلام فى التّيه معنَيَيْن : أحدهما بمعنى الكِبْر ، والآخر التّيهَ من قولك : تاه فلان فى البيداء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنها مُحرّمة عليهم أربعين سَنةً يتيهُون فى الأرض﴾[1] ؛ وهذا الثانى أحسنُ

---

(١) سورة المائدة ٢٦ .

يقول : إنك شديد الإيغال فى الضلال . و « ذهّاب » فعّال ؛ للتكثير ، ويقال : أرض متيهة ، مِثلُ معيشةٍ ، أى يُتاهُ فيها .

قال عليه السلام : « روّاغ عن القَصْد » ، أى تترك مايلزمك فعلُه وتعدل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصحابة ، وما جرى بعد موت النبىّ صلى الله عليه وآله ، ونحن إلى الكلام فى غير هذا أحوَج إلى الكلام فى البيعة وحَقْن الدِّماء والدخول تحت طاعةِ الإمام .

ثم قال : « ألا تَرَى غير مخبِرٍ لك ، ولكن بنعمة اللهِ أحدِّث » ، أى لست عندى أهْلاً لأن أخبرك بذلك أيضا ، فإنك تعلمه ، ومن يَعلم الشىء لايَجوزُ أن يُخبَر به ؛ ولكنْ أذكرُ ذلك لأنّه تحدُّثٌ بنعمةِ الله علينا ، وقد أُمِرْنا بأن نحدِّث بنعمتِه سبحانه .

قوله عليه السلام : « إنّ قوماً استُشهِدوا فى سبيل الله » ، المراد هاهنا سيّد الشُّهداء حَمْزة رضى الله عنه ، وينبغى أن يُحمَل قولُ النبىّ صلّى الله عليه وآله فيه إنه سيّد الشهداء على أنه سيّد الشهداء فى حياة النبىّ صلّى الله عليه وآله ؛ لأنّ عليّاً عليه السلام مات شهيداً ؛ ولا يجوز أن يقال : حمزة سيّده ، بل هو سيّد المسلمين كلِّهم ، ولا خلافَ بين أصحابنا رحمهم الله أنه أفضل من حمزةَ وجعفر رضى الله عنهما ، وقد تقدّم ذكر التكبير الذى كبّره رسولُ الله صلّى الله عليه وآله على حمزةَ فى قصّة أُحُد .

قوله عليه السلام : « ولكلٍّ فَضْل » ، أى ولكلّ واحد من هؤلاء فَضْل لا يُجْحَد .

قوله : « أوَلا ترى أنّ قوما قُطِعت أيديهم » ، هذا إشارة إلى جعفر ؛ وقد تقدّم ذلك فى قصّة مُؤْتة .

قوله : « ولولا مانهى الله عنه » ، هذا إشارة إلى نفسه عليه السلام .

قوله : « ولا تمجُّها آذانُ السامعين » أى لا تقذفها ، يقال : مَجَّ الرجلُ من فيه ، أى قذفه.

قوله عليه السلام « فدع عنك من مالت به الرَّمِيَّة » ، يقال للصيد : يرمى هذه الرمية ، وهى « فعيلة » بمعنى مفعولة ، والأصل فى مثلها ألا تلحقها الهاء ، نحو كف خضيب ، وعين كحيل ، إلا أنهم أجروها مجرى الأسماء لا النعوت ، كالقصيدة والقطيعة .

والمعنى : دَعْ ذكرَ من مالَ إلى الدنيا ومالتْ به ، أى أمالته إليها .

فإن قلتَ : فهل هذا إشارة إلى أبى بكر وعمرَ ؟ قلت : يَنبغى أن ينزّه أميرُ المؤمنين عليه السلام عن ذلك ، وأن تُصرَف هذه الكلمة إلى عثمانَ ، لأنّ معاويةَ ذكرَه فى كتابه وقد أوردْناه ، وإذا أنصف الإنسانُ من نفسه علِم أنه عليه السلام لم يكن يذكرهما بما يذكر به عثمان ، فإنّ الحال بينه وبين عثمانَ كانت مضطربةً جدّاً

قال عليه السلام : « فإن صنائع ربِّنا ، والناسُ بعدُ صنائعُ لنا » ، هذا كلام عظيم ، عالٍ على الكلام ، ومعناه عالٍ على المعانى ، وصَنِيعة الملِك من يصطنِعهُ الملك ويرفع قدرَه . يقول : ليس لأحد من البشرَ علينا نعمة ، بل اللهُ تعالى هو الذى أنعم علينا ، فليس بيننا وبينه واسطة ، والناس بأسرِهم صنائعنا ؛ فنحن الواسطةُ بينهم وبين الله تعالى ، وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنهم عبيدُ الله ، وأنّ الناس عبيدهم .

ثم قال : « لم يمنعْنا قديم عزّنا ، وعادىّ طوْلنا » ؛ الطوْل : الفضْل ، وعادِىّ أى قديم ، بئرٌ عاديّة .

قوله : « على قومِك أن خلطْناكم بأنفسِنا فنكَحنا وأنكَحْنا فعل الأكفاء ، ولستم هناك » ؛ يقول : تزوّجْنا فيكم وتزوّجتم فينا كما يَفعل الأكفاء ، ولستم أكفاءنا . وينبغى أن يُحمل قوله : « قديم وعادِىّ » على مجازه لا على حقيقته ، لأن بنى هاشم وبنى أميّة لم يَفترقا فى الشرف إلّا منذ نشأ هاشم بنُ عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه ، ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس وعُرف بمثل ذلك ، وصار لهذا بنُون ولهذا بنون ، وادّعى كلٌّ من الفريقين

أنه أشرف بالفِعال من الآخر ، ثم لم تكن المدّة بين نشْء هاشم وإظهار محمد صلى الله عليه وآله الدّعوة إلا نحو تسعين سنة ، ومثل هذه المدّة القصيرة لا يقال فيها : « قديمٌ عزّنا وعادِيّ طَوْلِنا » ، فيجب أن يُحمل اللفظُ على مَجازِه ، لأنّ الأفعال الجميلة كما تكون عاديّةً بطُول المدّة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر ، وإن كانت المدّة قصيرةً . ولفظة قديم تَرِد ولا يُراد بها قِدَم الزّمان ، بل من قولهم : لفلانٍ قَدَمُ صدْق وقديمُ أثَر ، أى سابقة حَسَنة .

* * *

[مناكحات بنى هاشم و بنى عبد شمس]

وينبغى أن نذكر ها هنا مُناكحات بنى هاشم وبَنى عبدِ شمس . زوّج رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابنتيه رُقيّة وأمَّ كُلثوم من عثمانَ بن عفّان بن أبى العاص ، وزوّج ابنتَه زينب من أبى العاص بن الرّبيع بن عبد العُزّى بن عبدِ شمس فى الجاهليّة ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطّلب أمّ جميل بنت حرْب بن أمية فى الجاهلية ، وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله أمّ حبيبة بنت أبى سُفْيان بن حرْب ، وتزوّج عبدُ الله بن عمرو بن عثمان فاطمةَ بنتَ الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

وَرَوَى شيخنا أبو عثمانَ عن إسحاق بن عيسى بن علىّ بن عبد الله بنِ العبّاس قال : قلتُ للمنصور أبى جعفر : مَنْ أكفاؤنا ؟ فقال : أعداؤنا ، فقلت : مَن هُم ؟ فقال : بنو أميّةَ .

وقال إسحاق بن سليمان بن على : قلتُ للعبّاس بنِ محمّد : إذا اتّسَعْنا من البنات ، وضِقنا من البَنين ، وخفْنا بوارَ الأيامَى فإلى مَن تُخرِجُنّ من قبائل قريش ؟ فأنشدَنى :

عبدُ شمسٍ كان يَتْلو هاشماً　　وهُما بعدُ لأمٍّ ولأبْ

فعرفتُ ما أراد وسكتُّ .

وَرَوى أيوب بنُ جعفر بن سليمان ، قال : سألتُ الرشيدَ عن ذلك فقال : زوّج النبيّ صلى الله عليه وآله بنى عبدِ شمس فأحمدَ صِهرَهم ، وقال : « ما ذممْنا من صِهرِ أبي العاص بن الربيع » .

قال شيخنا أبو عثمان : ولما ماتت الابنتان تحتَ عثمان قال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه : « ما تنتظرون بعثمان ، ألا أبو أيّم ، ألا أخو أيّم ؟ زوّجته ابنتين ، ولو أن عندى ثالثة لفعلتُ » . قال : ولذلك سمّىَ ذا النُّورَين .

* * *

ثم قال عليه السلام : « وأنَّى يكون ذلك ! » ، أى كيف يكون شرفكم كشرفنا ، ومنّا النبيّ ومنكم المكذّب ـ يعنى أبا سفيان بن حرب ، كان عدوّ رسول الله والمكذّبَ له والمُجلبَ عليه ـ وهؤلاء ثلاثة : بإزاء أبي سفيان رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعاويةُ بإزاء علىّ عليه السلام ، ويزيدُ بإزاء الحسين عليه السلام ؛ بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل .

قال : « ومنّا أسدُ الله » ، يعنى حمزة ، « ومنكم أسدُ الأحلاف » ، يعنى عُتْبة ابن ربيعة ، وقد تقدّم شرحُ ذلك فى قصّة بدر .

وقال الراوندىّ : المكذّب من كان يكذّب رسولَ الله صلّى الله عليه وآله عنادا من قريش ، وأسد الأحلاف : أسدُ بنُ عبد العزّى ، قال : لأنّ بنى أسد بن عبد العزّى كانوا أحدَ البطون الّذين اجتمعوا فى حِلْف المطيّبين ، وهم بنو أسَد بن عبد العزّى وبنو عبد مَناف ، وبنو تَيم بن مرّة ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر . وهذا كلام طريف جدا ، لأنه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبيّ صلى الله عليه وآله مكذّب

من بنى عبد شمس ، فقال : للمكذب من كذّب النبىّ صلّى الله عليه وآله من قريش عنادا ، وليس كلُّ من كذّبه عليه السلام من قريش يُميّز معاوية به . ثم قال : أسد الأحلاف أسد بن عبد العزّى ؛ وأىّ عارٍ يلزم معاويةَ من ذلك ، ثم إنّ بنى عبد مناف كانوا فى هذا الحلف وعلىّ ومعاوية من بنى عبد مناف ، ولكنّ الراونديّ يظلم نفسه بتعرّضه لما لا يعلمه .

قوله : «ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة » ، يعنى حسنا وحسينا عليهما السلام، «ومنكم صبية النار » ، هى الكلمة التى قالها النبى صلّى الله عليه وآله لعقبة بن أبى معيط حين قتله صبراً يوم بدر ، وقد قال كالمستعطف له عليه السلام : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار . وعقبة بن أبى معيط من بنى عبد شمس . ولم يعلم الراونديّ ما المراد بهذه الكلمة ، فقال : صبيةُ النار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ ، ولما أخبر النبى صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الكلمة كانوا صبية ، ثم ترعرعوا واختاروا الكفر ، ولا شبهة أنّ الراونديّ قد كان يعثّر من خاطره ما خطر له .

قال : قوله عليه السلام : « ومنّا خير نساء العالمين » ، يعنى فاطمةَ عليها السلام، نصّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله على ذلك ؛ لا خلاف فيه .

« ومنكم حمّالة الحطب » ، هى أم جميل بنت حرب بن أميّة ، امرأةُ أبى لهب الذى ورد نصُّ القرآن فيها بما ورد .

قوله : « فى كثير مما لنا وعليكم » ، أى أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئاً كثيراً ، ولكنى أكتفى بما ذكرت .

فإن قلت : فبماذا يتعلّق « فى » فى قوله « فى كثير » ؟ قلتُ : بمحذوف تقديرُه : هذا الكلام داخلٌ فى جملة كلامٍ كثيرٍ تتضمّن مدحنا وعليكم .

قولُه عليه السلام : « فإسلامُنا ماقد سُمِع ، وجاهليّتنا لا تُدفَع » ، كلامٌ قد تعلّق به

بعضُ من يتعصّب للأموية . وقال : لو كانت جاهليّة بنى هاشم فى الشّرف كإسلامهم لعدّ من جاهليّتهم حَسب ماعدّ من فضيلتهم فى الإسلام .

* * *

[فضل بنى هاشم على بنى عبد شمس]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع فضلَ هاشم على عبدِ شمس فى الجاهليّة ، وقد يمتزج بذلك بعضُ مايمتازون به فى الإسلام أيضا ، فإنّ استقصاءه فى الإسلام كثير،لأنّه لايمكن جَحْد ذلك ، وكيف والإسلامُ كلّه عبارةٌ عن محمّد صلّى الله عليه وآله ، وهو هاشمىّ ! ويدْخُل فى ضِمن ذلك مايحتجّ به الأمويّة أيضا ، فنقول : إنّ شيخنا أباعثمان قال : إنّ أشرف خصال قريش فى الجاهليّة اللواء ، والنّدوة ، والسّقاية ، والرِّفادة ، وزَمزم ، والحجابة وهذه الخصال مقسومةٌ فى الجاهليّة لبنى هاشم وعبدالدار وعبد العُزّى دون بنى عبدشمس. قال : عَلَى أنّ مُعظَم ذلك صار شرفه فى الإسلام إلى بنى هاشم ، لأنّ النبى صلى الله عليه وآله لمّا ملك مَكّةَ صار مِفتاح الكعبة بيدِه ، فدَفَعه إلى عثمانَ بن طلحة،فالشرف راجعٌ إلى مَن مَلَك المفتاح ، لا إلى من دُفع إليه ، وكذلك دفع صلّى الله عليه وآله اللواء إلى مصعب بن عُمَير فالّذى دفع اللواءإليه وأخذه مُصعَب من يديه أحقّ بشرفه وأولى بمجده وشرفُه راجعٌ إلى رهطِه من بنى هاشم .

قال : وكان محمد بن عيسى المخزومىُّ أميرا على اليَمَن ، فهجاه أُبَىُّ بن مُدلج فقال :

قل لابن عيسى المستغيـ ـثِ من الشُّهولةِ بالوُعورَهْ
الناطقِ العَوْراء فى جُلِّ الأمور بلا بصيرهْ
وَلَدَ المغـيرةُ تسعـةً كانوا صَناديدَ العشيرهْ[1]

---

(١) الصناديد : الشجعان .

وأبوكَ عاشِرهم كما نبتتْ مع النخــل الشميرهْ
إن النبوّة والخـــلا فة والسّقاية وللّشــورهْ
فى غيركم فاكفُفْ إلـ ـكَ يداً مجذمةً قصــيرهْ

قال : فأبرَى له شاعرٌ من وَلَد كُرَيز بن حَبيب بن عبد شمس ، كان مع محمّد بن عيسى باليمن يهجُو عنه ابنَ مدلج فى كلمة له طويلة ، قال فيها :

لا لولا يُعَدُّ بابنَ كُرَيزٍ لا ولا رِفْد بيتـــه ذى السناء
لاحجابٌ وليس فيكم سوى الكُـ ـرِ وبُغضِ النبىّ والشهـــداء
بين حاكٍ ومُخلج وطَريدٍ وقتيلٍ يلعنه أهــــلُ السماء
ولهُمْ زمزمٌ كذاك وجبرِ لُ ومحــدُ السّقاية الغرّاء

قال شيخنا أبو عثمان : فالشهداء علىٌّ وحمزة ، وجعفر ، والحاكى والمخلج هو الحكَم ابن أبى العاص ، كان يحكى مِشيةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فالتفت يوما فرآه، فدعا عليه ، فلم يزل مخلّج المِشْية عقوبةً من الله تعالى[1] ، والطريد اثنان : الحكم بنُ أبى العاص ، ومعاويةُ بن المُغيرة بن أبى العص ، وهما جدّا عبدِ الملك بن مَرْوان من قِبَل أمّه وأبيه .

وكان النبى صلى الله عليه وآله طرَدَ معاويةَ بنَ المغيرة هذا من المدينة وأجّله ثلاثا فحيّره الله ، ولم يزل يتردّد فى ضلاله حتى بَعث فى أثره عليّا عليه السلام وعمّارا فقتلاه . فأمّا القتلى فكثير ، نحو شَيْبة وعُتْبة ابنى ربيعة ، والوليدُ بن عُتْبة ، وحنظلة بن أبى سُفْيان وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، والعاصُ بنُ سعيد بن أمية ، ومعاوية بنُ المغيرة ، وغيرُهم .

قال أبو عثمان : وكان اسمُ هاشمٍ عَمْرا ، وهاشمٌ لَقَب ، وكان أيضا يقال له القَمَر ، وفى ذلك يقول مطرود الخُزاعىّ :

(١) كذا فى الأصول ، وفى نهاية ابن الأثير : « كان يجلس خلف النبى عليه السلام ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات . أى يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبى عليه السلام » .

إلى القَمَرِ السارِى المُنيـــر دعوتُه ومُطعِمِهمْ فى الأزْلِ من قَمَعِ الجُزْرِ[1]

قال : ذلك فى شىء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم ، وقال ابنُ الزِّبَعْرَى :

كانت قريشٌ بَيْضَــةً فتفقَّأَتْ فالمُحُّ خالِصُه لعبدِ مَنَافِ
الرائِشُون وليس يُوجَــد رائشٌ والقائلون هَـــلُمَّ للأضيافِ
عَمْرو العُلَى هَشَم الثَّرِيدَ لقَوْمِه ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُون عِجافُ[2]

فهمْ كما تَرَى أهلَ مَكَّة بالأَزْل والعُجْف ، وجعله الّذى هَشَم لهم الخُبْز ثريداً ، فغلبَ هذا اللقبُ على اسمه حتى صارَ لا يُعرَف إلّا به ، وليس لعبدِ شمس لقبٌ كريم ، ولا اشتُقّ له من صالح أعماله اسمٌ شريف ، ولم يكن لعبدِ شمس ابن يأخذ بضبْعه ، ويرفع من قَدْره ، ويزيد فى ذكره ، ولهاشم عبدُ المطلب سيِّد الوادى غير مدافَع ، أجمَلُ الناس جمالا ، وأظهرُهم جودًا ، وأكملهم كمالا ، وهو صاحب الفِيل ، والطير الأبابيل ، وصاحبُ زمزم ، وساقى الحجيج ، وولَدَ عبدُ شمس أميّة بن عبد شمس وأميّة فى نفسه ليس هناك ، وإنما ذُكر بأولاده ولا لَقَبَ له ، ولعبد المطّلب لقبٌ شهيرٌ واسمٌ شريف : شَيْبَة الحمد ، قال مطرودٌ الخزاعىّ فى مدحه :

يا شيبةَ الحمــدِ الّذى تُثْنَى له أيّامُه من خيرِ ذُخْرِ الذاخرِ
المجدُ ما حَجّتْ قُرَيشٌ بيتَــه ودعا هُدَيلٌ فوقَ غُصْنٍ ناضر
واللهِ لا أنساكمُ وفعالَــكمْ حتّى أغيّبَ فى سَفاةِ القابرِ

وقال حذافة بنُ غانم العدوىّ وهو يمدح أبا لَهَب ، ويُوصى ابنه خارجة بن حُذافة بالانتماء إلى بنى هاشم :

أخارجُ إمّا أهلِكَنَّ فلا تزَلْ لهم شاكرا حتّى تُغيَّبَ فى القبرِ

(١) القمع بالتحريك : جمع قمعة ، وهى أعلى السنام والجزر (بضمتين) وسكن هنا للشعر : جمع جزور ، وهى الناقة .

(٢) فى البيت إقواء .

بنى شيبة الحمد الكريم فِعالُه ... يضوء ظلامَ الليل كالقمر البدرِ
لساقِ الحجيج ثم للشيخ هاشمٍ ... وعبدِ منافٍ ذلك السيدُ الغَمْرُ
أبو عُتْبــةَ المُلقى إلىّ جواره ... أغرُّ هجانُ اللّون من نفرٍ غُرّ
أبوكم قُصَيٌّ كان يُدعى مجمّعا ... به جمّع اللهُ القبائلَ من فِهرِ

فأبو عُتْبة هو أبو لَهَب ، عبد العُزّى بن عبد المطلب بن هاشم ، وابناه عُتْبة وعُتَيبة .

وقال العَبْدِيّ حين احتفل فى الجاهليّة فلم يترك :

لا ترَى فى الناس حيّا مِثلَنا ... ماخلا أولادَ عبد المطلبْ

وإنّما شرُف عبد شمس بأبيه عبدِ مناف بن قصىّ وبنى ابنه أميّة بن عبد شمس ، وهاشم شرُف بنفسه وبأبيه عبدِ مناف ، وبابنه عبد المطلب ، والأمر فى هذا بيّن ، وهو كما أوضحه الشاعر فى قوله :

إنما عبدُ منافٍ جوهرٌ ... زيّنَ الجوهرَ عبدُ المطّلِبْ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول : إنّ عبد شمس لم يكن شريفا فى نفسه ،ولكنّ الشرف يتفاضل ، وقد أعطى اللهُ عبدَ المطّلب فى زمانه ، وأجرَى على يديه ، وأظهر من كرامته مالا يُعرف مثلُه إلا لنبيّ مُرسَل ، وإنّ فى كلامه لأبْرَهَة صاحب الفيل وتوعّده إياه بربّ الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعبيده بحبْس الفيل،وقتلِ أصحابه بالطّير الأبابيل وحجارة السِّجّيل حتى تُرِكوا كالعَصفِ المأكول ـ لأعجبُ البُرهانات،وأسنَى الكرامات، وإنّما كان ذلك إرهاصا لنبوّة النبي صلى الله عليه وآله،وتأسيسا لما يريده الله به من الكرامة، وليجعل ذلك البهاء متقدّما له ، ومردودا عليه ، وليكون أشهرَ فى الآفاق ، وأجلّ فى صدور الفراعنة والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يَقهرَ المعاند ، ويَكشف غباوة الجاهل . وبعد ، فمن يُباهِى ويُناضِل رجالا ولدوا محمّدا صلى الله عليه وآله ، ولو هزلنا

ما أكرمه الله به من النبوّة حتى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشِيَمه لما وفى به بَشَر ، ولا عَدَله شيء ، ولو شئنا أن نذكرُ ما أعطى الله به عبد المطّلب من تفجّر العيون وينابيع الماء من تحت كَلْكَل بعيره وأخفافه بالأرض القَسِيّ [1] ، وما أعطى من المساهمة وعند المقارعة من الأمور العجيبة ، والخصال البائنة ، لقُلْنا ، ولكنّا أحببْنا ألّا نحتجّ عليكم إلّا بالموجود في القرآن الحكيم ، والمشهور في الشعر القديم ، الظاهر على ألسنة الخاصّة والعامّة ورُواة الأخبار وحُمّال الآثار .

قال : وممّا هو مذكورٌ في القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ ، وقد أجمعت الرُّواة على أنّ أوّل من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف ، فلمّا مات قام أخوه المطلب مقامَه ، فلما مات قام عبدُ شمسٍ مَقامَه ، فلمّا مات قام نوفل مَقامَه — وكان أصغرهم . والإيلاف هو أنّ هاشما كان رجلا كثيرَ السفر والتجارة ، فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصّيف إلى الشام ، وشَرَك في تجارته رؤساءَ القبائل من العرب ومن ملوك اليَمَن والشام ، نحو العباهلة باليمن ، واليَكْسُوم من بلاد الحبشة ، ونحو ملوك الرّوم بالشام ، فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح ، وساق لهم إبلا مع إبله ، فكفاهم مَؤُونة الأسفار ، على أن يكفوه مؤونة الأعداء في طريقه ومُنصرَفه ، فكان في ذلك صلاحٌ عامٌّ للفريقين ، وكان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا ؛ فأخصبتْ قريش بذلك ، وحملتْ معه أموالَها ، وأتاها الخيرُ من البلاد السافلة والعالية ، وحَسُنَتْ حالُها ، وطاب عَيْشُها . قال : وقد ذكر حديثَ الإيلاف الحارثُ بنُ الحنش السُّلَميّ ، وهو خالُ هاشمٍ والمطّلب وعبدِ شمس ، فقال :

إنّ أخِيّ هاشما ليس أخا واحدِ
الآخِذَ الإيلاف والـ ـقائم للقاعدِ

قال أبو عثمان : وقيل : إنّ تفسير قوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو خوف من كان هؤلاء الإخوة يمرّون به من القبائل والأعداء وهم مُغْتَرِبون ومعهم

[1] الأرض القسي : التي لا تنبت شيئا .

الأموال ؛ وهذا مافسَّرنا به الإيلاف آنفا ؛ وقد فسّره قومٌ بغير ذلك ، قالوا : إنّ هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائبَ يؤدُّونها إليه ليحميَ بها أهلَ مكّة ، فإنّ ذُؤبان العرب وصعاليكَ الأحياء وأصحاب الغارات وطُلّاب الطوائل كانوا لا يؤمَنون على الحرَم ، لا سيّما وناس من العرَب كانوا لا يرَوْن للحرَم حُرْمة ، ولا للشهر الحرام قدْرا ، مثل طيّىء وخَثعم وقُضاعة وبعض بلحارث بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإنّ هاشما كان القائم به دونَ غيره من إخوته .

* * *

قال أبو عثمان : ثم حِلف الفُضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرَفُ حلف كان في العرب كلِّها ، وأكرمُ عَقْد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبلَ الإسلام لم يكن لبنى عبد شمس فيه نصيب. قال النبى صلّى الله عليه وآله وهو يَذكرُ حِلفَ الفُضول : «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلفا لو دُعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبتُ» . ويكفى في جلالته وشرفه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله شهِدَه وهو غلام ، وكان عتبةُ بنُ ربيعة يقول : لو أنّ رجلا خرج ممّا عليه قومُه لدخلتُ في حِلْف الفضول ، لما أرَى من كماله وشرفه ، ولِما أعلم من قدْره وفضيلته .

قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلةِ أهله سمّيَ حلفَ الفضول ، وسُمّيتْ تلك القبائل الفضول ، فكان هذا الحلف في بنى هاشم ، وبنى المطّلب ، وبنى أسَد بن عبد العُزّى وبنى زُهرة ، وبنى تيم بن مرّة ، تعاقَدوا في دار ابن جُدْعان في شهرٍ حرام قياما يتماسحون بأكفّهم صُعُدا ليكونُنّ مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقّه مابَلّ بحرٌ صُوفة ، وفي التآسى في المعاش والتساهم بالمال . وكانت التّسمية في هذا الحلف للزّبير بن عبد المطّلب ولعبد الله بن جُدعان ، أما ابن جُدْعان فلأنّ الحلف عقِد في داره ؛ وأمّا الزبير فلأنّه هو الّذى نهض فيه ، ودعا إليه ، وحثّ عليه ، وهو الّذى سمّاه حِلفَ الفُضول ، وذلك لأنّه لما سمع الزّبيدى المظلوم

ثمن سِلعته قد أوْفَى على أبي قُبَيْس قبلَ طلوع الشمس رافعا عقيرته وقريش في أنديتها قائلا :

يالَلرّجال لمظلـــوم بضاعتُه ببطن مكّة نائى الحيّ والنفرِ
إنّ الحرامَ لمن تمّت حَرامتُه ولا حَرامَ لثوْبَيْ لابسِ الغدرِ

فحمى وحَلَف ليعقدنّ حِلفا بينه وبين بطون من قريش يَمنعون القويَّ من ظُلم الضّعيف، والقاطنَ من عنف الغريب، ثم قال :

حلفتُ لنعقِدنْ حِلفا عليهمْ وإن كنّا جميعا أهـلَ دارِ
نُسمّيه الفضولَ إذا عقَـدنا يعزُّ به الغريبُ لذى الجوارِ
ويعلَمَ مَنْ حوالى البيت أنّا أُباةُ الضَّيْمِ نهجرُ كلَّ عارِ

فبنو هاشم هم الّذين سمّوا ذلك الحلف حِلفَ الفضول، وهم كانوا سببه، والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له، والشاهدة لأمره، فما ظنّك بمن شهده ولم يقمْ بأمره!

قال أبو عثمان : وكان الزبيرُ بن عبد المطلب شجاعا أبيًّا، وجميلا بهيًّا، وكان خطيبا شاعرا، وسيّدا جوادا، وهو الّذى يقول :

ولولا الحُسُ لم يَلْبَس رجالٌ ثيابَ أعزّة حتى يموتوا
ثيابُهمُ شِمالٌ أو عَباء بها دنَسٌ كما دَنِس الحَميتُ[(١)]
ولكنّا خُلِقنا إذْ خُلِقْنا لنا الحِبَراتُ والمسكُ الفتيتُ[(٢)]
وكأسٌ لو تُبين لهم كلاما لقالتْ إنما لهمُ سُبيتُ[(٣)]
تُبين لنا القذى إن كان فيها رصينُ الحلم يشربها هَبيتُ[(٤)]

---

(١) الحميت، كأمير : الزق الصغير يجعل فيه السمن .
(٢) الحبرات، بكسر ففتح : ضرب من برود اليمن . والفتيت والمفتوت بمعنى .
(٣) سبيت : جلبت .	(٤) الهبيت : الجبان الذاهل .

ويقطع نخوةَ المختالِ عنّا رقيقُ الحدّ ضربتُه صَموتُ
بكفِّ مجرَّبٍ لا عيبَ فيه إذا لقيَ الكريهةَ يستميتُ

قال : والزّبير هو الذى يقول :

وأسحمَ من راح العراقِ مملأٍ محيطٍ عليه الجيشُ جلدٍ مرَائرُهْ
صَبحتُ به طَلْقا يَراحُ إلى الندى إذا ما انتشى لم يحتصره معاقرُهْ
صعيف بحث الكأس قبض بنانه كليل على جلد النديم أظافرُهْ

قال : وبنو هاشم هم الذين ردّوا على الزّبيدى ثمنَ بضاعته ، وكانت عند العاص ابنِ وائل ، وأخذوا للبارقيّ ثمنَ سلعته من أُبَيّ بن خلف الجمحيّ ، وفى ذلك يقول البارقيّ :

ويأبى لكم حِلفُ الفضول ظلامتى بنى جمحٍ والحقّ يؤخذ بالغَصْبِ

وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتول الحسلة بنت التاجر الخثعمى ، وكان كابره عليها حين رأى جمالها ، وفى ذلك يقول نبيه بن الحجاج :

وحشيتُ الفضولَ حين أتونى قد أراني ولا أخافُ الفضولاَ
إنى والّذى يَحُجّ له شُمْـ ـطُ إيادٍ وهلّلوا تهليـــلا
لبراء منّى قُتيـــلة يالـلّـ ـناس هل يتبعون إلّا القتولا !

وفيها أيضا يقول :

لولا الفُضـــولُ وأنه لا أمنَ من عُروائها[1]
لدنوتُ من أبياتهـــا ولطُفتُ حولَ خِبائهــا[2]

---

(١) العرواء ، كالغلواء : قرة الحمى ومسها فى أول رعدتها .
(٢) الخباء ككساء ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

فى كلمته التى يقول فيها :

حَىٌّ النُّخَيلةَ إذ نأت منّا على عُدَوائها
لا بالفراق تُنيلنا شيئاً ولا بلقائها
حلّتْ بمكّةَ حَلّةً فى مَشْيها ووطائها

فى رجالٍ كثير انتزعوا منهم الظلامات ، ولم يكن يظلم بمكة إلا رجالٌ أقوياء ، ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يَعُدّ أحدٌ مثلها ، ولا يأتى بما يتعلق بها ، وذلك أنّ رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بنى عامر متساندين ، فكان حربُ بنُ أمية على بنى عبد شمس ، وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب على بنى هاشم ، وكان عبدُالله بن جُدعان على بنى تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بنى مخزوم ، وكان على كلّ قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون فى التساند ، ولم يحقق ولحدٌ منهم الرئاسة على الجميع ، ثم آب هاشمٌ بما لا تبلغهُ يدُ متناول ، ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبىّ صلّى الله عليه وآله قال : شهدتُ الفجّار وأنا غلام ، فكنتُ أنبُل فيه على عمومتى ، فنفى مُقامه عليه السلام أن تكون قريش هى التى فجرتْ ، فسُمّيت تلك الحربُ حربَ الفِجار ، وثبت أن الفجور إنما كان من حاربهم ، وصاروا بيمنه وبركته ولما يريد اللهُ تعالى من إعزاز أمره وإعظامه الغالبين السالبين ، ولم يكن الله لِيُشهده فجرةً ولا غَدرة ، فصار مشهده نَصْرا ، وموضعه فيهم حجّةً ودليلا .

قال أبو عثمان : وشرفُ هاشم متّصل ، من حيث عَدَدت كان الشرفُ معك كابراً عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، وإنّ الحكم بن أبى العاص كان عادياً فى الأعلام ، ولم يكن له سناء فى الجاهلية .

وأما أميّة فلم يكن فى نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضعوفا ، وكان صاحب عُهّار[1] يدلُّ على ذلك قول نفيل بن عــدىّ جدّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حربُ بنُ أمية وعبدُ المطلب بن هاشم ، فنفرّ عبدُ المطلب وتعجّب من إقدام حَرْبٍ عليه وقال له :

أبوك مُعــاهِرٌ وأبوه عَفٌّ   وذادَ الفيلَ عن بلدٍ حرامِ[2]

وذلك أن أميّة كان تعرّض لامرأة من بنى زُهرة ، فضربه رجل منهم بالسيف ، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة ، فقام دونهم قيسُ بن عدىّ السهمى ـ وكانوا أخواله ، وكان منيع الجانب ، شديد العارضة ، حَمِىّ الأنف ، أبىّ النفس ـ فقام دونهم وصاح : «أصبح ليلُ» ، فذهبت مثلا ، ونادى : الآن الظاعنُ مقيم . وفى هذه القصة يقول وهب بنُ عبد مناف بن زهرة جدّ رسول الله صلّى الله عليه وآله :

مهــلا أمىّ فإنّ البغىَ مهلكةٌ   لا يكسبنك يومٌ شرّه ذكرُ
تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ   يُصبُّ فى الكأسِ منه الصّبْرُ والمَقِرُ[3]

قال أبو عثمان : وصنع أميّة فى الجاهلية شيئا لم يصنعه أحدٌ من العرب ، زوّج ابنه أبا عمرو امرأته فى حياته منه ، فأولدها أبا معيط بن أبى عمرو بن أمية . والمَقيتون فى الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم ، فأما أن يتزوجها فى حياة الأب ويبنىَ عليها وهو يراه ؛ فإنه شىء لم يكن قطُّ .

قال أبو عثمان : وقد أقرّ معاوية على نفسه ورهطه لبنى هاشم حين قيل له : أيُّهما كان أسوَد فى الجاهلية ؟ أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسودَ منّا واحدا ، وكنّا

---

(١) العهار : الزنى والخفة والطيش .
(٢) ذاد الفيل : منعه .
(٣) المقر ، ككتف : الصبر أو شبيه به .

أكثرُ منهم سيّــدا ؟ فأقرّ وادّعى ، فهو فى إقراره بالنقص مخصُوم ، وفى ادعائه الفضل خَصيم

وقال جحش بن رئاب الأسدىّ حين نزل مكّة بعد موت عبد المطّلب: والله لأتزوّجنّ ابنة أكرم أهل هذا الوادى ، ولأحالفنّ أعزّهم، فتزوج أميمة بنت عبد المطّلب ، وحالفَ أبا سُفيان بنَ حرب. وقد يُمكن أن يكون أعزّهم ليس بأكرمهم ،ولا يُمكن أن يكون أكرمهم ليس بأكرمهم ؛ وقد أقرّ أبو جهل على نفسه ورهطه من بنى مخزوم حين قال : تحارَبْنا نحن وهم ، حتى إذا صرْنا كهاتين قالوا : منا نبىّ . فأقرّ بالتقصير ، ثم ادّعى المســاواة ؛ ألا تراه كيف أقرّ أنه لم يزل يَطلب شأوَهم[1] ثم ادعى أنه لحقهم ! فهو مخصوم فى إقراره ، خصيم فى دعواه ، وقد حكم لهاشم دغفل بنُ حنظلة النسّابة حين سأله معاوية عن بنى هاشم : فقال : هم أطعمُ للطعام ، وأضربُ للهام[2] ، وهاتان خصلتان يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعَجَب من منافرة حرب بن أمية عبد المطّلب بن هاشم ، وقد لطم حربٌ جاراً لخلف بن أسعد جدّ طَلْحة الطلَحات ، فجاء جاره فشكا ذلك إليـه ، فمشى خَلَفٌ إلى حَرْب وهو جالس عند الحِجْر ، فلطم وجهه عَنوة من غير تحاكُم ولا تراضٍ، فما انتطَحَ فيه عنزان[3]. ثم قام أبو سفيان بنُ حرب مقام أبيه بعـد موته ، فحالفه أبو الأُزَيهر الدَّوسىّ ، وكان عظيم الشأن فى الأزْد ، وكانت بينه وبين بنى الوَليد بن المغيرة مُحاكمة فى مصاهرةٍ كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه هشامُ بنُ الوليد وأبو الأُزَيهر قاعــد فى مَقعدِ أبى سُفيان بذى المجاز ، فضرَب عُنُقه ، فلم يُدرِكْ به أبو سُفيان عَقْلا ولا قوَدا فى بنى المُغيرة . وقال حسّان بنُ ثابتٍ يذكر ذلك :

---

(١) الشأو : الغاية . (٢) الهام : الرءوس .
(٣) هذا مثل يضرب للأمر يقع ولا يختصم فيه اثنان .

غدا أهلُ حِصْنَىْ ذى الحجارِ بسُخْرةٍ   وجارُ ابن حَرْبٍ لا يَرُوحُ ولا يَغْدُو
كَسَاكَ هشامُ بنُ الوليد ثيــابه   فأبْلِ وأخلِقْ مثلَها جُــدَداً بَعْدُ

* * *

فهذه جملة صالحة مما ذكره شيخنا أبو عثمان .

ونحن نورد من كتاب " أنساب قريش " للزّبير بن بكّار ما يتضمّن شرحا لما أجمله شيخُنا أبو عثمان أو لبعضه ، فإن كلامَ أبى عثمان لمحةٌ وإشارة ، وليس بالمشروح .

قال الزبير : حدّثنى عمر بن أبى بكر العَدَوىّ من بنى عدىّ بن كعب قال : حدّثنى يزيد بنُ عبد الملك بن المغيرة بن نوفل ، عن أبيه ، قال : اصطلحتْ قريشٌ على أن وَلِىَ هاشمٌ بعد موتِ أبيه عبدِ مناف السِّقاية والرِّفادة ، وذلك أنّ عبد شمس كان يسافر ، قلّ أن يقيم بمكّة ، وكان رجلا مُقِلاّ[1] ؛ وكان له ولدٌ كثير ، وكان هاشم رجلا مُوسِرا ، فكان إذا حضر الحجُّ قام فى قريش فقال : يا معشرَ قريش ، إنكم جيرانُ الله ، وأهلُ بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زُوّار الله يعظّمون حُرْمة بيته ، فهم لذلك ضيفُ الله ، وأحقُّ ضيف بالكرامة ضيفُ الله ، وقد خصّكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضلَ ما حفظ جارٌ من جاره ؛ فأكرِموا ضيفه وزوّاره ؛ فإنهم يأتون شُعْثا غُبْرا من كلّ بلد ضَوامِرَ كالقِداح ، وقد أرجَفوا وتَفِلوا وقَمِلوا[2] وأرملوا ، فأقْرُوهم وأعينوهم . قال : فكانت قريش ترافد على ذلك ، حتى إنّ كلّ أهلِ بيت ليرسلون بالشىء اليسير على قدرِ حالهم ، وكان هاشمٌ يُخرج فى كلّ سنة مالاً كثيرا ، وكان قومٌ من قريش يترافدون؛ وكانوا أهلَ يسار ، فكان كل إنسان ربما أرسل بمائة مثقال ذهب هِرَقْلية[3]

---

(١) يقال : أقلّ الرجل يُقِلّ ؛ إذا كثر عياله .

(٢) أرجفوا : أكثروا من ذكر الأخبار السيئة ، وقملوا : كثر فيهم القمل . وأرملوا : نفد زادهم .

(٣) هرقلية : نسبة إلى هرقل ملك الروم ؛ وهو أول من ضرب الدنانير .

وكان هاشم يأمر بحياضٍ من أَدَم تُجعَل فى مواضِع زَمْزَم من قبل أن تُحفَر ؛ يُستقَى فيها من البئار التى بمكّة ، فيشرب الحاجّ ، وكان يطعمهم أوّل ما يُطعم قبلَ يوم التَّروِيَة بيوم بمكّة وبمنًى وبجمع وعرَفة ، وكان يَثْرِد لهم الخبز واللحم والسَّمن والسَّويق والتمر ، ويحمل لهم الماء فيسقون بمنًى ، والماء يومئذ قليل ، إلى أن يَصدُر الحاجّ مِنْ مِنًى ، ثم تنقطع الضِّيافة ، وتتفرّق الناسُ إلى بلادهم .

قال الزبير : وإنما سمّى هاشما لهَشْمه الثَّريد ، وكان اسمُه عَمْرا ، ثم قالوا : «عَمْرو العلا» لمعاليه . وكان أوّل من سَنّ الرِّحلتين : رحلةً إلى الحبشة ، ورحلةً إلى الشام ، ثم خرج فى أربعين من قريش فبلغ غزّة ، فمرِض بها ، فمات ، فدفنوه بها ، ورجعوا بتركته إلى ولده . ويقال : إن الذى رجع بتركته إلى ولده أبو رُهْم عبد العُزّى بن أبى قيس العامرىّ من بنى عامر بن لؤىّ .

قال الزبير : وكان يقال لهاشم والمطلب : البَدْرانِ ، ولعبد شمس ونوفل الأبهران .

قال الزّبير : وقد اختُلِف فى أىّ ولد عبد مناف أسنّ ، والثَّبت عندنا أن أسنَّهم هاشم . وقال آدم بنُ عبد العزيز بن عمرَ بن عمرَ بن عبد العزيز بن مَرْوان :

يا أمينَ اللهِ إنى قائــــلٌ ... قولَ ذى دِينٍ وبِرٍّ وحَسَبْ
عبدُ شمسٍ لا تُهِنْها إنمـــا ... عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطّلبْ
عبدُ شمسٍ كان يَتلو هاشما ... وهُما بعدُ لأمٍّ ولأبْ

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن محمد بن طَلْحة ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : قال عبد الله بنُ عباس : والله لقد علمتْ قريشٌ أنّ أوّل من أخذ الإيلاف وأجاز لها العِيرات[1] لهاشم ، والله ماشدّت قريش رحالًا ولا حَبْلا بسفَر ، ولا أناخت بعيراً لحَضَر

---

(١) العيرات ، بكسر ففتح : كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا ، واحده عير .

إلا بهاشم ، والله إنه أوّلُ من سَقَى بمكة ماء عذبا ، وجعل بابَ الكعبة ذهباً لعبد المطلب.
قال الزبير : وكانت قريش تجاراً لا تعدو تجارتهم مكة إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، يتبايعون بها بينهم ، ويبيعون من حولهم من العرب ، حتى رحل هاشم ابنُ عبدِ مناف إلى الشام ، فنزل بقيصرَ ، فكان يذبح كلّ يوم شاةً ، ويصنع جفنة من ثريد ، ويدعو الناس فيأكلون ، وكان هاشمٌ من أحسن الناس خلقا وتماما، فذُكر لقيصرَ، وقيل له : هاهنا شابٌّ من قريش يهشم الخبز ، ثم يصبُّ عليه المرق ، ويفرّغ عليه اللحم، ويدعو الناسَ . قال : وإنما كانت الأعاجمُ والرّوم تصنع المرقَ في الصّحاف، ثم تأتدم عليه بالخبز ، فدعا به قيصرُ ، فلما رآه وكلّمه أعجب به ،وجعل يرسل إليه فيدخل عليه ، فلما رأى مكانه سأله أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر ، وأن يكتب لهم كتبَ الأمان فيما بينهم وبينه، ففعل . فبذلك ارتفع هاشمٌ من قريش . قال الزّبير: وكان هاشم يقوم أوّل نهار اليوم الأوّل من ذي الحجّة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول : يامعشرَ قريش ، أنتم سادة العربِ ، أحسنُها وجوهاً ، وأعظمُها أحلاماً ، وأوسطُها أنساباً ، وأقربُها أرحاماً . يامعشر قريش ، أنتم جيرانُ بيتِ الله ، أكرمَكم بولايته ، وخصّكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ماحفظ جارٌ من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوّار بيته ، فإنهم يأتونكم شُعْثا غُبْرا من كل بلد. وربِّ هذه البَنِيّة ، لوكان لي مال يحمل ذلك لكفيتموه ، ألا وإني مخرج من طيِّبِ مالي وحلاله مالم تُقطع فيه رَحِم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعُه ؛ فمن شاء منكم أن يفعلَ مثلَ ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرج منكم رجلٌ من ماله لكرامة زوار بيتِ الله ومعونتهم إلا طيبا لم يؤخذ ظلما ، ولم تُقطع فيه رَحم ولم يُغتصب . قال : فكانت قريشٌ تُخرج من صفو أموالها ماتحتمله أحوالُها ، وتأتي بها إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاجّ .

قال الزبير : ومما رثى به مطرود الخزاعيُّ هاشماً قوله :

مات الندى بالشام لمّا أن ثوى	أودى بغزّة هاشمٌ لا يبعدِ
فجفانه رُذُمٌ لمن يَنتابُهُ	والنصر أدنى باللسان وباليدِ[1]

ومن مراثيه له :

ياعين جُودِي وأذْرِي الدمعَ وَاحتفلي	وابكي خبيئةَ نفسي في المُلِمّاتِ
وابكي على كلِّ فيّاضٍ أخي حَسَبٍ	ضخمِ الدسيعةِ وَهّابِ الجزيلاتِ
ماضي الصريمة عالي الهمِّ ذي شرَف	جَلْدِ النحيزة حمّال العظيماتِ
صعب المقادةِ لا نِكسٌ ولا وَكِلٌ	ماضٍ على الهول مِتلافِ الكريماتِ
محض توسّط من كعبٍ إذا نُسِبوا	بُحبوحةَ المجد في الشمِّ الرفيعاتِ
فابكي على هاشمٍ في وَسْط بَلقَعةٍ	تَسْفِي الرياحُ عليه وَسْطَ غَزّاتِ
ياعين بكّي أبا الشُّعث الشَّجِيات	يبكينه حُسَّراً مِثل البَلِيّاتِ
يبكين عَمْرَو العُلا إذ حان مَصرعُهُ	سَمْحَ السجيّة بسّامَ العشيّاتِ
يبكينه مُعْوِلاتٍ في معاوزِها	ياطولَ ذلك من حزنٍ وعَوْلاتِ
محزّمات على أوساطهنّ لما	جرّ الزمانُ مِنَ أحداثِ المُصيباتِ
أبيتُ أرعَى نجومَ الليل من ألمٍ	أبكي وتبكي معي شجواً بُنيّاتي

قال الزبير : وحدثني إبراهيمُ بن المنذر ، عن الواقديّ ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أوّل من سَنّ ديةَ النفس مائةً من الإبل عبدُ المطلب ، فجرت في قريش والعرب سنّتُه ، وأقرّها رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وأمُّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد ، من بني النجّار من الأنصار ، وكان سبب

(١) في ب « ردم » ، بالدال صوابه من ! ! والرذم كسكب : القصاع المتلئة تصب جوانبها .

تزوج هاشم بها أنه قدِم فى تجارة له المدينة ، فنزل على عمرو بن زيد ، فجاءته سلمى بطعام ، فأعجبتْ هاشما ، فخطبها إلى أبيها ، فأنكحه إياها ، وشرط عليه أن تلد عند أهلها ، فبنى عليها بالمدينة ، وأقام معها سنتين ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، فحملت وأثقلت ، فخرج بها إلى المدينة ، فوضعها عند أهلها ، ومضى إلى الشام ، فمات بغزة من وجهه ذلك ، وولدتْ عبد المطلب ، فسمّته شيبة الحمد لشعرة بيضاء كانت فى ذوائبه حين وُلد ؛ فمكث بالمدينة ستّ سنين أو ثمانياً . ثم إنّ رجلا من تهامة مرّ بالمدينة ، فإذا غلمانٌ ينتضلون ، وغلامٌ منهم يقول كلّما أصاب : أنا ابن هاشم بن عبد مناف ، سيّد البطحاء ، فقال له الرجل : من أنتَ ياغلام ؟ قال : أنا ابنُ هاشم بن عبدِ مناف . قال : ما اسمُك ؟ قال : شيبةالحمد ، فانصرف الرجل حتى قدِم مكّة ، فيجد المطلب بن عبد مناف جالسا فى الحِجْر ، فقال : قُم إلىّ ياأبا الحارث ، فقام إليه ، فقال : تعلم أنى جئت الآن من يثرب فوجدتُ بها غلمانا ينتضلون ... وقصّ عليه مارأى لابن عبدِ المطلب ، وقال : إنه أضربُ غلام رأيته قطّ ، فقال له المطلب : أغفلته والله ؛ أما إنى لا أرجع إلى أهلى ومالى حتى آتيه ، فخرج المطلب حتى أتى المدينةَ ، فأتاها عِشاء ، ثم خرج براحلته حتى أتى بنى عَدِىّ بن النجّار فإذا الغلمان بين ظَهْرانى المجلس ، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم : هـذا ابن هاشم ؟ قالوا : نعَم ، وعرّفه القوم فقالوا : هذا ابنُ أخيك ، فإن كنتَ تريدأخذه فالساعة؛لاتعلم أمّه ، فإنها إن علمتْ حُلْنا بينك وبينه . فأناخ راحلته ، ثم دعاه فقال : ياابنَ أخى ، أنا عمّك ، وقد أردتُ الذهابَ بك إلى قومك ، فاركب ، قال : فوالله ما كذب أن جلس على عَجُز الراحلة ، وجلس المطلب على الراحلة ثم بعثها فانطلقتْ ، فلمّا علمتْ أمّه قامت تدعو حزنها على ابنها ، فأخبرتْ أنه عمه ، وأنه ذهب به إلى قومه . قال : فانطلق به المطلب فدخل به مكة ضَحْوةً ، مُردِفه خلفه ، والناسُ فى أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحّبون به ويقولون : مَن هذا الغلام معك ؟ فيقول : عبدٌ لى ابتعتهُ بيثرب ، ثم خرج به

حتى جاء إلى الحَزْوَرَة فابتاع له حُلّة ، ثم أدخله على امرأته خديجة بنت سَعْد بن سَهْم ، فرجّلت شعرَهُ ، ثم ألبسه الحُلّة عشيّة ، فجاء به فأجلسه في مجلس بني عبدمناف، وأخبرهم خبرَه ، فكان الناسُ بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سِكَكِ مكة وهو أحسن الناسِ يقولون: هذا عبدُ المطلب ـ لقولِ المطّلب : هذا عبدي ـ فلجّ به الاسم ، وترك به شيبة .

وروى الزبير روايةً أخرى أنّ سمَى أمّ عبد المطلب جالت بين المطلب وبين أنها شيبة ، وكان بينها وبينه في أمره محاورة ، ثم غلبها عليه ؛ وقال :

عرفتُ شيبةَ والنجّارُ قَدْ حَلفتْ أبناؤها حولَه بالنّبـــــل تَنتضِـلُ

فأما الشّعر الذي لحذافة العُذْريّ والذي ذكره شيخُنا أبو عثمانَ فقد ذكره الزبيرُ بنُ بكّار في كتاب النسب ، وزاد فيه :

كهولُهمُ خيرُ الكهولِ ونَسْلُهمْ كنَسْلِ الملوكِ، لا يبُورولا يَجْرِى
ملوكٌ وأبنـاء الملوكِ وسادةٌ تَفلّقُ عنهم بَيضة الطائر الصَّقْرِ
متى تَلقَ منهمْ طامِحاً في عِنانِه تجدْهُ عَلَى أجـراء والدِهِ يجرى
هم ملكوا البَطْحاء مجداً وسُؤدُداً وهمْ نَكّبوا عنها غواةَ بني بَكْرِ
وهم يغفِرون الذّنبَ يُنقَم مثلُه وهمْ تركوا رأيَ السفاهة والهُجْرِ
أخارجَ إما أهلِكَنّ فلا تَزَلْ لهمْ شاكراً حتى تُغيَّبَ في القَبْرِ

قال الزبير : وحدّثني عن سبب هذا الشعر محمد بن حَسَن ، عن محمد بن طلحة ، عن أبيه ، قال : إن رَكْبـاً من جُذامَ خرجوا صادرين عن الحج من مـكة ، ففقدوا رجلا منهم عاليةَ بيوتِ مكة ، فيلقون حُـذافة العُذْريّ ، فربطوه وانطلقوا به ؛ فتلقّاهم عبدُ المطلب مقبلا من الطائف ومعه ابنـه أبو لهب يقود به ؛ وعبدُ المطلب حينئـذ قد ذهب بصرُه ، فلمّـا نظر إليه حُذافة بنُ غانم هَتَف به ؛ فقال عبدُ المطلب لابنه :

وَيْلَكَ ! مَن هذا ؟ قال : هذا حذافة بنُ غانم مربوطا مع ركب . قال : فالْحقهم فسَلْهم ماشأنُهم وشأنُه ، فلَحِقهم أبولهب فأخبَرُوه الخبرَ ، فرجع إلى أبيه، فأخبَره ، فقال:وَيْحَك! ما معك ؟ قال : لا والله ما مَعِي شيء ؛ قال: فالْحَقهم لا أمّ لك ! فأعطهم بيدك ، وأطلِق الرّجل ، فلَحقهم أبولهب ، فقال: قد عرَفتمْ تجارتى ومالى ، وأنا أحلف لكم لأعطينكم عشرين أوقية ذهبا ، وعشرا من الإبل وفرسا ، وهذا ردائى رَهْنٌ . فقبلوا ذلك منه ، وأطلقوا حذافة ، فلما أقبل به وقرُبا من عبد المطلب ، سمع عبدُ المطلب صوتَ أبى لهب، ولم يسمع صوت حُذافة ، فصاح به : وأبِي إنّك لعاصٍ ؛ ارجع لا أمّ لك ! قال : يا أبتا هذا الرجل معى ؛ فناداه عبدُ المطلب : يا حذافة ؛ أسمِعْنى صوتَك . قال : هأنذا بأبى أنتَ وأمّى يا ساقىَ الحجيج أردِفْنى ؛ فردَفه حتّى دخل مكة ؛ فقال حُذافة هذا الشعر .

قال الزبير : وحدّثنى عبدُ الله بن مُعاذ ، عن معْمَر ، عن ابن شهاب ، قال : أوّل ما ذُكر من عبد المطلب أن قريشا خرجتْ فارّة من الحرَم خوفا من أصحاب الفيل ، وعبدُ المطلب يومئذ غلامٌ شابٌّ ، فقال : والله لا أخرُج من حَرَم الله أبتغى العِزَّ فى غيره! فجلس فى البيت وأجْلَت[1] قريشٌ عنه ، فقال عبدُ المطلب :

لا هُمّ إنّ المرء يمـ ... ـنعُ رَحْلَه فامنعْ حَلالَكْ
لا يغلِبنّ صَليبُهمْ ... ومِحَالُهمْ أبداً مِحالَكْ[2]

فلم يزل ثابتاً فى الحرمَ حتّى أهلَكَ اللهُ الفيل وأصحابه ، فرجعتْ قريش وقد عظُم فيهم نصَبْره[3] وتعظيمه محارمَ الله عزّ وجلّ؛ فبينا هو على ذلك ـ وكان أكبر ولده وهو الحارث ابنُ عبدِ المطلب قد بَلَغ الحلم ـ أُرِى عبدُ المطلب فى المنام ، فقيل له : احفر زَمْزَم ، خبيئة الشيخ الأعظم . فاستيقظ فقال : اللهمّ بيّن لى الشيخ ، فأُرِى فى المنام مرة أخرى :

(١) أجلت : هربت . (٢) المحال : القدرة .
(٣) ب « بصيرته » تحريف ، صوابه فى أ .

احْفِرْ تُكْتَمْ[1] بين الفَرْث والدَّم ، في مَبْحَث الغراب ، في قَرْيَة النَّمْل ، مستقبلةَ الأنصاب الحُمْر . فقام عبد المطّلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينتظر ما سُمِّيَ له من الآيات ، فنُحِرَ بقرةٌ في الحَزْوَرة ، فأفلتتْ من جازِرِها بحُشاشةِ نفسِها حتى غَلَبَ عليها الموتُ في المسجد في موضع زَمْزَم ، فاحتمل لحمَها من مكانِها ، وأقبلَ غراب يهوِي حتى وقع في الفَرْث فبَحَثَ عن قرية النمل ، فقام عبدُ المطّلب يحفرها، فجاءته قريش فقالت له : ما هذا الصنع ، إنا لم نكن نَرَاكَ بالجهل ؛ لِمَ تحفِر في مسجدنا ؟ فقال عبد المطّلب : إني لحافر هذا البئر ، ومجاهدٌ من صدّنى عنها ، فطفِق يحفِر هو وابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره، فيسفه عليهما الناسُ من قريش فينازعونهما ويقاتلونهما . وتناهى عنه ناسٌ من قريش لِما يعلمون من رعيق نسبه وصِدْقه ، واجتهاده في دينهم يومئذ ، حتى إذا أتعبه الحفْر ، واشتدّ عليه الأذى نذر إنْ وفى له عشرةٌ من الوِلْدان ينحرَ أحدَهم ، ثم حفر فأدرك سُيوفاً دُفنتْ في زَمزم حين دفنتْها، فلما رأتْ قريش أنه قد أدرك السيوف قالت : يا عبد المطّلب ، أَحْذِنَا[2] مما وجدتَ . فقال عبدُ المطّلب: بل هذه السيوف لبيت الله، ثم حَفَرَ حتى أسِطِ الماء ، فحفرها في القرار ، ثم بحرها حتى لا تُنزف ، ثم بنى عليها حوضا وطفِق هو وابنه يَنزِعان فيملآن ذلك الحوض، فيشرب منه الحاجّ ، ويَكْسِره قوم حَسَدَة له من قريش بالليل ، فيُصلِحه عبدُ المطلب حين يُصبح ،فلما أكثروا فساده دعا عبدُ المطّلب ربَّه ، فأُرِيَ ، فقيل له : قل : اللّهم إني لا أُحِلُّها لمغتسِل ، وهي لشارب حِلٌّ وبِلٌّ ، ثم كفيتهم، فقام عبد المطلب حين اختلفتْ قريش في المسجد، فنادى بالذى أُرِيَ، ثم انصرف فلم يكن يُفسِد حوضَه عليه أحدٌ من قريش إلّا رُمِيَ في جسده بداء ، حتى تركوا حوضَه ذلك وسقايته . ثم تزوّج عبدُ المطلب النّساء ، فوُلِد له عشرةُ رَهْط ، فقال : اللهمّ إني

---

(١) تُكتَم ، بضم فسكون : اسم بئر زمزم .
(٢) احذنا : أعطنا .

كنتُ نذرتُ لك نحرَ أحدِهم ، وإنى أُقرِع بينهم ، فأصيب بذلك من شئت ، فأقرَعَ بينهم ، فطارت القُرْعة على عبد الله بن عبد المطلب أبى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وكان أحبَّ ولدِه إليه ، فقال عبدُ المطلب : اللهمّ هو أحبّ إليك أم مائة من الإبل ؟ فنحَرها عبدُ المطلب مَــكانَ عبد الله ، وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئى فى قريش قطّ .

ورَوَى الزبير أيضا قال : حدّثنى إبراهيم بنُ المُنذر ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الله ابن عثمان بن سليمان قال : سمعتُ أبى يقول : لما حفرت زمْزم ، وأدرَك منها عبدُ المطلب ما أدرَكَ ، وَجَــدتْ قريشٌ فى أنفُسها ممّا أعطى عبدُ المطلب ، فلقيَه خُوَيلد بنُ أسَد بن عبد العزّى فقال : يابن سلمى ، لقد سقيت ماء رغَدا ، ونثلت عاديّة حَسدا ، فقال : يابن أسَد ، أما إنك تَشرَكُ فى فضلِها ، والله لايُساعدنى أحدٌ عليها ببِرّ ، ولا يقوم معى بارزاً إلا بذلتُ له خيرَ الصِّهر ، فقال خُوَيلدُ بنُ أسَد :

أقــولُ وما قولى عليهمْ بسُبَّةٍ إليكَ ابن سلمى أنت حافرُ زَمْزَمِ
حَفيرةُ إبراهيمَ يومَ ابن هَاجرٍ ورَكْضــةُ جبْريلٍ على عهد آدم

فقال عبدُ المطلب : ما وجدت أحدا وَرِث العِلْمَ إلا قدم غيرَ خُوَيلد بن أسد .

قال الزّبير : فأما رَكْضةُ جبريل فإن سعيدَ بن المسيّب قال : إنّ إبراهيم قَدِم بإسماعيل وأمّه مكةَ ، فقال لهما : كلاَ من الشجر ، واشربَا من الشِّعاب . وفارَقهما ، فلمّا ضاقتْ الأرضُ تقطعت المياه ، فعطِشا ، فقالت له أمّه : اصعد واصبّ فى هذا الوادى فلا أرى موتك ولا ترى مَوتى ، ففعل ، فأنزل اللهُ تعالى مَلَكا من السماء على أمّ إسماعيل ، فأمرَها فصرخت به ، فاستجاب لها ، وطار الملَك فضربَ بجناحيه مكانَ زمزم ، فقال : اشربا ، فــكان سَيْحا يَسيح ، ولو تركَاه ما زال كذلك أبدا ، لــكنّها فرِقت[1] عليه من العطَش ، فقرت[2] له فى السِّقاء ، وحفرتْ فى البَطْحاء ، فلما نَضَبَ الماء طوَياه ؛ ثم

---

(١) فرقت : خافت .

(٢) كذا فى الأصول .

هلك الناس ، ودفنته السُّيول . ثم أُرى عبدُ المطلب فى المنام أن احفِرْ زمزَم لا تُنْزَب[1] ولا تذمّ ، تروى الحجيج الأعظم . ثم أُرِى مرة أخرى أن احفر الرّواء ، أعطيتَها على رَغْم الأعداء . ثم أُرِىَ مرة أخرى، أن احفِر تُكتَم ، بين الأنصاب الحمر ، فى قرية النمل . فأصبح يحفر حيث أُرِى ، فطفقت قريش يستهزئون به ، حتى إذا بدا عن الطىّ وَجد فيها غزالا من ذهب ، وحلية سَيف ؛ فضرَب عليها بالسِّهام ؛ فخرج سهمُ البيت ؛ فكان أوّل حُلِىٍّ حُلّى به الكعبة .

قال الزّبير : وكان حربُ بنُ أمية بنِ عبدِ شمس نَديم عبدِ المطلب ، وكان عبيدُ بن الأبرص تِرْبه ، وبلغ عبيد مائةً وعشرين سنةً ، وبقى عبد المطلب بعده عشرين سنة .

قال : وقال بعض أهل العلم : توفىَ عبدُ المطلب عن خمس وتسعين سنة ، ويقال : كان يُعرف فى عبد المطلب نور النبوّة ، وهيبةُ الملك ، وفيه يقول الشاعر :

إنى واللّات والبَيتِ المعظّم لا أُ بالحيْزِ عبدِ المطّلب[2]

قال الزبير : حدّثنى عمى مصعب بن عبد الله ، قال : بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسنّ وذهب بصره، إذ زَحمه رجل ، فقال : مَن هذا ؟ فقيل : رجل من بنى بكر . قال : فما منعه أن يُنكّب عنّى وقد رآنى لا أستطيع لأن أُنكّب عنه ! فلما رأى بنيه قد توالوا عشَرة قال : لا بدّ لى من اعصا ؛ فإن اتخذتها طويلةً شقّت علىّ ؛ وإن اتخذتُها قصيرةً قويتُ عليها ، ولكن يحدب لها ظَهرى ؛ والحدبة ذلّ ، فقال بنوه : أو غيرُ ذلك ؟ يوافيك كلّ يوم منّا رجل تتوكأ عليه فتطوف فى حوائجك . قال : ولذلك قال الزبير : ومكارِم عبد المطلب أكثر من أن يُحاطَ بها ؛ كان سيّد قريش غيرَ مُدافَع نفسا وأبًا وبيتًا وجمالا وبهاء وكمالا وفعالا ؛ قال أحدُ بنى كنانة يمدحه :

---

(١) لا تنزب عليه : لا تفنيه .

(٢) الحيز : الأسد .

إنى وما ستَرتْ قريشٌ والذى تعزُو لكلٍ كلُّهنّ خلبـد[1]
ووَحَقّ من رفع الجبال مُنيفةً والأرضَ مدًّا فوقهنّ سمـاد[2]
مُثْنٍ ومهدٍ لابن سلمى مِدحةً فيها أداء ذِمامه ووفاء

قال الزبير : وأما أبو طالب بنُ عبد المطلب ـ واسمه عبد مناف ، وهو كافلُ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وحاميه من قريش وناصرُه ، والرّفيق به، الشفيق عليه ، ووصىّ عبد المطلب فيه ـ فكان سيد بنى هاشم فى زمانه ، ولم يكن أحد من قريش يسودُ فى الجاهلية بمالٍ إلا أبو طالب وعُتبة بن ربيعة .

قال الزبير : أبو طالب أول من سَنّ القَسامة[3] فى الجاهليّة فى دم عَمرو بن علقمة ، ثم أثبتَها السنة فى الإسلام ، وكانت السّقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب ، ثم سلمها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب .

قال الزبير : وكان أبو طالب شاعراً مُجيداً ، وكان نديمه فى الجاهلية مسافرُ بنُ عمرو ابن أمية بن عبد شمس ، وكان قد حَبِن[4] فخرج ليتداوى بالحيرة ، فمات بهُبالة[5] ، فقال أبو طالب يرثيه :

ليت شعرى مسافرُ ابنُ أبى عَمْـ ـرو وليتٌ يقولها المحزونُ
كيف كانت مَذاقةُ الموت إذ مُتّ وماذا بعدَ المماتِ يكونُ !
رَحَل الرَّكب قافلين إلينا وخليلى فى مَرْمسٍ مَدفونُ
بُورِكَ الميتُ الغريبُ كما بو رِكَ نَضرُ الرّيحان والزّيتونُ

(١) تعزو : تنسب ؛ وفى ب : « كلهن » تحريف .
(٢) المنيفة : العالية .
(٣) القسامة بالفتح : الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم .
(٤) الحبن بالتحريك : الاستسقاء . (٥) هبالة : موضع .

رُزْءُ مَيْتٍ على هُبالةَ قد حا ... لَتْ فَيافٍ من دُونه وحُزُونُ
مِدْرَهٌ يدفع الخصومَ بأيْدٍ ... وبوجـه يَزِينه العِرْنِينُ[1]
كم خليـلٍ وصاحب وابن عَمٍّ ... وحميم قَضَتْ عليـه المَنونُ!
فتعزَّيتُ بالجـلادة والصَّبْـ ... ـرِ وإنى بصاحبى لضنينُ

قال الزبير : فلما هلك مسافرٌ نادَم أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبى قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤىّ ، ولذلك قال عمرو لعلىّ عليه السلام يوم الخندق حين بارزه : إن أباك كان لى صديقا .

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خربوذ، قال : كان أبو طالب يحضر أيام الفجار ، ويحضرُ معه النبىّ صلّى الله عليه وآله وهو غلام ، فإذا جاء أبو طالب هُزِمت قيس ، وإذا لم يجىء هزمت كنانة، فقالوا لأبى طالب: لاأبالك ! لاتغب عنا ، ففعل .

قال الزبير : فأما الزبير بن عبد المطلب فكان من أشراف قريش ووجوهها ، وهو الذى استثنته بنو قصىّ على بنى سهم حين هجا عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قصى فأرسلت بنو قُصَىّ عتبة بنَ ربيعة بن عبد شمس إلى بنى سهم ، فقال لهم : إنّ قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم ، فأرسلونى إليكم فى هـذا السفيه الذى هجاهم فى غير ذنب اجترموا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأىُ رأيكم ، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم . فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا . قال : فأسلموه إليهم ، فقال بعضُ بنى سهم : إن شئتم فعلنا ؛ على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا . فقال عتبة : مايمنعنى أن أقول ماتقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائبٌ بالطائف ،

(١) الأيد : الشدة . والعرنين : الأنف .

وقد عرفت أنه سيفرع لهذا الأمر فيقول : ولم أكن أحمل الزبير خطرا لابن الزِّبَعْرَى ، فقال قائل منهم : أيها القوم ، ادفعوه إليهم ، فعمرى إنّ لكم مثل الذى عليكم ، فكثر فى ذلك الكلام واللّغط ، فلما رأى العاصُ بنُ وائل ذلك دعا برُمّة ، فأوثق بها عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، ودفعه إلى عتبة بن ربيعة ، فقِيل به مربوطا حتى أتى به قومه ؛ فأطلقه حمزة بنُ عبد المطلب وكساه ، فأغرى ابن الزِّبَعْرَى أناس من قريش بقومه بنى سهم ، وقالوا له : أهجُهم كما أسلموك ، فقال :

لَعَمْرِىَ ماجاءتْ بنُكْرٍ عشيرتى ... وإن صالحتْ إخوانَها لا ألومُها
فَوَدَّ جُناة الشرِّ أن سيوفنا ... بأيمانِنا مسلولةٌ لا نَشيمها
فيقطع ذو الصِّهر القريب ويتركوا ... غماغِمَ منها إذ أجدّ يَريمها[1]
فإنّ قصيًّا أهلُ مجدٍ وثروةٍ ... وأهلُ فعالٍ لا يُرام قديمها
هُمُ منعوا يومَىْ عكاظَ نساءنا ... كما منع الشَّوْلَ الهِجانَ قُرومُها[2]
وإن كان هيجٌ قدّموا فتقدّموا ... وهل يمنع المخزاة إلّا حميمُها !
محاشيدُ للمقْرَى سراعٌ إلى النّدَى ... مَرازِبة غُلبٌ رِزانٌ حُلومُها[3]

قال : فقدم الزّبير بنُ عبد المطلب من الطائف ، فقال قصيدته التى يقول فيها :

فلولا الحُمْسُ لم يلبس رجالٌ ... ثيابَ أعزّة حتى يموتوا[4]

وقد ذكرنا قطعةً منها فيما تقدم .

قال الزبير : وقال الزبير بنُ عبد المطلب أيضا فى هذا المعنى :

---

(١) يريمها : يطلبها .

(٢) الشائلة من الإبل : التى أتى عليها من حلبها سبعة أشهر فخف لبنها . وجمعه شول ، وهجان الإبل : كرامها .

(٣) المرزبان : الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، معرب ؛ والأصل فيه أحد مرازبة الفرس ، وغلب : جمع أغلب ، وهو فى الأصل الغليظ الرقبة ، يصفون أبدا السادة بغلظ الرقبة وطولها .

(٤) الحمس هنا : قريش ومن ولدت ؛ سموا حمسا لأنهم تحمسوا فى دينهم ؛ أى تشددوا .

قومى بنو عبد مناف إذا … أظلم مَنْ حولىَ بالجندلِ
لا أسدٌ لى يُسلمونى ولا … تيمٌ ولا زُهرة للنَّيطَلِ[1]
ولا بنو الحارث إن مرَّ بى … يومٌ من الأيام لا ينجلى
يأيها الشـــاتمُ قومى ولا … حقٌ له عندهمُ أقبـلِ
إنّى لهمْ جارٌ لئن أنت لم … تقصر عن الباطل أوتعدلِ

قال الزبير : ومن شعر الزبير بن عبد المطلب :

ياليت شعرى إذا ماأحْـــــتى وقمت … ماذا تقول ابنتى فى النَّوح تنعــانى !
تنعى أبًا كان معروف الدِّفاع عن الـ … مَوْلى المضاف وفكّاكاً عن العانى[2]
ونعمَ صـاحبُ عانٍ كان رافده … إذا تضجّــع عنه العاجز الوانى[3]

قال الزّبير : وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب ذا نظر وفكر ، أتى فقيل له : مات فلانٌ ـ لرجل من قريش كان ظلوما ـ فقال : بأىّ عقوبة مات ؟ قالوا : مات حتف أنفه ، فقال : لئن كان ماقلتموه حقًّا إنّ للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم .

قال : وكان الزبير يكنى بأبى الطاهر ، وكانت صفيّة بنت عبد المطلب كنّتْ ابنها الزبير بن العوام أبا الطاهر دهراً بكُنية أخيها ، وكان للزبير بن عبد المطلب ابنٌ يقال له الطّاهر ، كان من أظرف فتيان مكة ، مات غلاماً ، وبه سمّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ابنه الطاهر ، وباسم الزّبير سمّت أخته صفية ابنها الزّبير ، وقالت صفيّة ترثي أخاها الزبير بن عبد المطلب :

بَكّى زبيرَ الخير إذ ماتَ إنْ … كنتِ على ذى كَرم باكيَهْ

---

(١) النيطل : الموت الوحىّ .
(٢) العانى : الأسير .
(٣) التضجيع فى الأمر : التقصير فيه .

لو تقطعه الأرضُ ما لُمتُها أو أصبحتْ خاشعةً عاريهْ
قد كان في نفسيَ أن أتركَ الـموتى ولا أتبعُهم قافيهْ
فلم أُطقْ صبراً على رُزْئه وجدتُه أقربَ إخوانيهْ
لو لم أقُلْ مِن فيَّ قولاً له لقصّت العَبْرة أصلاعيهْ
فهوَ الشآمي واليماني إذا ماحضروا، ذو الشَّفرة الدّاميهْ

وقال ضِرار بن الخطّاب يبكيه :

تبكي ضُباعُ على أبيـ ـثِ بكاءِ محزونٍ أليمْ
قد كنتُ أشدُه فلا رثُّ السّلاح ولا سليمْ
كالكوكب الدُّريّ يعـ ـلو ضوءه ضوءَ النجومْ
زخرتْ به أعراقُـه ونماه والدُه الكريمْ
بين الأغرِّ وهاشمٍ فرعَين قد فرَعا القرومْ

* * *

فأما القَتول الخثعميّة التي اغتصبها نبيه بنُ الحجّاج السّهمي من أبيها ، فقد ذكر الزّبير بن بكّار قصّتها في كتاب "أنساب قريش" .

قال الزبير : إنّ رجلا من خثعم قَدم مكةَ تاجرا ومعه ابنة يقال لها القَتُول ، أوضأ نساء العالمين ، فعَلِقها نبيه بن الحجّاج السّهمي ، فلم يبرح حتى غلب أباها عليها، ونقلها إليه ، فقيل لأبيها : عليك بحلْف الفضول ، فأتاهم فشكا إليهم ذلك ، فأتوا نبيه بن الحجّاج فقالوا له : أخرج ابنةَ هذا الرجل — وهو يومئذ منتبذ [1] بناحية مكة ، وهي معه — وإلا فإنّا مَن قد عرفتَ ، فقال : ياقوم ، متّعوني بها الليلة ، فقالوا : قبحك الله !

---

(١) منتبذ ، أي متنح ناحية مكة .

ما أجهلك ، لا والله ولا شَخْب لَقْحة ، فأخرجها إليهم فأعطوها أباها ، فقال نبيه بن الحجاج فى ذلك قصيدةً أولها :

راح صَحْبى ولمْ أُحَىِّ القَتُولَا ... لم أودِّعهمُ وَدَاعًا جميلا [(١)]

إذ أجدَّ الفُضُول أن يمنعوها ... قد أرانى ولا أخافُ الفُضولا

فى أبيات طويلة .

• • •

وأما قصة البارقىّ فقد ذكرها الزبير أيضا .

قال : قدِم رجلٌ من ثُمالةَ من الأزد مكةَ ، فباع سلعة من أُبىِّ بنِ خَلَف الجمحىّ فمطله بالثمن ؛ وكان سيِّئَ المخالطة ، فأتى الثمالىّ أهلَ حلف الفُضول فأخبرهم،فقالوا:اذهب فأخبره أنك قد أتيتنا ، فإن أعطاك حقَّك وإلا فارجع إلينا ، فأتاه فأخبره بما قال أهلُ حِلْف الفُضُول ؛ فأخرَج إليه حقّه فأعطاه ، فقال الثمالى :

أيفجُر بى ببطنِ مكّةَ ظالمًا ... أُبَىٌّ ولا قومى لَدَىَّ ولا صَحْبى

وناديتُ قومى بارقًا لتُجيبَنى ... وكم دونَ قومى من فيافٍ ومن سُهْبِ [(٢)]

ويأبَى لكمْ حِلْف الفُضول ظلامتى ... بنى جُمَحٍ والحقّ يؤخذ بالغصْبِ

• • •

وأمّا قصّة حِلْف الفُضول وشرفه فقد ذكرها الزبير فى كتابه أيضا،قال: كان بنو سهم وبنو جُمَح أهلَ بَغْيٍ وعُدْوان ؛ فأكثروا من ذلك،فأجمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسَد وبنو زُهْرة وبنو تَيْم على أن تحالفوا وتعاقدوا على ردّ الظلم بمكة ، وألّا يُظلَمَ أحدٌ

---

(١) ب : « صبحى » تحريف ، صوابه فى ا .

(٢) الفيف : المفازة التى لا ماء فيها ؛ وإذا أنثت فهى الفيفاء وجمعها الفيافى ، والسهب بفتح السين : الأرض الواسعة ، يجمع على سهب (بضمتين) وسكنت الهاء للشعر .

إلا منعوه ، وأخذوا له حقّه ، وكان حِلْفهم في دارِ عبد الله بن جُدْعان ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « لقد شهدتُ في دار عبدِ الله بن جُدْعان حِلْفا ما أُحِبّ أنّ لي به حُمْرَ النَّعَم ، ولو دعيتُ به اليومَ لأجبتُ ، لايزيده الإسلام إلا شِدّة » .

قال الزبير : كان رجلٌ من بني أسد قد قدم مكة معتمِرا ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بنُ وائل السَّهمىّ ، فآواها إلى بيته ، ثم تغيّب ، فابتغى الأسدى[1] متاعَه فلم يقدِر عليه ، فجاء إلى بني سَهْم يستعْديهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لاسبيل له إلى ماله ، وطوّف في قبائل قريش يستعين بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك أشرف على أبي قُبيس حين أخذتْ قريش مجالسَها ، ونادى بأعلى صوته :

يالَلرِّجال لِمظلومٍ بضاعَتُـــه ... ببطن مَـكّة نائِي الأهلِ والنَّفَرِ
ومُحرِمٍ أشعثٍ لم يقضِ عُمْرته ... ياآلَ فِهْرٍ وبين الحِجْرِ والحَجَرِ[2]
هل مُنصِفٌ من بني سَهْمٍ فمرتجِعٌ ... ما غيّبوا أم حلالٌ مالُ معتمر[3] !

فأعظمتْ ذلك قريش ، وتكلّموا فيه ؛ فقال المطيَّبون : والله إن قمنا في هذا ليغضبنّ الأحلاف ؛ وقالت الأحلاف : والله إنْ قمنا في هذا ليغضبنّ المطيَّبون ؛ فقالت قبائل من قريش : هلمّوا فلنحتلف حِلْفا جديدا لننصرنّ المظلومَ على الظالم مابلّ بحرٌ صوفة. فاجتمعت هاشم والمطَّلب وأسدٌ وتيمٌ وزُهرة في دار عبد الله بن جُدْعان ورسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ معهم وهو شابٌّ ابن خمس وعشرين سنة لم يوحَ إليه بعدُ ، فتحالفوا ألَّا يُظلَمَ بمكة غريبٌ ولا قريبٌ ولا حرّ ولا عبدٌ إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ، ويردّوا إليه مظلمتَه من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم عمَدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، فغسلوا به أركانه ، ثم جمعوه وأتوهم به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

(١) في ا ، وب : « الزبيدى » ، تصحيف . (٢) ب : « يا أهل » .
(٣) ا ، ب : « ضلال » تحريف .

فقالوا له : أدِّ إلى هذا حقَّه ، فأدَّ إليه حقه ، فمكثوا كذلك دهراً لا يُظلَم أحد بمكة إلا أخذوا له حقه ؛ فكان عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أنَّ رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ؛ حتى أدخل فى حِلْف الفضول .

* * *

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن موسى بن محمد ، عن أبيه ، أنَّ الحلف كان على ألّا يدَعوا بمكة كلها ولا فى الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردّوا عليـــه ماله ومظلمته ، أو يُبلوا فى ذلك عُذْرا ؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى التأسِّى فى المعاش .

قال الزبير : ويقال : إنه إنما سُمِّىَ حِلْف الفضول لأن رجالا كانوا فى جرهم تحالفوا على ردّ المظالم ، يقال لهم فُضيل وفَضّال وفَضْل ومفضل ، فسُمِّىَ هذا الحلف حِلْف الفضول ؛ لأنه أحيا تلك السنّة التى كانت ماتت .

قال الزبير : وقدم محمد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان ــ وكان من علماء قريش ــ فقال له : يا أبا سعيد ، ألم نكن ــ يعنى بنى عبد شمس ــ ، وأنتم فى حلف الفضول؟ فقال : أمير المؤمنين أعلم ؛ قال : لتخبرنّى بالحق ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، وما كانت يدنا ويدكم إلّا جميعا فى الجاهلية والإسلام .

* * *

قال الزبير : وحدثنى محمد بنُ حسن ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله ابن الهادى الليثىّ ، أنّ محمد بن الحارث أخبره ، قال : كان بين الحسين بن علىّ عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان كلام فى مال كان بينهما بذى المَرْوة ، والوليد يومئذ أميرُ المدينة فى أيام معاوية ، فقال الحسين عليه السلام : أيستطيل الوليد علىّ بسلطانه!

أقسم بالله لينصفنّى من حق أو لآخذنّ سيفى ثم أقوم فى مسجد الله فأدعو بحلف الفضول! فبلغت كلمتُه عبدَ الله بن الزبير ، فقال : أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً . فبلغت المِسْوَر بن مخرمة بن نوفل الزهرىّ ، فقال مثلَ ذلك ، فبلغت عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمىّ ، فقال مثل ذلك ، فبلغ ذلك الوليد ابن عتبة ، فأنصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضى .

***

قال الزبير : وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصّة مثل هذه ، كان بينهما كلامٌ فى أرض للحسين عليه السلام ، فقال له الحسين عليه السلام : اختر منّى ثلاث خصال : إمّا أن تشترىَ منّى حقى ، وإمّا أن تردّه علىّ ، أو تجعلَ بينى وبينك ابن عمر أو ابن الزبير حكَماً ؛ وإلا فالرابعة ، وهى الصَّيْلَم . قال معاوية : وما هى ؟ قال : أهتف بحلف الفضول ، ثم قام فخرج وهو مُغضَب ، فمرّ بعبد الله بن الزبير فأخبره ، فقال : والله لئن هتفتَ به وأنا مضطجع لأقعدَنّ ، أو قاعدٌ لأقومنّ ، أو قائم لأمشينّ ، أو ماشٍ لأسعينّ ، ثم لتنفدَنّ روحى مع روحك ، أو لينصفنّك . فبلغتْ معاوية ، فقال : لا حاجة لنا بالصَّيلم ؛ ثم أرسل إليه أن ابعث فانتقد مالك ؛ فقد ابتعناه[1] منك .

قال الزبير : وحدّثنى بهذه القصة علىُّ بن صالح عن جدّى عبد الله بن مُصعب ، عن أبيه ، قال : خرج الحسينُ عليه السلام من عند معاوية وهو مغضَب ، فلقىَ عبدالله بن الزبير ، فحدّثه بما دار بينهما ، وقال : لأخيِّرنّه فى خصال ، فقال له ابن الزبير ما قال ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : لقد لقينى الحسين فخيّرك فى ثلاث خصال ، والرابعة الصَّيْلم ، قال معاوية : فلا حاجة لنا بالصيلم ، أظنّك لقيتَه مغضَباً ! فهات الثلاث ، قال : أن تجعلنى

---

(١) ب : « وابتعناه » .

أو ابن عمر بينك وبينه . قال : قد جعلتك بيني وبينه ، أو جعلت ابن عمر أو جعلتكما جميعا . قال أو تقرّ له بحقه ثم تسأله إياه . قال : قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إياه ، قال : أو تشتريه منه ، قال : قد اشتريته منه ، فما الصنيع ؟ قال : يبعث بحذف الفصول ، وأنا أول من يجيبه. قال : فلا حاجة لنا فى ذلك .

وبلغ الكلام عبد الله بن أبى بكر والمسور بن مخرمة ، فقالا للحسين مثل ما قاله ابن الزبير.

* * *

فأمّا تفجّرُ الماء من تحت أخفاف بعير عبد المطلب فى الأرض الجُرُز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة ، قال : لما أنبط[1] عبدُ المطلب الماء فى زمزم حسدته قريش ، فقالت له : ياعبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإنّ لنا فيها حقّا فأشركنا معك . قال : ما أنا بفاعل ، إنّ هذا الأمر أمرٌ خُصصتُ به دونكم وأعطيتُه من بينكم ، قالوا له : فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم حَكَما أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هُذَيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، وركب عبدُ المطلب فى نفر من بنى عبد مناف ، وخرج من كلّ قبيلة من قبائل قريش قوم ، والأرض إذ ذاك مَفاوِز[2] ، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام تقدما كان مع عبد المطلب وبنى أبيه من الماء فعطشوا عطشا شديدا ، فاستسقوا قومَهم ، فأبوا أن يسقوهم ، وقالوا : نحن بمفازة ونخشى على أنفسنا مثل الذى أصابكم . فلما رأى عبدُ المطلب ما صنع القومُ وخاف على نفسه وأصحابه الهلاك ، قال لأصحابه : ما ترَون ؟ قالوا : ما رأيُنا إلّا تبعٌ لرأيك ، فمُرْنا بما أحببت ، قال : فإنى أرى أن يحفر كلُّ رجل منا حفرةً لنفسه بما معه الآن من القوة ؛ فكلما مات رجل دفنه أصحابه فى حفرته ؛ حتى يكون رجلٌ واحد ، فضيعة

---

(١) أنبط الماء : استخرجه وطلبه .

(٢) المفاوز : جمع مفازة ، وهى البرية القفر ، أو التى لا ماء فيها ؛ وسميت مفازة لأن من خرج منها وتباعد عنها فاز ونجا .

رجل واحد أيسَرُ من ضَيْعة رَكْب ، قالوا : نِعْمَ ما أشرتَ ! فقام كلّ رجل منهم فحفر حفيرةً لنفسه ، وقعدوا ينتظِرون الموت . ثم إن عبدَالمطلب قال لأصحابه : والله إنّ إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ؛ لا نضرب في الأرض ونطلب للماء لَعَجْز ؛ قوموا فعسَى الله أن يرزقنا ماء ببعض الأرض ، ارتحلوا . فارتحلوا ومَن معَهم من قبائل قريش ينظُرون إليهم ماهم صانعون ، فتقدّم عبدُ المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثتْ به انفجر من تحت خُفّها عَين من ماء عَذب ، فكبّر عبدُ المطلب وكبّر أصحابه ، ثم نَزَلَ فشرِب وشرِب أصحابُه ، واستقَوْا حتى ملأوا أسقيتَهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم : هلمّوا إلى الماء ، فقدأسقانا الله ، فاشربوا واستَقُوا ، فجاءوا فشربوا واستَقَوْا ، ثم قالوا : قد والله قضى الله لك علينا ، والله لا نخاصِمُك في زمزم أبداً ، إنّ الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سِقايتك راشداً . فرجع ورجَعوا معه ، لم يصلوا إلى الكاهنة وخلّوا بينه وبين زمزم[1] .

* * *

وروى صاحبُ كتاب الواقدي أنّ عبد الله بن جعفر فاخَرَ يزيد بن معاوية بين يدَيْ معاوية ؛ فقال له : بأيّ آبائك تفاخِرني ؟ أبحرب الذى أجرْناه ، أم بأمية الذى ملكناه ، أم بعبد شمس الذى كفَلْناه ! فقال معاوية : لحرب بن أمية يقال هذا ! ما كنت أحسَب أن أحداً في عصر حَرْب يزعم أنه أشرف من حَرْب ! فقال عبدُ الله: بلى أشرف منه من كَفأ عليه إناءه وجلّله[2] بردائه ! فقال معاوية ليزيد: رويدًا يا بُنيّ ، إنّ عبد الله يفخَر عليك بك لأنك منه وهو منك . فاستَحْيا عبدُ الله وقال : يا أميرَ المؤمنين يدَان انتُشِطَتا[3] وأخَوان اصطَرَعا . فلما قام عبدُالله ، قال معاوية ليزيد : يا بُنيّ إياك ومنازعة

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) جلله بردائه: غطاه ؛ وفي حديث علي : « اللهم جلّلْ قتلة عثمان خزياً » ، أي غطهم به وألبسهم إياه .
(٣) انتشطتا ، على البناء للمجهول ؛ انتزعتا واختلستا .

بنى هاشم فإنّهم لا يجهلون ما عَلِموا ، ولا يعدُ مُبغضهم لم سبًّا ، قال : «أمّا قوله : أبحرْبُ الذى أجرناه » ، فإنّ قريشا كانت إذا سافرت فصارتْ على العَقَبة لم يتجاوزها أحدٌ حتى تجوزَ قريش ، فخرج حربٌ ليلةً فلمّا صار على العَقَبة لقيَه رجلٌ من بنى حاجب بن زُرارة تميميّ فتنحنحَ حربُ بنُ أميّة وقال : أنا حرب بن أميّة ، فتنحنح التميميّ وقال : أنا ابن حاجب ابن زرارة ، ثم بدر فجاز العَقَبة ، فقال حرب : لاها اللهِ لا تدخل بعدها مكّة وأنا حيّ ! فمكث التميميّ حينًا لا يدخل ، وكان متجرُهُ بمكّة ، فاستشار بها بمن يستجير من حَرْب ، فأشيرَ عليه بعبدِ المطّلب أو بابنه الزّبير بن عبدِ المطلب . فركب ناقته وصار إلى مكة ليلا ، فدخلها وأناخَ ناقته بباب الزّبير بن عبد المطلب ، فرغت[1] الناقةُ ؛ فخرج إليه الزبير فقال : أمستجير فتجار ، أم طالبُ قرىً فتقرَى ! فقال :

لاقيتُ حَرْبًا بالثَّنيّة مُقبِلاً ... والليلُ أبلجَ نورُه للسّارى
فعلا بصوتٍ واكتنى ليروعَنى ... ودَعا بدَعْوة مُعلنٍ وشِعارِ
فتركتُه خلفى وجُزْتُ أمامَه ... وكذاكَ كنتُ أكونُ فى الأسفار
فمضى يهدّدنى ويمنع مكّةً ... ألّا أحُلّ بها بدارِ قَرارِ
فتركتُه كالكلبِ ينبح وحدَه ... وأتيتُ قَرْمَ مكارمٍ وفَخارِ[2]
لَيثًا هِزَبْرًا يُستجارُ بقربه ... رَحْبَ المَباءةِ مكرِمًا للجارِ[3]
وحلفتُ بالبيتِ العَتيقِ وحجِّه ... وبزمزمٍ والحِجْرِ والأستارِ
إنّ الزبير لَمانِعى بمهنّدٍ ... صافى الحديدة صارمٍ بتّارِ

فقال الزّبير : اذهَب إلى المنزل فقد أجرتُك. فلمّا أصبح نادى الزبير أخاه الغَيداق ،

---

(١) يقال : رغت الناقة ترغو رغاء : صوتت وضجت . وفى المثل : « كفى برغائها مناديا » ، أى أن رغاء الناقة يقوم مقام النداء فى التعرض للضيافة والقرى .
(٢) القرم من الرجال : السيد المعظم .
(٣) الهزبر : الأسد . والمباءة : المراح الذى تبيت فيه الإبل .

فخرجا متقلّدين سيفيهما ، وخرج التميمىّ معهما ، فقالا له : إنّا إذا أجرنا رجلا لم نمش أمامه ، فامش أمامنا ترمقك أبصارنا كى لا تُختلس من خلفنا . فجعل التميمىّ يشق مكة حتى دخل المسجد ، فلما بصُر به حرب قال : وإنك لهاهنا ! وسبق إليه فلطمه ، وصاح الزبيرُ : ثكلتك أمك ! أتلطمه وقد أجرتُه ! فثنّى عليه حرب فلطمه ثانية ، فانتضى الزبير سيفه ، فحمل على حرب بين يديه ، وسعى الزبير خلفه فلم يرجع عنه حتى هجم حرب على عبد المطلب دارَه ، فقال : ما شأنك ؟ قال : الزبير ، قال : اجلس ، وكفأ عليه إناء كان هاشم يهشم فيه الثّريد ، واجتمع الناسُ ، وانضمّ بنو عبد المطلب إلى الزبير ، ووقفوا على باب أبيهم بأيديهم سيوفهم ، فأزّر عبد المطلب حربا بإزار كان له ، وردّاه برداء له طرفان ، وأخرجه إليهم ، فعلموا أن أباهم قد أجاره .

وأما معنى قوله : « أم بأميّة الذى ملكناه (...) » ، فإن عبد المطّلب راهن أميّة بن عبد شمس على فرسين ، وجعل الخطر لمن سبقت فرسه مائةً من الإبل وعشرة أعبد وعشر إماء واستعباد سنة ، وجزّ الناصية . فسبق فرسُ عبد المطلب فأخذ الخطَر فقسمه فى قريش ، وأراد جزّ ناصيته ، فقال : أو أفتدى منك باستعباد عشر سنين ! ففعل ، فكان أميّة بعدُ فى حشم عبد المطلب وعضاريطه[1] عشر سنين .

وأما قوله : « أمْ بعبد شمس الذى كفناه ! » فإن عبد شمس كان مُملقا لا مالَ له ، فكان أخوه هاشم يكفله ويمونه إلى أن مات هاشم .

***

وفى كتاب " الأغانى " ، لأبى الفرج أنّ معاوية قال لدغفل[2] النّسابة : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيته ؟ قال : رأيته رجلا نبيلا جميلا وضيئا ، كأنّ على

---

(١) العضاريط : جمع عضرط ، وهو الرجل الذى يخدم بطعام بطنه .
(٢) فى الأصول : « دعفل » ، تصحيف ؛ وصوابه من الأغانى .

وجهه نورَ النبوة[1] . قال : أوَرأيت أميّة بن عبد شمس[2] ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيتُه رجلا ضئيلا[3] منحنيا أعمى يقوده عبدُه ذكوان ، فقال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو ، قال : أنتم تقولون ذلك ، فأمّا قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبدُه[4] .

***

ونقلتُ من كتاب " هاشم وعبدِ شمس " لابن أبي رُؤْبة الدبّاس .

قال : روَى هشامُ بنُ الكلبي عن أبيه ، أنّ نوفلَ بنَ عبد مناف ظلَم عبد المطلب ابن هاشم أركاحا له بمكّة — وهي الساحات — وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس ، وعبدُ المطلب يداً مع هاشم ، فاستنصر عبدُ المطلب قوماً من قومه فقصّروا عن ذلك ، فاستنجد أخواله من بني النجّار بيثْرِب ، فأقبل معه سبعون راكبا ، فقالوا لنوفل : لا والله يا أبا عديّ ، ما رأينا بهذا الغائطِ ناشئا أحسنَ وجها ، ولا أمدّ جسْما ، ولا أعفّ نفْسا ، ولا أبعدَ من كلّ سوء من هذا الفتى — يعنُون عبد المطلب — وقد عرفتَ قرابته منّا ، وقد منعتَه ساحاتٍ له ، ونحن نحبّ أن تردّ عليه حقّه ، فردّه عليه ، فقال عبدُ المطلب :

تأبَى مازنٌ وبنو عديّ وذُبيانُ بنُ تيْمِ اللاتِ ضَيْمِي
ورادتْ مالكٌ حتى تناهتْ ونكّب بعدُ نوفلُ عن حَرِيمي

قال : ويقال إنّ ذلك كان سبب محالَفة خزاعة عبد المطلب .

قال : وروَى أبو اليقظان سُحَيم بن حفص : أنّ عبد المطلب جمعَ بنيه عند وفاته — وهم عشرة يومئذ — فأمرَهم ونهاهم وأوصاهم وقال : إيّاكم والبَغيَ ، فوالله ما خلَق اللهُ شيئاً

(١) الأغاني : « من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس ، فقال : صفهما لي ، فقال . كان عبد المطلب أبيض مديد القامة حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كلهم أسد غابه » .

(٢) الأغاني : « قال : فصف لي أمية » . (٣) الأغاني « نحيف الجسم ضريراً » .

(٤) الأغاني ١ : ١٢ (طبعة دار الكتب) .

أعجل عقوبة من البَغْى ، وما رأيت أحداً بَقِيَ على البغى إلّا إخْوتَكم من بنى عبدِ شمس.

ورَوَى الوليدُ بنُ هشام بن قحذم ، قال : قال عثمان يوما : وددتُ أنّى رأيتُ رجلا قد أدرك الملوك يحدّثنى عمّا مضى ؛ فذُكِرَ له رجل بحضْرَ مَوْت ، فبعث إليه فحدّثه حديثا طويلا تركْنا ذِكْرَه - إلى أن قال : أرأيت عبد المطّلب بن هاشم؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلا قِعْدا [1] أبيضَ طويلا مَقْرونَ الحاجبين ، بين عينيه غُرّة يقال إن فيها بركة ، وإن فيه بركة ، قال : أفرأيت أميّة بنَ عبد شمس ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلا آدمَ دميما قصيرا أعمى يقال : إنه نَكِد ، وإن فيه نَكَدا ، فقال عثمان : « يكفيك من شرٍّ سماعُه [2] » وأمر بإخراج الرّجل .

ورَوَى هشامُ بنُ الكلبى أن أميّة بنَ عبد شمس لما كان غلاما ، كان يسرق الحاجَّ فسمّى حارِساً .

وروى ابنُ أبى رُؤْبة فى هذا الكتاب أنّ أوّل قَتيل قتلَه بنو هاشم من بنى عبدِ شمس عفيف بن أبى العاص بن أميّة ، قتله حمزةُ بن عبد المطلب ، ولم أقف على هذا الخبر إلّا من كتاب ابن أبى رؤبة .

قال : وممّا يصدّق قول من رَوَى أنّ أميّة بنَ عبد شمس استعبدَه عبدُ المطلب شعر أبى طالب بن عبد المطّلب حين تظاهرتْ عَبْد شمس ونَوْفل عليه وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحَصَروهما فى الشّعب ، فقال أبو طالب :

تَوالَى علينا مَوْليانا كِلاهُما ... إذا سُئلا قالا إلى غيرِنا الأمرُ
بلى لهما أمرٌ ولكنْ تَراجَمَا ... كما ارْتَجمتْ من رأس ذى القَلَع الصَّخْرُ
أخصّ خصوصاً عبد شمس ونَوْفلا ... هما نَبَذانا مثلَ ما تُنْبَذ الجمرُ
هُما أغْمَصا للقوم فى أخَوَيْهما ... فقد أصبحتْ أيديهما وهما صِفْرُ

(١) القعد : الحسن الهيئة .

(٢) مثل ، ولفظه فى مجمع الأمثال ١ : ١٩٤ : « حسبك من شر سماعه » ، وأول من قاله أم الربيع ابن زياد العبسى .

قديماً أبوهم كان عبداً لجدّنا بنى أمة شهلاء جاش بها البحرُ
لقد سفهوا أحلامهم فى محمدٍ فكانوا كجُمْرٍ بئس ما ضغطت جُمْرُ(١)

***

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبى عثمان ، وقد مزجه بكلام آخرلنا أولغير نا ممّن تعاطى الموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان : فإن قالت أميّة : لنا الوليد بنُ يزيد بن عبدالملك بن مرْوان بن الحكم ابن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ ، أربعة خلفاء فى نَسَق ، قلنا لهم : ولبنى هاشم : هارون الواثق بنُ محمّد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدىّ بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علىّ السجّاد ، كان يصلّى كلّ يوم وليلة ألف ركعة، فكان يقال له السجّاد لعبادته وفضله ، وكان أجمل قريش على وجه الأرض وأوسمها ، وُلِد ليلة قتل علىّ بن أبى طالب عليه السلام فسُمّى باسمه ، وكُنى بكنيته، فقال عبدالملك: لا والله لاأحتمل لك الاسم ولا الكنية ، فغيّر أحدهما، فغيّر الكنية فصيّرها أبا محمد بن عبد الله ، وهو البحر ، وهو حَبْر قريش ، وهو المفقّه فى الدين المعلّم التأويل ، ابن العباس ذى الرأى ، وحليم قريش ، بن شيبة الحمد ، وهو عبدُ المطلب سيّد الوادى بن عمرو ،وهو هاشم ، هَشَم الثّريد ، وهو القمر سمّى بذلك لجماله ، ولأنهم كانوا يقتدون ويهتدون برأيه، ابن المغيرة وهو عبدُ مناف ، بن زيد ، وهو قُصَىّ وهو مجمّع ، فهؤلاء ثلاثة عشر سيّداً لم يُخْرَم منهم واحد ، ولا قصّر عن الغاية ، وليس منهم واحد إلّا وهو ملقّب بلقب اشتقّ له من فعله الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة ،أو موضع للخلافة أو سيّد فى قديم الدهر منيع ، أو ناسك مُتقدّم ، أو فقيه بارع ، أو حليم ظاهر الرّكانة(٢) ؛ وليس هذا لأحد سواهم ، ومنهم خمسة خلفاء فى نَسَق ، وهم أكثرُ مما عدّته الأموية ، ولم يكن

---

(١) ضغطت : أحدثت ، والجمر : جمع جمراء ، وهي الاست .
(٢) الركانة : الوقار والهيبة .

مروانُ كالمنصور لأنّ المنصور ملكَ البلاد ودوّخ الأقطار ، وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنةً ، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كلّه ، وإنّما بقىَ فى الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأتُه عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من تعليها الأوّل : يابن الرّطبة . ولئن كان مرْوان مستوجباً لاسم الخلافة مع قلّة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلاً عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان ملكَ الأرض إلّا بعضَ الأردُنّ ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولادَه لما اتّصل سلطان مرْوان اتّصل عند القوم ما انقطع منه وأخفى موضعَ الوَهَن عند من لا علم له ، وسِنُو المَهْدى كانت سِنِى سلامة ، وما زال عبدُ الملك فى انتقاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هارون ، ولا مُلك الوليد كملك المُعتصم .

قلت : رحِمَ الله أبا عثمان ! لو كان اليومَ لعدّ من خلفاء بنى هاشم تسعةً فى نَسَق : المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدر . والطالبيّون بمصر يعدّون عشرةً فى نَسَق : الآمر بن المستعلى بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهدىّ .

قال أبو عثمان : وتفخَر عليهم بنو هاشم بأن سِنِى مُلكهم أكثر ، ومدّته أطول ، فإنّه قد بلغتْ مدّة مُلكهم إلى اليوم أربعا وتسعين سنة . ويفخرون أيضاً عليهم بأنّهم تمسّكوا بالميراث وبحقّ العصبة والعمومة ، وأن مُلكهم فى مَغرس نبوّة ، وأن أسبابهم غير أسباب بنى مروان ، بل ليس لبنى مرْوانَ فيها سبب ، ولا بينهم وبينها نَسَب ، إلا أن يقولوا : إنّا من قريش فيُساووا فى هذا الاسم قريش الظواهر ، لأن رواية الراوى : « الأئمة من قريش » واقعة على كلّ قرشىّ ، وأسباب الخلافة معروفة ، وما يدّعيه كلّ جيل معلوم ؛ وإلى كلّ ذلك قد ذهبَ الناس ، فمنهم من ادّعاه لعلىّ عليه السلام لاجتماع القرابة والسابقة والوصيّة ؛ فإن كان الأمرُ كذلك فليس لآل أبى سفيان وآل مروانَ فيها دعوى ، وإن كانت

إنما تُنال بالوراثة ، وتُستحقّ بالعمومة ، وتُستوجَب بحقّ العصبة ، فليس لهم أيضا فيها دعوى . وإن كانت لا تُنالُ إلّا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم فى ذلك قَدَم مذكور ، ولا يومٌ مشهور ، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقة ، ولم يكن فيهم مايستحقّون به الخلافة ، ولم يكن فيهم مايمنعهم منها أشدَّ لمنع ، لـكان أهوَن ، ولـكان الأمر عليهم أيسر ، قد عرفنا كيف كان أبو سُفيان فى عَداوة النبىّ صلّى الله عليه وآله وفى محاربته له ، وإجلابه عليه وغَزْوِه إيّاه ، وعرفنا إسلامه حيث أسْلَمَ ، وإخلاصه كيف أخلَص ، ومعنى كلمته يومَ الفتح حين رأى الجنود وكلامـه يومَ حنين ، وقوله يومَ صَعِد بلالٌ على الـكعبة ، فأذّن . على أنّه إنما أسلم على يدى العبّاس رحمه الله ، والعبّاس هو الذى مَنع الناسَ مِنْ قتله ، وجاء به رَدِيفا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسأله فيه أن يُشرّفه وأن يكرّمه وينوّه به ، وتلك يدٌ بيضاء ، ونعمة غَرّاء ، ومقامٌ مشهود ، ويومُ حُنَين غيرُ مجحود ، فـكان جزاه بنى هاشم من بنيه أن حاربوا عليّا ، وسمّوا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحَمَلوا النساء على الأقتاب حواسر[1] ، وكشفوا عن عَوْرة علىّ بن الحُسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يُصنَع بذرارىّ المشركين إذا دخلتْ دُورهم عَنوة ، وبعث معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى اليمن ؛ فقتل ابنى عبيد الله بن العبّاس ، وهما غلامان لم يبلغا الحُلُمَ ، وقتلَ عُبَيدُ الله بنُ زياد يوم الطّف تسعةً من صُلْب علىّ عليه السلام ، وسبعةً من صُلْب عَقيل ، ولذلك قال ناعيهم :

عَين جودِى بعَـبْرةٍ وعَويلِ ... واندبى إن نَدبتِ آلَ الرّسولِ

تسعـةً كلّهم لصُلْبِ علىّ ... قد أصيبوا وسبعة لعَقيـل

ثم إن أميّة تزعُم أنّ عَقِيلا أعان معاوية على علىّ عليه السلام ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالـكذب ! وإن كانوا صادقين فما جازَوْا عَقيلا بمـا صنع ! وضرب عُنُق مسلم

---

(١) حواسر : كواشف .

ابنِ عقيلٍ صَبْرًا وغَدْرًا بعد الأمان ، وقتلوا معه هانئَ بن عُرْوة لأنّه آواه ونصرَه ، ولذلك قال الشاعر :

فإن كنتِ لا تدرين ما الموتُ فانظُرِي ... إلى هانئٍ في السُّوق وابنِ عَقِيلِ[1]

ترَىْ بَطَلًا قد هَشَّم السيفُ وجهَه[2] ... وآخرَ يَهوِي من طَمَارِ قتيـــلِ

وأكلتْ هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهفُ النفاق ، ومنهم مَن نقَرَ بين ثنيَّتَي الحُسين عليه السلام بالقضيب ، ومنهم القاتلُ يومَ الحرّة عون بن عبد الله بن جعفر ، ويوم الطفّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر . وقتل يوم الحرّة أيضاً من بني هاشم الفضلُ بنُ عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والعبّاس بن عُتبة بن أبي لهب بن عبد المطّلب ، وعبد الرحمن بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطّلب .

* * *

قلت : إنّ أبا عثمان قايَسَ بين مدّتَي مُلْكهما وهو حينئذ في أيّام الواثق ، ففضل هؤلاء عليهم ، لأنّ مُلْكهم أطولُ من مُلْكهم بعشر سنين ، فكيف به لو كان اليوم حيٌّ ، وقد امتدّ مُلْكهم خمسمائة وستَّ عشرةَ سنةً ! وهذا أكثر من ملك البيت الثالث من ملوك الفُرس نحو ثلاثين سنة . وأيضاً فإن كان الفخرُ بطول مدّة الملك فبنو هاشم قد كان لهم أيضا ملكٌ بمصر نحو مائتين وسبعين سنة ، مع ما ملكوه بالمغرب قبل أن ينتقلوا إلى مصر .

* * *

---

(١) البيتان في اللسان ٦ : ١٧٤ ؛ ونسبهما إلى سليم بن سلام الحنفي .

(٢) اللسان : « قد عفّر السيف » . وطمار : المكان العالي ؛ قال صاحب اللسان : « وينشد من طمار بفتح الراء وكسرها ، مجرى وغير مجرى » قال : « ويروى : قد فرّج السيف وجهه » .

قال أبو عثمان : وقالت هاشمٌ لأميّة : قد علم الناسُ ما صنعتمْ بنا من القتل والتّشريد ، لا لذنب أتيناه إليكم ، ضربتمْ عليَّ بنَ عبدِ الله بن عبّاس بالسِّياط مرتين ، على أن تزوّج بنتَ عمّهِ الجعفرية التي كانت عند عبدِ الملك ، وعلى أن تَحكُمتموه قتل سليط ، وسممتُمْ أبا هاشم عبدَ الله بنَ محمد بنِ عليِّ بنِ أبي طالب عليه السلام ، ونبشتُم زَيْدا وصَلَبتموه ، وألقيتم رأسَه في عَرْصة الدار تُوطأ بالأقدام ، وينقُر دماغه الدَّجاج ، حتى قال القائل :

اطرُدِ الدِّيكَ عن ذُؤابة زَيْدٍ طالما كان لا تطأُه الدَّجاجُ

وقال شاعركم أيضا :

صلَبْنا لكم زَيْدا على جِذع نخلةٍ ولم نرَ مهديًّا على الجِذْع يُصلبُ
وقِسْتمْ بعثمانٍ عليًّا سفاهةً وعثمانُ خيرٌ من عليٍّ وأطيبُ

ورُوي أنّ بعض الصالحين من أهلِ البيت عليهم السلام قال : اللهمّ إن كان كاذبا فسلِّط عليه كلبا من كلابك ، فخرج يوماً بسفر له ، فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الإمام جعفراً الصادق عليه السلام ، وقتلتم يحيى بن زيد ، وسميتُم قاتله : ثائر مروان ، وناصر الدين ، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبلَ الخلافة ، وما صنع مروان بإبراهيم الإمام ، أدخل رأسه في جراب نُورة حتى مات ، فإن أنشدتُمْ :

أفاض المدامعَ قتلى كُدًى وقتلى بكُثْوةَ لم ترمسِ
وبالزّابيينِ نفوسٌ ثوتْ وأخرى بنهر أبي فطرسِ

أنشدْناكم :

واذكروا مصرعَ الحسين وزيدا وقتيلاً بجانب المهراسِ

والقتيلَ الذى بحرّان أمسىَ ثاوياً بين غربة وتناسى

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه ، وأنه كان رجلا لافقه له ، ولا يعرف بالزهد ولا الصلاح ، ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعد همة ، وإنما ولى رستاقا من رساتيق دار بجرد لابن عامر ، ثم ولى البحرين لمعاوية ، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبايع ابن الزبير حتى ردّه عبيد الله بنُ زياد ، وقال يوم مرج راهط ، والرءوس تندر[1] عن كواهلها فى طاعته :

وما ضرّهم عير حين النفو س وأىّ غلامَىْ قريش غلبْ

هذا قول من لا يستحق أن يلى ربعا من الأرباع ، ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد من قتلته النساء لكلمة كان حتفه فيها .

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريدُ رسول الله صلى الله عليه وآله ولعينه والمتخلج فى مشيته ، الحاكى لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، والمستمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريدا لأبى بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ، ولم يقبلا شفاعة عثمان ، فلمّا وُلِّىَ أدخله ، فكان أعظم الناس شؤما عليه ، ومن أكبر الحجج فى قتله وخلعه من الخلافة ، فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرقُ الناس فى الكفر لأن أحدَ أبويه الحكَم هذا ، والآخر من قبل أمّه معاوية بن المغيرة بن أبى العاص؛ كان النبىّ صلى الله عليه وآله طرده من المدينة ، وأجّله ثلاثا ، فحيّره الله تعالى حين خرج ، وبقى متردّدا متلدّدا حولها لايهتدى لسبيله ، حتى أرسل فى أثره عليّاً عليه السلام وعمّارا ، فقتلاه ، فأنتم أعرقُ الناس فى الكفْر ، ونحن أعرق الناس فى الإيمان ؛ ولا يكون أميرُ المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان ، وأقدمَهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفتخر هاشم بأن أحدا لم يجد تسعين عاما لا طواعين فيها إلا مذ ملكوا ، قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء بعمال الخراج

[1] تندر : أى تسقط فلا يحتسب بها .

بالتعليق والزَّهق والتحريد والتسهير والمسند والنورة والحورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيرا كثيرا ، وفى الطاعون يقول الصُّمَاِيّ الراجز يذكر دَوْلتنا :

قد رفعَ اللهُ رِماحَ الجنّ   وأذهبَ التعذيبَ والتَّجَنّى

والعرب تسمّى الطواعين رماحَ الجنّ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لعَمْرُكَ ما خَشيتُ على أُبَىّ   رماحَ بنى مقيّدة الحمارِ
ولكنّى خشيتُ على أُبَىّ   رماحَ الجنّ أو إياكَ حارِ

يقول بعضُ بنى أسد للحارث الغسانى الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشمُ عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة ، ولم يحوّلوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا فى أعناق الصحابة ، ولم يغيّروا أوقات الصلات ، ولم ينقشوا أكفّ المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم ينهبوا الحرم ، ولم يطئوا المسلمات دار فى الإسلام بالسِّباء .

* * *

قلت : نقلت من كتاب " افتراق هاشم وعبد شمس " لأبى الحسين محمد بن على بن نصر المعروف بابن أبى رؤبة الدباس قال : كان بنو أميّة فى ملكهم يؤذِّنون ويقيمون فى العيد ويخطبون بعد الصلاة ، وكانوا فى سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير فى الركوع والسجود ، وكان لهشام بن عبد الملك خصيٌّ إذا سجد هشام وهو يصلى فى المقصورة قال : لا إله إلاّ الله ؛ فيسمع الناس فيسجدون ، وكانوا يقعدون فى إحدى خُطبتى العيد والجمعة ويقومون فى الأخرى ، قال : ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعدا ، فقال : انظروا

إلى هذا يخطُب قاعدا ، والله تعالى يقول لرسوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾[١] .

قال : وأوّل من قعد فى الخطَب معاويةُ ، وأوّل من أذّن وأقام فى صلاة العيد بشرُ ابنُ مَرْوان ، وكان عمّال بنى أميّة يأخذون الجزية ممّن أسلم من أهل الذمّة ، ويقولون : هؤلاء فرّوا من الجزية ، ويأخذون الصدقة من الخيل ، ويتعاهدوا دار الرجل قد نَفَق[٢] فرسُه أو باعه ، فإذا أبصروا الآخية ، قالوا : قد كان هاهنا فرس ، فهات صدقتها ، وكانوا يؤخّرون صلاةَ الجمعة تشاغُلًا عنها بالخطبة ، ويُطيلون فيها ، إلى أن تتجاوز وقتَ العصر ، وتكاد الشمس تصفَرّ ؛ فعل ذلك الوليدُ بنُ عبدِ الملك ويزيدُ أخوهما والحجّاجُ عاملهم ، ووكّل بهم الحجّاج المسالحَ معه والسُّيوف على رءوسهم ، فلا يستطيعون أن يصلّوا الجمعة فى وقتها .

وقال الحسن البصرى : واعجبًا من أخيفش[٣] أعيمش جاءنا ففتنّا عن ديننا ، وصعد على منبرنا ، فيخطب والناس يلتفتون إلى الشمس ، فيقول : ما بالُكم تلتفتون إلى الشمس ! إنّا والله ما نصلّى للشمس ، إنما نصلّى لربّ الشمس ! أفلا تقولون : ياعدوّ الله ، إنّ لله حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقًّا بالنهار لا يقبله بالليل ؛ ثم يقول الحسن : وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كلّ واحد منهم عِلْج[٤] قائمٌ بالسيف !

قال : وكانوا يسبُون ذرارىّ الخوارج من العرب وغيرهم ؛ لما قتل قريب وزحّاف الخارجيّان ، سبى زياد ذراريّهما ، فأعطى شقيق بن ثور السدوسى إحدى بناتهما ، وأعطى عباد بن حُصين الأخرى . وسُبيتْ بنتٌ لعبيدة بن هلال اليشكرى ، وبنتٌ لقطرىّ ابن الفجاءة المازنىّ ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك ، واسمها أم سلمة ؛

(١) سورة الجمعة ١١ . (٢) نفق فرسه : أى مات .
(٣) الخفش بالتحريك : ضيق فى البصر وضعف فى العين . (٤) العلج : الرجل القوى الضخم .

فوطئها بملك اليمين على رأيهم ، فولدت له المؤمّل ، ومحمدا ، وإبراهيم ، وأحمد ، وحصينا؛ بنى عباس بن الوليد بن عبد الملك . وسُبِىَ واصلُ بن عمرو القنا واسترِق ، وسُبِىَ سعيدُ الصغير الحرورىّ واستُرِقّ ، وأم يزيد بن عمر بن هُبيرة ، وكانت من سَبْى عُمان الذين سباهم مجاعة ، وكانت بنو أمية تبيع الرجل فى الدَّيْن يلزمه وترى أنه يصير بذلك رقيقا.

كان معن أبو عمير بن معن الكاتب حرّا مولًى لبنى العنبر ، فبيعَ فى دَيْن عليه ، فاشتراه أبو سعد بن زياد بن عمرو العَتَكىّ ، وباع الحجاج علىّ بن بشير بن الماحوز لكونه قتلَ رسولَ المهلّب على رجلٍ من الأزد .

فأمّا الكعبة فإنّ الحجّاج فى أيام عبد الملك هدمها ، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ يصلى إذا صلّى أوقات إفاقته من السكر إلى غير القبلة ، فقيل له ، فقرأ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[1] .

وخطب الحجّاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبرَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة ، فقال : تبًّا لهم ! إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية ! هلّا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبدالملك ! ألا يعلمون أن خليفة المرء خيرٌ من رسوله !

قال : وكانت بنو أميّة تختم فى أعناق المسلمين كما توسَم الخيلُ علامةً لاستعبادهم . وبايع مسلمُ بنُ عقبة أهلَ المدينة كافّة، وفيها بقايا الصحابة وأولادها وصُلحاء التابعين على أن كلاً منهم عبد قِنّ[2] لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، إلّا علىّ بن الحسين عليه السلام ، فإنّه بايعه على أنه أخوه وابنُ عمّه

قال : ونقشوا أكفّ المسلمين علامةً لاسترقاقهم ، كما يُصنَع بالعُلوج من الروم والحبشة . وكانت خطباء بنى أميّة تأكل وتشرب على المنبر يوم الجمعة لإطالتهم

---

(١) سورة البقرة ١١٥ .

(٢) العبد القن : الذى ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك .

فى الحُطْبة ، وكان المسلمون تحتَ منبر الخُطبة يأكلون ويشربون .

* * *

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس عَلَى بنى مَرْوان ، وهاشمٌ عَلَى عبد شمس ؛ بأنّ المُلْكَ كان فى أيديهم فانتزعوه منهم ، وغلبوهم عليه بالبَطْش الشديد ، وبالحيلة اللطيفة ، ثم لم ينزعوه إلّا من يد أشجعهم شجاعة، وأشدّهم تدبيرا ؛ وأبعدهم غَوْرا ، ومن نشأ فى الحروب ورُبّىَ فى الثغور ، ومن لا يعرف إلا الفتوحَ وسياسةَ الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قوّاده ، فلم يغدر منهم غادِر ، ولا قصّر منهم مقصّر ، كما قد بلغك عن حنظلةَ بن نُباتة ، وعامر بن ضُبارة ، ويزيد بن عمر بن هُبيرة ، ولا أحدٍ من سائر قوّاده حتى من أصحابه وكُتّابه كعبدِ الحميد الكاتب ، ثم لم يلقَه ، ولا لقىَ تلك الحروبَ فى عامّة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علىّ ، وصالح بن علىّ ، وداود بن علىّ ، وعبدِ الصمد بن علىّ ، وقد لقيَهم المنصورُ نفسُه .

قال : وتفخر هاشمٌ أيضا عليهم بقول النبى صلى الله عليه وآله — وهو الصادق المصدّق : « نُقِلتُ من الأصلاب الزاكِية ، إلى الأرحام الطاهرة ، وما افترقتْ فرقتان إلا كنتُ فى خيرِها » . وقال أيضا : « بعثتُ من خِيرة قُريش » .

ومعلومٌ أن بنى عبدِ مناف افترقوا فكانت هاشمٌ والمُطّلب يداً ، وعبدُ شمسٍ ونَوْفل يداً . قال : وإن كان الفخر بكثرة العدَد فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولَدُ علىّ بنِ عبد الله بنِ العبّاس اليوم مِثل جميع بنى عبدِ شمس ، وكذلك وَلَدُ الحُسين بن علىّ عليه السلام ، هذا مع قُرب ميلادِهما ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : شوْهاء وَلُودٌ خيرٌ من حسْناء عقيم » . وقال : « أنا مكاثرٌ بكم الأمم » .

وقد روَى الشعبيُّ عن جابر بن عبد الله ؛ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قَدِم من سفر ،

فأراد الرجال أن يطرُقوا النساء ليلا ، فقال : « امهلوا حتى تمتشط[1] الشَّعِثة ، وتستحدّ[2] المغيبة ، فإذا قدمتم فالكيْس الكيْس » . قالوا : ذهب إلى طلب الولد ، وكانت العربُ تفخر بكثرة الولد ، وتمدح الفحل القبيس[3] ، وتذمّ العاقرَ والعقيم .

وقال عامرُ بنُ الطُّفيل يعني نفسَه :

لَبِئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً ‍ ‍ ‍ جباناً فما عُذْرِي لدى كلِّ مَحضَرِ !

وقال عَلْقمة بنُ عُلاثة يفخر على عامرٍ : آمنتُ وكَفَر ، ووفَيْتُ وغَدَر ، ووَلَدْت وعقر .

وقال الزِّبْرِقان :

فاسألْ بني سَعْدٍ وغيرَهُمُ ‍ ‍ ‍ يومَ الفخارِ فعندهمْ خُبْرِي

أيّ امرئٍ أنا حين يحضرني ‍ ‍ ‍ وَفْدُ العطاء وطالبُ النَّصْرِ

وإذا هلكتُ تركتُ وسْطَهُمُ ‍ ‍ ‍ ولدي الكرام ونابه الذِّكرِ[4]

وقال طرَفةُ بن العبد :

فلو شاء ربِّي كنت قيسَ بنَ خالدٍ ‍ ‍ ‍ ولو شاء ربِّي كنت عمرو بنَ مَرْثَدِ[5]

فأصبحت ذا مالٍ كثيرٍ وعادَنِي ‍ ‍ ‍ بنونَ كرامٌ سادةٌ لمسوَّدِ

ومدحَ النابغة الذُّبيانيُّ ناسا فقال :

لم يحرموا طِيبَ النساء وأمُّهم ‍ ‍ ‍ طفحتْ عليكَ بناتقٍ مِذْكارِ[6]

---

(١) تمتشط : ترجل شعرها وتصلحه . والشعثة : الملبدة الشعر .

(٢) المغيبة : التي غاب عنها زوجها . والاستحداد حلق العانة (٣) القبيس كأمير : الفحل السريع الإلقاح .

(٤) يقال : به فلان ؛ أي شرف فهو نابه ونبيه .

(٥) ديوانه ٥٨ .

(٦) ديوانه ٣٧ ، وروايته : « لم يحرموا حسن الغذاء » . وطفحت : اتسعت وعظمت . والناتق ، مأخوذ من نتق السقاء ، يقال : انتق سقاءك ، أي انفض ما فيه ، وإنما يريد أنها تنفض ما في رحمها . والمذكار : التي تلد الذكور .

وقال نهشل بن حَرِّيّ :

على نبيّ يشــدّ الله عظمَهم والنّبع يُنبت قضباناً فيكتهلُ

ومَكَثَ الفرزدق زمانا لا يُولَد له فعيّرته امرأتُه ، فقال :

قالت أراهُ واحـــداً لا أخالَه يؤمّله في الوارثين الأباعدُ[1]

لعلّكِ يوما أن تريني كأنّما بنيّ حَوالَيَّ الليوثُ الحوارِدُ[2]

فإنّ تميما قبلَ أن يلد الحصا أقام زماناً وهو في الناس واحدُ

وقال الآخر ، وقد مات إخوتُه ، وملأ حوضَه ليَسقِيَ ، فجاء رجلٌ صاحب عشيرة وعِترة ، فأخذ بضبعه فنحّاه ، ثم قال لراعيه : اسقِ إبلكَ :

لو كان حَوضَ حمارٍ ماشربت به إلّا بإذن حمارٍ آخِرَ الأبدِ

لكنّه حوضُ من أودى بإخوته رَيبُ المنونِ فأمسى بيضةَ البلدِ

لو كان يُشكى إلى الأمواتِ مالقِيَ أحياؤهم بعدَهم من قلّة العَدَدِ

ثم اشتكيت لأشكاني وأسعدني قبرٌ بسنجارَ أو قبرٌ على قَدِ[3]

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

ولستَ بالأكثر منهم حصًى وإنّما العِزّة للـــكاثرِ

قال : وقد وَلَدَ رجالٌ من العرب كلٌّ منهم يَلِد لصُلبه أكثرَ من مائة ، فصاروا بذلك مَفخراً ، منهم عبدُ الله بنُ عُمَير اللّيثيّ ، وأنسُ بنُ مالكٍ الأنصاريّ ، وخليفةُ بن بر السّعدي ، أتى على عامّتهم الموتُ الجارف . ومات جعفرُ بنُ سليمانَ بن عليّ بن عبدالله ابن العبّاس عن ثلاثة وأربعين ذكرا وخمس وثلاثين امرأةً كلّهم لصُلبه، فما ظنّك بمن مات من ولده في حياته ! وليس طبقة من طبقاتِ الأسنان الموتُ إليها أسرعَ ، وفيها أعمّ

---

(١) ديوانه ١٢٢ ، وروايته : « تقول أراه » .

(٢) الحوارد : المعتزلون ؛ ورواية الديوان :

فإنّ عسى أنْ تبصريني كأنّما بنيّ حوالَيَّ الأسودُ اللّوابدُ

(٣) سنجار : بلد على ثلاثة أيام من الموصل .

وأفشى من سِنّ الطفولية ، وأمرُ جعفر بن سليمانَ قد عاينه عالَمٌ من الناس ، وعامّتهم أحياء ، وليس خبر جعفر كخبرِ غيرِه من الناس .

قال الهيثم بنُ عَدِيّ : أحصى أُمَيّةُ إلى وَلَد العبّاسِ ، وجميع ولد العباس يومئذٍ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلا ، ومات جعفرُ بن سليمانَ وحدَه عن مثل ذلك العدد من الرجال . وممن قرُب ميلادُه وكثر نسلُه حتى صار كبعض القبائل والعمائر أبو بكر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمهلب بنُ أبي صُفرة ، ومُسلم بنُ عمرو الباهليّ ، وزياد ابن عبيد أميرُ العراق ، ومالكُ بن مِسمَع وولَدُ جعفر بنِ سليمانَ اليومَ أكثرُ عدداً من أهل هذه القبائل . وأربعةٌ من قريش ترك كلُّ واحد منهم عشرةَ بنين مذكورين معروفين وهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بنُ عبد شمس ، والمغيرةُ بنُ المغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم ، وليس على ظهر الأرض هاشميٌّ إلا من وَلَد عبد المطلب ، ولا يَشُكّ أحدٌ أن عدد الهاشميّين شبيه بعدد الجميع ، فهذا باب الكثرة والقلة .

قلتُ : رحمَ الله أبا عثمان ! لو كان حيٌّ اليومَ لرأى ولَدَ الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ أكثرَ من جميع العرب الذين كانوا في الجاهلية على عصرِ النبي صلى الله عليه وآله المسلمين منهم والكافرين ، لأنهم لو أحصُوا لما نقص ديوانُهم عن مائتي ألف إنسان .

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر بنبيل الرأى ، وصوابِ القول ، فمَنْ مثلُ عباس بن عبد المطلب وعبدِ الله بنِ العباس ! وإن كان في الحِكَم والسُّؤددِ وأصالةِ الرأى والعَناء العظيم فمن مثلُ عبدالمطلب ! وإن كان إلى الفقه والعِلمِ بالتأويل ومعرفةِ التأويل وإلى القياس السّديد وإلى الألسنة الحداد والخطَب الطِّوال ، فمن مثلُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعبدالله بن عباس !

قالوا : خطبنا عبد الله بنُ عباس خُطبةً بمكة أيام حصار عثمانَ لو شهدها التركُ والديلم لأسلموا .

وفى عبد الله بن العباس يقول حسّان بنُ ثابت :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ بمنتظماتٍ لا ترى بينها فَضْلا
شَفَى وكَفَى ما فى النفوس فلم يدَعْ لِذى إرْبَةٍ فى القول جِدًّا ولا هَزْلا

وهو البَحْر ، وهو الحَبْر ؛ وكان عُمرُ يقول له فى حَداثته عند إجالة الرأى : غُصْ ياغوّاص[1] ؛ وكان يقدّمه على جِلّة السَّلَف .

قلت : أبَى أبو عثمانُ إلا إعراضاً عن علىّ عليه السلام ، هلاّ قال فيه كما قال فى عبد الله ! فلعَمرى لو أراد لوَجَد مجالا ، ولألفَى قولا وَسيعا ؛ وهل تعلّم الناسُ الخطب والعُهود والفصَاحة إلّا من كلام علىّ عليه السلام ! وهل أخَذَ عبدُ الله رحمهُ الله الفقه وتفسير القرآن إلّا عنه ! فرَحم الله أبا عثمان ، لقد غلبت البصرةُ وطينتها على إصابة رأيه!

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر فى البسالة والنَّجدة وقَتْل الأقران وجزر الفُرْسان ، فمَنْ كحمزة بن عبد المطّلب وعلىّ بن أبى طالب ! وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال : أكْيَس ، وكان لا يرضَى أن يقول : شجاع ، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات ، فتقول: شجاع ، فإذا كان فوق ذلك قالت: بَطَل ، فإذا كان فوق ذلك قالت : بُهْمَة ، فإذا كان فوق ذلك قالت : أكْيَس . وقال العجّاج :

* أكْيَسُ عن حَوْبائه سَخِىّ *

وهل أكثر مايعدّ الناس من جَرْحاها وصَرْعاها إلا سادتكم وأعلامكم ! قتل حمزةُ وعلىّ عليه السلام عُتبة والوليد ، وقتلا شيبة أيضا ، شَرِكا عُبيدةَ بن الحارث فيه ؛ وقتل علىّ عليه السلام حنظلةَ بنَ أبى سُفيان . فَمَ[illegible] ملوككم من بنى مَرْوانَ فإنّهم كما قال

---

(١) يريد أنه درب بالأمور ، عارف بدقيقها وجليلها .

عبدُ اللهِ بن الزُّبير لمّا أتاه خبر المصعب : إنا والله ما نموت حَبَجاً[1] كما يموت آلُ أبي العاص ، والله ما قُتِل منهم قتيلٌ في جاهليّة ولا إسلام ، وما نموت إلا قتلا : قَعْصاً[2] بالرماح ، وموتاً تحتَ ظلال السّيوف .

قال أبو عثمان : كأنه لم يعدّ قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قتلا، إذ كان إنما قتل في غير معرَكة ، وكذلك قتل عثمان بن عفّان ؛ إذ كان إنّما قتل محاصَراً، ولا قتل مروان ابن الحكَم ؛ لأنه قتل خَنْقا ، خنقته النّساء . قال : وإنما فخر عبدُالله بنُ الزبير بما في بني أسد بن عبد العزى من القتل، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك ، كيف كانوا قاتلين أو مقتولين ، ألا ترَى أنّك لاتصيب كثرةَ القتلِ إلا في القوم المعروفين بالبأس والنَّجْدة وكثرة اللّقاء والمحارَبة ، كآل أبي طالب ، وآل الزّبير ، وآل المهلّب !

قال : وفي آل الزبير خاصةً سبعة مقتولون في نسق ولم يوجد ذلك في غيرهم ، قُتِل عمارةُ وحمزةُ ابنا عبدِ الله بن الزُّبير يومَ قُدَيد في المعركة ، قتلهما الإباضيّة ، وقُتِل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدَيْر الجاثليق[3] في المعركة أكرمَ قِتلة ، وبإزائه عبدُ الملك بنُ مروان ، وقُتِل الزّبير بوادي السِّباع مُنصرَفَه عن وقعة الجمل ، وقُتِل العوّام بنُ خُوَيلد في حرب الفِجار ، وقُتِل خُوَيلد بنُ أسد بن عبد العزّى في حرب خُزاعة ، فهؤلاء سبعة في نَسَق .

قال : وفي بني أسد بن عبد العُزّى قتلَى كثيرون غيرُ هؤلاء ، قُتِل المنذر بنُ الزّبير بمكّة، قتَلَه أهلُ الشام في حرب الحجّاج، وهو على بغل وَرْدٍ كان تيقتل به فأصعد به في الجبل.

---

(١) في الأصول : « حبحا » تحريف ؛ وفي اللسان : « أصبح متحبجين » ، من أكل العير لحاء الدرمج ويسمن عنه وربما بشم منه فقتله ، يعرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة » . وانظر نهاية ابن الأثير .

(٢) القعص : الموت الوحي ، يقال : مات قعصا ، إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

(٣) الجاثليق : رئيس النصارى في بلاد الإسلام .

وإياه يعني يزيد بن مفرّغ الحِمْيَريّ وهو يهجو صاحبَكم عُبيدالله بنَ زياد ويعيّره بفراره يومَ البصرة :

لَأبن الزبير غَدَاةَ تَذْمُر منذراً ... أوْلى بكلّ حفيظةٍ ودِفاعِ

وقُتِلَ عمرو بنُ الزبير، قتله أخوه عبدُ الله بنُ الزبير، وكان في جوار أخيه عُبيدة بن الزبير فلم يُغنِ عنه، فقال الشاعر يحرّض عبيدةَ على قتل أخيه عبد الله بن الزبير، ويعيّره بإخفاره جوارَ عمرو أخيهما :

أعُبيدَ لو كان المخير لَوَ اْوَلَتْ ... ـــدَ العدوُّ بَرِمَّةٍ أسماء

أعُبيد إنك قد أخرت وجارُكم ... تحتَ الصَّفيح تنوبه الأصداء[1]

اِضربْ بسيفك ضربةً مذكورة ... فيهـــا أداء أمانةٍ ووفاء

وقُتِل بُجيرُ بن العوام أخو الزبير بن العوّام، قتله سعدُ بنُ صفح الدَّوْسيّ جدُّ أبي هريرة من قِبَل أمّه، قتله ناحية اليمامة، وقُتل معه أصرم وبعكك أخويه ابني العوّام ابن خويلد، وقد قُتِل منهم في محاربة النبيّ صلى الله عليه وآله قومٌ مشهورون، منهم زَمْعــة بنُ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى، كان شريفــا، قُتل يومَ بدر، وأبوه الأسود، كان المثَل يُضرَب بمرتبته بمكة، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يذكر عاقر الناقة : «كان عزيزاً منيعا كأبي زمعة»، ويُبكّي زمعة بن الأسود أباحُكيمة، وقتل الحارث بنُ الأسود بن المطلب يوم بدر أيضا ؛ وقُتِل عبدُ الله بنُ حُميد بن زُهير بن الحارث ابن الأسود بن المطلب بن أسد يومَ بدر أيضاً، وقتِل نوفَل بنُ خُوَيلد يومَ بدر أيضا ؛ قتله عليّ بن أبي طالب عليــه السلام، وقتِل يومَ الحرّة يزيدُ بنُ عبد الله بن زمعة بن الأسوَد، ضرب عنقَهُ مُسرف بنُ عُقبــة صَبْراً[2] قال له : بايعْ لأمير المؤمنين يزيدَ

---

(١) الصفيح : الحجارة الرقاق ، والأصداء : جمع صدى ، وهو ما يرد على الصوت

(٢) صبرا ، أي حبسا .

ابن معاوية على أنك عبدٌ قِنٌّ له ، قال : بل أبايعه على أنى أخوه وابن عمّه ، فضربَ عنقه . وقُتِل إسماعيل بنُ هَبّار بنِ الأسود ليلا ؛ وكان ادّعى حِيلةً فخرج مُصرخا لمن استصرخه ؛ فقُتِل ؛ فاتّهم به مُصعَب بنُ عبد الله بن عبد الرحمن ، فأحلفه معاوية خمسين يمينا ، وخلّى سبيله ، فقال الشاعر :

ولا أجيب بليلٍ داعياً أبداً أخشى الغُرور كما غرّ ابن هَبّارِ
باتوا يجرّونه فى الحُشّ مُنعفِراً بئس الهديّة لابنِ العمّ والجارِ

وقُتِل عبدُ الرحمن بنُ العوّام بنِ خُوَيلد فى خلافة عمر بن الخطاب فى بعض المغازى، وقُتِل ابنُه عبدُ الرّحمن يومَ الدار مع عثمان ، فعبد الله بنُ عبد الرحمن بن العوّام بن خُوَيلد قتيلٌ ابنُ قتيل ابنِ قتيل ابنِ قتيلٍ أربعة . ومِنْ قتلاهم عيسى بنُ مُصعَب ابن الزبير ، قُتل بين يدى أبيه بمَسْكِنٍ[1] فى حرْب عبد الملك ، وكان مُصعَب [يُكنى أبا عيسى وأبا عبد الله وفيه يقول الشاعر] :

لِتَبكِ أبا عيسى ، وعيسى كلاهما موالى قُرَيشٍ كلُّها وصَميمُها

ومنهم مُصعَب بن عُكاشة بن مُصعَب بن الزّبير، قُتل يوم قُدَيد فى حرْب الخوارج ، وقد ذكره الشاعر فقال :

فَمَنْ فابكِيَنّ رِجالًا قُتِلوا بقُدَيدٍ ولنقصانِ العَدَدْ
ثم لا تَعدِلَنّ فيها مُصعَباً حين يُبكَى من قَتيلٍ بأحَدْ
إنّه قد كان فيها باسِلًا صارِمًا يَقْدُمُ إقدامَ الأسَدْ

ومنهم خالد بنُ عثمانَ بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمّد بن عبد الله بن حسن ابن حسن ، فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنهم عتيق بنُ عامر بن عبد الله بن الزّبير ، قُتل بقُدَيد أيضا ، وسُمّى عتيقا باسم جدّه أبى بكر الصّدّيق .

---

(١) مسكن ، كمسجد : موضع بالكوفة .

قلت : هذا أيضا من تحامُل أبي عثمان، هَلّا ذَكَر قَتلى الطفِّ وهم عشرون سيّدامن بيتٍ واحد قُتلوا في ساعة واحدة ! وهذا مالم يقع مثلهُ في الدّنيا لافي العَرَب ولافي العَجَم. ولما قُتل حذيفة بنُ بدر يومَ الهباءة[1] وقُتِل معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته ضَربتِ العربُ بذلك الأمثال واستَعظَموه ، فجاء يوم الطَّف ، « جرى الوادي فطمَّ على القَرِيّ[2] »

وهلّا عدد القَتلى من آل أبي طالب فإنهم إذا عُدُّوا إلى أيّام أبي عثمان كانوا عَدَدا كثيرا أضعاف ماذَكرمن قَتلى الأسديّين !

قالوا أبو عثمان : وإن كان الفخر والفضل في الجود والسَّماح فمن مثلُ عبدِ الله بن جعفر بن أبي طالب ! ومَن مِثلُ عُبيد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب !

وقد اعترضتِ الأمويّةُ هذا الموضع فقالت : إنما كان عبدُ الله بنُ جعفر يَهَب ما كان معاويةُ ويزيدُ يَهبان له ، فمِن فضل جُودِهما جاد.

قالوا : ومعاوية أوّلُ رجلٍ في الأرض وَهَب ألفَ ألفَ درهم ، وابنُه أوّل من ضاعَفَ ذلك ، فإنه كان يجيز الحسنَ والحسينَ ابني عليّ عليه السلام في كلّ عام لكلّ واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العبّاس وعبدَ الله بن جعفر، ولمّا مات وقامَ يزيدُ وفد عليه عبدُ الله بنُ جعفر ، فقال له : إنّ أميرَ المؤمنين معاوية كان يَصِل رَحِمي في كلّ سنة بألف ألفِ درهم ، قال : فلك ألفا ألفِ درهم ، فقال : بأبي أنتَ وأُمّي ! أما إني ماقلتُها لأحد قبلك ، قال : فلك أربعةُ آلاف ألفِ درهم. وهذا الاعتراض ساقط، لأن ذلك إن صَحّ لم يُعَدّ جُوداولا جائزةً ولا صِلةَ رَحِم ، هؤلاء

---

(١) يوم الهباءة من أيام العرب المشهورة .

(٢) قال صاحب مجمع الأمثال ١ : ١٥٨ : « أي جرى سيل الوادي فطم ، أي دفن ، يقال : طم السيل الركية ، أي دفنها . والقري : مجرى الماء في الروضة والجمع أقرية وقريان . ... أي أتى على القري ، يعني أهلكه بأن دفنه .

قومٌ كان يخافُهم على مُلْكِه ، ويعرف حقَّهم فيه ، وموقعهم من قلوب الأمّة ، فكان يدبّر في ذلك تدبيرا ، ويَريع[1] أمورا ، ويُصانع عن دولته وملكه ، ونحن لم نعدّ قطّ ماأعطى خلفاء بنى هاشم قوّادهم وكتّابهم وبنى عمّهم جُوداً ، فقد وهَب المأمونُ للحسَن ابنِ سَهل غلّة عشرةِ آلافِ ألفٍ فما عُدّ ذلك منه مكرمة ، وكذلك كلُّ مايكون داخلا فى باب التّجارة واستمالة القلوب ، وتدبير الدّولة ، وإنما يكون الجود مايدفعه الملوك فى الوفود والخطَباء والشعراء والأشرافِ والأدباء والسُّمّار ونحوهم ؛ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وَفّى الجندَ أعطياتِهم احتسب ذلك فى جُوده ؛ فالمالاتُ شىء والإعطاء على دَفْع المكروه شىء ، والتفضّل والجود شىء . ثمّ إنّ الّذين أعطاهم معاوية ويزيدُ هو بعضُ حقِّهم ، والذى فضَل عليهما أكثر ممّا خرج منهما .

وإن أريد الموازنة بين ملوك بنى العبّاس وملوك بنى أميّة فى العطاء افتضح بنو أميّة وناصرُوهم فضيحةً ظاهرة ، فإنّ نساء خلفاء بنى عبّاس أكثرُ معروفا من رجال بنى أميّة ، ولو ذكرتُ معروفَ أمّ جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بنى مَرْوان ، وذلك معروف ، ولو ذكر معروف الخيزُران وسَلْسَبيل لجاءت الطّوامير الكثيرة به ، ومانظُنّ خالصة مَوْلاتهم إلّا فوق أجواد أجوادِهم ، وإن شئتَ أن تذكُر مواليهم وكتّابهم فاذكُر عيسى بنَ ماهان ، وابنه عليًّا ، وخالد بن بَرْمَك وابنه يحيى ، وابنه جعفراً والفَضْل وكاتبهم منصورَ بنَ زياد ومحمّد بنَ منصور وفتى العسكر ، فإنّك تجد لكلّ واحد من هؤلاء مايحيط بجميع صنائع بنى عبد شمس .

فأمّا ملوكُ الأمويّة فليس منهم إلّا من كان يُبَخَّل على الطعام ، وكان جعفر بنُ سليمان كثيراً مايذكر ذلك ؛ وكان معاويةُ يُبغض الرّجلَ النَّهِم على مائدته ، وكان

---

(١) يريع : يريد .

المنصورُ إذا ذكرهم يقول : كان عبدُ الملك جباراً لا يُبالى ما صنع ، وكان الوليدُ مجنوناً ، وكان سليمان همُّه بطنُه وفرْجُه ، وكان عمر أعور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم ، وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام مع ما استثنناه به يقول : هو الأحول السَّرّاق ، ما زال يُدخل إعطاء الجند شهراً فى شهر وشهراً فى شهر ، حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة ، وأنشده أبو النجم العِجلى أرجوزته التى أولها :

* الحمد لله الوهوب المجزلِ *

فما زال يُصفِّق بيدَيْه استحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس ، فقال :

* والشمسُ فى الأفق كعَيْن الأحْوَلِ *

فأمر بوجْء[1] عنقه وإخراجه ، وهذا ضَعْف شديد ، وجَهْلٌ عظيم .

وقال خاله إبراهيم بنُ هشام المخزومى : ما رأيتُ من هشام خطأً قطّ إلا مرّتين : حَدَا به الحادى مرّة فقال :

إنّ عليكَ أيُّهـــا البُخْتىُّ   أكرمَ من تمشى به المطىُّ

فقال : صدقت . وقال مرّة : والله لأشكوَنّ سليمانَ يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبدِ الملك . وهذا ضَعف شديد ، وجهل مُفْرِط .

وقال أبو عثمان : وكان هشامٌ يقول : والله إنى لأستحيى أن أُعطِىَ رجلاً أكثر من أربعة آلاف دِرْهم ، ثم أعطى عبد الله بن حسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها فى جوده وتوسّعه ، وإنما اشترى بها ملكه ، وحصَّن بها على نفسه وما فى يديه . قال له أخوه مسلمة : أتطمع أن تلى الخلافة وأنت بخيل جبان ! فقال : ولكنى حليمٌ عفيف ، فاعترف بالجُبْن والبُخْل ؛ وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما ! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم ، والتَّغرير الشديد . ولو سلمتْ من الفساد لم تسلم من العَيْب .

---

(١) الوجء : الضرب .

ولقد قدّم المنصورُ عليهم عمرَ بنَ عبد العزيز بقوله : أعورُ بين عُميان ؛ وزعمَ أنه كان ناسكاً ورعاً تقيّاً ، فكيف وقد جلد خُبَيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدةٍ ، وصبّ على رأسه جرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ ، حتى كُزّ[1] فمات ، فما أقرّ بدمه ، ولا خرج إلى وليّه من حقّه ، ولا أعطى عقلاً ولا قوداً ؛ ولا كان خُبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصُه ؛ فيقال : كان مطيعاً بإقامتها ، وأنه أزهقَ الحدُّ نفسه ! واحتسبوا الضرب كان أدباً وتعزيراً ، فما عذره في الماء البارد في الشتاء ، على أثر جلد شديد ! ولقد بلغه أنّ سليمان بن عبد الملك يوصي ، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه ، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر ، أو تشير بي في هذا الشأن ؛ فوالله ما لي عليه من طاقة ! فقال له رجاء : قاتلك الله ؛ ما أحرصك عليها !

ولما جاء الوليدَ بن عبد الملك نعي الحجّاج ؛ قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلاً منّا أهلَ البيت ! وقال في خلافته : لولا بيعةٌ في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق ، وبين أحمس قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر ؛ فما كان عليه من الضرر والحرج ، وما كان عليه من الوَكَف[2] والنقص أن لو قال : بين عليّ بن العباس وعليّ بن الحسين بن عليّ ! وعلى أنه لم يرد التيميّ ولا العدويّ ، وإنما دبّر الأمر للأموي ، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصلح للشورى ، ثم دبّر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجل بالسم.

وقدِم عليه عبدُ الله بنُ حسن بن حسن ، فما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه

---

(١) كُزّ ، أي أصابه كزاز ؛ كغراب ورمان ؛ وهو داء يجيء من شدة البرد .
(٢) الوكف ، محركة : الإثم .

وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفى صدور المؤمنين لم يدَعه يبيتُ بالشام ليلة واحدة ، وقال له : الحق بأهلك ، فإنك لم تعبهم شيئاً هو أمس منك ولا أَرَدّ عليهم من حياتك . أخافُ عليك طواعين الشام ، وستلحقك الخوارج على ما تشتهى وتحبّ . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه ، فلعله يبذُر فى قلوبهم بذرا ، ويغرس فى صدورهم غَرْسا ، وكان أعظم خلق قوْلا بالجبر حتى يتصور الجهمية ، ويُربى على كلّ ذى غاية ، صاحب شُنْعة ، وكان يصنع ذلك الكُتُب ، مع جهله بالكلام وقلّة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شوْذَب الخارجىّ . لم لا تلعن رَهطَك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة جَرَة ؟ فقال عمر : متى عهدُك بلعن فرعون ؟ قال . مالى به عهد . قال : أفيَسَعك أن تُمسك عن لعن فرعون ، ولا يسَعُنى أن أمسك عن لعن آبائى ! فرأى أنه قد خصَمه[1] وقطع حجّته ، وكذلك يظنه كلّ من قصر عن مقدار العالِم ، وجاوز مقدار الجاهل ، وأىّ شبه لفرعون بآل مروان وآل أبى سفيان ! هؤلاء قومٌ لهم جِرْمٌ وشيعة ، وناسٌ كثيرٌ يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشُّبه فى أمرهم ، وفرعونُ على خلاف ذلك ، وضِدّه لا شيعة له ولا حرث ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا فى أمره شُبْهة . ثم إنّ عمر ظَنِين[2] فى أمر أهله فيحتاج إلى غسْل ذلك عنه بالبراءة منهم ، وشوْذَب ليس بظنين فى أمر فرعون ، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج ، فكيف استويا عنده !

وشكا إليه رجلٌ من رَهطه دَيْنا فادحاً ، وعيالا كثيرا ؛ فاعتلّ عليه ، فقال له : فهلاّ اعتللتَ على عبد الله بن الحسن ! قال : ومتى شاورتك فى أمرى ! قال : أو مشيرا

(١) خصمه : غلبه . (٢) الظنين : المتهم .

ترانى ! قال . أو هل أعطيته إلاّ بعض حقه ! قال : ولم قصّرت عن كلّه ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروما منه .

وكان عُمّال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذى حسن أمره ، وشبّه على الأغبياء حاله ، أنه قام بعقب قوم قد بدّلوا عامة شرائع الدين وسُنن النبى صلى الله عليه وآله ، وكان الناسُ قبله من الظلم والجور والتّهوين بالإسلام فى أمرٍ صغّر فى جنبه عايشوا منه ، وألفوه عليه ، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة فى عدادِ الأئمة الراشدين ، وحَسْبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليّا عليه السلام على منابرهم ، فلما نهى عمرُ عن ذلك عُدّ محسنا ، ويشهد لذلك قولُ كُثيّر فيه :

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عليًّا ولم تُخِفْ ... بَرِيًّا ولم تتبع مقالة مجرمِ

وهذا الشعر يدلّ على أن شتم علىٍّ عليه السلامِ قد كان لهم عادة ، حتى مدح من كفّ عنه ؛ ولما ولِّىَ خالد بن عبد الله القَسْرِىّ مكةَ — وكان إذا خطب بها لعن عليّا والحسن والحسين عليهم السلام — قال عبيد الله بن كثير السهمىّ :

لعنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ عليًّا ... وحُسَيْناً من سُوقَةٍ وإمامِ

أَيُسَبُّ المطَهَّرونَ جُدُوداً ... والكرامُ الآباءِ والأعمامِ

يأمَن الطيرُ والحمامُ ولا يأ ... مَنُ آلُ الرسولِ عند المقامِ !

طبتَ بيتاً وطابَ أهلك أهلاً ... أهلُ بيتِ النبيّ والإسلامِ !

رحمةُ اللهِ والسلام عليهمْ ... كلَّما قام قائمٌ بسلامِ !

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان — وكان ممن يناله برعمهم إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يخطب على المنبر بعرفة — فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يومٌ كانت

الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تُرَاب [1] ، فقال هشام : ليس لهذا جئنا ، ألا ترى أنّ ذلك يدلّ على أنه قد كان لَعْنُهُ فيهم فاشياً ظاهرا ، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليًّا عليه السلام ويقول : قتل جَدَّىَّ جميعا ؛ الزبير وعثمان .

وقال المُغيرة وهو عاملُ معاوية يومئذ لصعصعة بن صُوحان : قُمْ فالعن عليًّا ، فقام فقال : إنّ أميرَكم هذا أمرني أن ألعن عليًّا ، فالعَنُوه لعنه الله ! وهو يُضمِر المغيرة .

وأما عبدُ الملك فحسبك من جهله تبديله شرائع الدِّين والإسلام ، وهو يريد أن يَلِيَ أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ، وحَسْبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منابره ، ويَرْمِي بالفجور في مجالسه ، وهذا قُرّة عين عدوّه وغيْظ وليّه ، وحسبك من جهله قيامُهُ على منبر الخلافة قائلا : إني واللهِ ما أنا بالخليفة المستضعَف ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون [2] . وهؤلاء سَلَفُه وأئمّته ، وبشُفعتهم قامَ ذلك المقام ، وبتقدُّمهم وتأسيسهم نال تلك الرياسة ، ولولا العادةُ المتقدّمة ، والأجناد المجنّدة ، والصنائع القائمة ، لكان أبعدَ خلق اللهِ من ذلك المقام ، وأقربَهم إلى الهَلَكة إنْ رام ذلك الشَّرف . وعنى بالمستضعَف عثمان ، وبالمداهِن معاوية ، وبالمأفون يزيدَ بنَ معاوية ؛ وهذا الكلامُ نقضٌ لسُلْطانه ، وعداوةٌ لأهله ، وإفسادٌ لقُلوب شيعتِهِ ، ولو لم يكن من عجْز رأيه إلا أنه لم يَقدِر على إظهار قوّته ، إلا بأن يظهر عجزَ أئمته لكفاك ذلك منه . فهذا ما ذكرته هاشمٌ لأنفسها .

[مفاخر بني أميّة]

قالت أميّة : لنا من نوادر الرِّجال في العَقْل والدَّهاء والأدب والمكْر ما ليس لأحد ،

(١) أبو تراب : من كنى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .
(٢) المأفون : الضعيف .

ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد ، زعم الناسُ أنّ الدُّهاة أربعة: معاوية بن أبى سفيان ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة، فمنّا رجلان ، ومن سائر الناس رجلان . ولنا فى الأجواد سعيدُ بنُ العاص ، وعبدُ الله بنُ عامر ؛ لم يوجد لهما نظيرٌ إلى الساعة . وأمّا نوادر الرجال فى الرأى والتدبير فأبو سفيان بن حرب ، وعبدُ الملك ابنُ مروان ، ومسلمة بنُ عبد الملك، وعلى أنّهم يُعدّون فى الحلماء والرؤساء، فأهلُ الحجاز يضربون المثل فى الحلم بمعاوية ، كما يضرب أهلُ العراق المثل فيه بالأحنف .

فأما الفتوح والتدبيرُ فى الحرب فمعاويةَ غير مُدافَع ؛ وكان خطيبا مِصقعا ، ومُجرَّبا مظفّرا ، وكان يجيد قولَ الشعر إذا آثر أن يقوله، وكان عبدُ الملك خطيبا حازما مجرَّبا مظفّرا، وكان مسلمةُ شجاعاً مدبّرا وسائساً مقدَّما ، وكثيرَ الفتوح كثيرَ الأدب . وكان يزيدُ بنُ معاويةَ خطيباً شاعرا ، وكان الوليدُ بنُ يزيد خطيبا شاعرا ، وكان مروانُ بنُ الحكم وعبدُ الرحمن بنُ الحكم شاعرَين ، وكان بشرُ بنُ مروانُ شاعرا ناسبا ، وأديبا عالماً ؛ وكان خالدُ بن يزيد بن معاويةَ خطيباً شاعرا ، جيّدَ الرأى ، أديبا كثيرَ الأدب ، حكيما ؛ وكان أوّلَ من أعطى التراجمةَ والفلاسفة ، وقرّب أهلَ الحكمة ورؤساء أهل كلّ صناعة ، وترجَم كتبَ النجوم والطبّ والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات .

قالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعةَ فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ابن محمد ، وأبوه محمد بنُ مروان بن الحكم ، وهو صاحبُ مُصعَب ، وهؤلاء قومٌ لهم آثار بالروم لا تُجهَل، وآثارٌ بأرمينية لا تُنكَر، ولهم يوم العَقْر ؛ شهده مسلمة والعباس ابنُ الوليد .

قالوا : ولنا الفتوح العظام ، ولنا فارس ، وخُراسان ، وأرمينيَة ، وسجستان ، وإفريقيَة ، وجميع فُتوح عثمان ؛ فأما فُتوحُ بنى مروان فأكثر وأعمّ وأشهر من أن

تحتاج إلى عدد أو إلى شاهد . والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خفٍّ وحافر أن يبلغه؛ حتَّى لم يحتجز منهم إلَّا ببحر أو خليج بحر أو غِياض أو عقاب أو حصون وصَياصي ثلاثة رجال : قُتيبةُ بنُ مسلم بخراسان ، وموسى بنُ نُصَير بإفريقيَة ، والقاسمُ ابنُ محمد بن القاسم الثقفي بالسِّند والهند ؛ وهؤلاء كلُّهم عمَّالنا وصنائعنا . ويقال : إن البَصرة كانت صَنائع ثلاثة رجال : عبدالله بن عامر ، وزياد ، والحجّاج ، فرجلانِ من أنفسِنا والثالث صَنيعُنا .

قالوا : ولنا في الأجواد وأهلِ الأقدار بنو عبدِ الله بن خالد بن أسيد بن أميّة ، وأخوه بخالد ، وفي خالدٍ يقول الشاعر :

إلى خالدٍ حتّى أنخنا بخالدٍ ... فنِعمَ الفتى يُرجَى ونِعمَ المؤمَّلُ !

ولنا سعيد بنُ خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وهو عَقيد النَّدى ، كان يَنبُت ستّة أشهرُ ويُفيق ستّة أشهرُ ، ويُرى كَحيلا من غير اكتحال ، ودَهينا من غير تدهين ؛ وله يقول موسى شَهَوات :

أبا خالدٍ أعنى سعيـــدَ بنَ خالدٍ ... أخا العُرْف لا أعنى ابنَ بنت سَعيدِ[1]

ولـكنّنى أعنِى ابنَ عائشةَ الّذِى ... أبو أبوَيْه خالدُ بن أسيـــدِ

عَقيد النّدَى ما عاشَ يَرضَى به النّدَى ... فإن مات لم يَرضَ النَّدَى بعَقيدِ[2]

قالوا : وإنّما تمـكّن فينا الشّعر وجاد ، ليس من قِبَلِ أنّ الذين مدَحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولـكن لما وَجَدوا فينا ممّا يتّسع لأجله القوْل ، ويصدق فيه القائل . قد مدح عبدالله بن قيس الرُّقيّات من الناس : آل الزبير عبدالله ومُصعبا وغيرهما ، فكان يقول كما يقول غيرُه ، فلمّا صار إلينا قال :

ما نَقَمُوا من بنى أُميّة إلّا ... أنّهم يحلُمون إن غضِبوا[3]

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٥٢ (طبعة دار الـكتب) .

(٢) عقيد الندى : الـكريم بطبعه .

(٣) ديوانه ٤ .

وأنهمْ مَعْدِنُ المُلوكِ فما تَصلُح إلّا عليهمُ العرَبُ

وقال نُصَيْب :

مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الذين إذا انتَحَوْا أقرّتْ لنَجْواهم لؤىُّ بنُ غالبِ[1]

يُحَيُّون بَسّامِين طَوْراً وتارةً يُحَيُّونَ عَبّاسِين شُوسَ الحواجبِ[2]

وقال الأخطل :

شُمْسُ العَداوةِ حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَروا[3]

قالوا : وفينا يقول شاعرُكم والمتشيِّع لكم، الكُمَيت بنُ زيد :

فالآنَ صِرْتَ إلى أُمَيَّـةَ والأُمُورُ لها مَصايِرْ[4]

وفى معاوية يقولُ أبو الجَهْم العَدَوِىّ :

نُقَلِّبُه لنَخْبُرَ حالَتَيْه فنَخْبُرُ منهما كَرَماً ولِينا

نَميلُ على جَوانِبِه كأنّا إذا مِلْنا نَميلُ على أبِينا

وفيه يقول :

تَرِيع إليه هَوادِى الكلامِ إذا ضلّ خُطبتَه المِهذَرُ[5]

قالوا : وإذا نظرتم فى امتداح الشعراء عبد العزيز بن مروان عرفتم صدقَ ما نقوله.

قالوا : وفى إرسال النبىّ صلّى الله عليه وآله إلى أهلِ مكّة عثمانَ ، واستعمالِه عليها عتّاب بنَ أسيد وهو ابنُ اثنتينِ وعشرين سنة دليلٌ على موضع المَنعة أن تُهاب العرب وتعزّ قريش ؛ وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله قبل الفتح : « فتيان أضَنّ بهما على النّار : عَتّاب بنُ أسيد ، وجُبَير بنُ مُطعِم » فولّى عتّابا ، وترك جبيرَ بنَ مطعِم .

(١) الشم : جمع أشم ، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس .
(٢) شوس : جمع أشوس ؛ والشوس بالتحريك : النظر بمؤخر العين تكبرا وغيظا .
(٣) ديوانه ١٤ ، وشمس ، جمع شموس ؛ وهو الرجل العسر فى عداوته ؛ الشديد الخلاف على من عانده .
(٤) الأغانى ١٥ : ١١١ ، وروايته : « والأمور إلى المصاير » .
(٥) المهذر : الكثير الخطأ فى الكلام .

وقال الشَّعبيّ : لو وُلِد لى مائةُ ابنٍ لسمَّيتُهم كلَّهم عبدَ الرحمن ؛ للذى رأيتُ فى قُرَيش من أصحاب هذا الاسم ، ثم عدَّ عبدَ الرحمن بنَ عتّاب بن أسيد ، وعبدَ الرحمنَ بنَ الحارث ابن هشام ، وعبدَ الرحمن بن الحَكَم بن أبى العاص ؛ فأمّا عبد الرحمن بنُ عتّاب فإنّه صاحبُ الخيل يومَ الجمل ، وهو صاحبُ الكفّ والخاتَم ، وهو الذى مرّ به علىٌّ وهو قتيلٌ فقال : لَهفى عليكَ يَعسوبَ قريش ، هـذا اللُّباب المَحْض من بَنِى عبدِ مناف ! فقال له قائل : لشدَّ ما أبَنْتَه اليومَ يا أمـير المؤمنين ! قال : إنّه قام عنّى وعنه نسوةٌ لم يَقُمن عنك .

قالوا : ولنا من الخُطَباء معاويةُ بن أبى سفيان ، أخطبُ الناس قائمًا وقاعدا ، وعلى منبرٍ ، وفى خُطبةِ نِكاح . وقال عمر بنُ الخطّاب : ما يتصعّدنى شىء من الكلام كما يتصعّدنى خطبة النِّكاح ، وقد يكون خطيبًا مَن ليس عنده فى حديثه ووصفِه للشىء أحتجاجه فى الأمر لسانٌ بارع . وكان معاويةُ يجرى مع ذلك كلِّه .

قالوا : ومِن خُطَبائنا يزيدُ بنُ معاوية ، كان أعرابىَّ اللِّسان ، بَدَوِىَّ اللَّهجة . قال معاوية : وخطب عنده خطيب فأجاد : لأرمينّه بالخطيب الأشدق يريد يزيد بن معاوية .

ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتحبيره تحبير ، ولا كارتجاله ارتجال .

ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه ، فسمع كلامه ، فقال : إن ابن سعيد هذا الأشدق .

وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوكَ ؟ قال : إن أبى أوصى إلىَّ ولم يوص بى . قال : فبم أوصى إليك ؟ قال : ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومنا سعيدُ بن عمرو بن سعيد ، خطيبُ ابنُ خطيب ابنِ خطيب ، تكلّمَ الناسُ عند عبد الملك قياما وتكلم قاعدا . قال عبدُ الملك : فتكلم وأنا والله أحبّ عثرته وإسكاته ، فأحسنَ حتى استنطقته واستزدته ؛ وكان عبد الملك خطيباً ، خطب

الناسَ مرة فقال : ماأنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منّا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمرَ في أنفسهما ورعيّتهما ، ولم تسيرُوا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعيّة أبي بكر وعمرَ فيهما وفي أنفسهما ، ولكلٍّ من النَّصفة نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة .

قالوا : ولنا زيادٌ وعبيد الله بنُ زياد ، وكانا عَنِيَّيْن في صحة المعاني ، وجودة اللفظ ، ولهما كلامٌ كثير محفوظ .

قالوا : ومِن خطبائنا سليمان بنُ عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ومن خُطبائنا ونُسّاكِنا يزيدُ بنُ الوليد الناقص . قال عيسى بن حاضر : قلتُ لعمرو بن عُبيد : ماقولك في عمرَ بن عبد العزيز ؟ فكلَحَ [١] ، ثم صرَف وجهه عنّي . قلتُ : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل ، وعَمِل بالعدْل ، وبذَل نفسه وقتل ابن عمِّه في طاعة ربه ، وكان نَكالاً لأهله ، ونَقَضَ من أعطياتِهم ماردّته الجبابرة ، وأظهرَ البراءة من آبائه ، وجعل في عهده شَرْطاً ولم يجعله حَزْماً ؛ لا والله لكأنه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريدُ الحسن البصري - قال : وكان الحسن من أنطق الناس .

قالوا : وقد قُرِئ في الكُتُب القديمة : يامبذّر الكنوز ، ياساجداً بالأسحار ، كانت ولايتك رحمةً بهم ، وحجّة عليهم . قالوا : هو يزيد بنُ الوليد .

ومن خطبائنا ثمّ من ولد سعيد بن العاص عَمرو بنُ خَوْلة ، كان ناسبا فصيحا خطيبا .

وقال ابن عائشة الأكبر : ماشهد خطيباً قطّ إلّا وتلجلج هيبةً له ومعرفةً بانتقاده .

ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بنُ عبدالله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس ، وأبيَن الناس ، كان مسلمة بنُ عبدالملك يقول : إني لأُنحي كور عِمامتي على أذُني لأسمع كلام عبد الأعلى .

---

(١) كلح ، كشر : كشر في عبوس .

وكانوا يقولون : أشبه قريش نعمةً وجهارةً واقتداراً وبياناً بعمرو بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله .

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا الوليدُ بنُ عبدِ الملك ، وهو الذى كان يقال له فحل بنى مروان ، كان يركب معه ستون رجلا لصُلبه .

ومن ذوى آدابنا وعلمائنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والأنساب بِشْرُ بن مروان أميرُ العراق .

قالوا : ونحن أكثرُ نُسّاكاً منكم ، منّ معاوية بنُ يزيد بن معاوية ، وهو الذى قيل له فى مَرَضه الذى مات فيه : لو أقمتَ للناس وليَّ عهد ؟ قال: ومن جَعل لى هذا العهد فى أعناق الناس! والله لولا خَوْف الفتنة لما أقمت عليها طَرْفة عين ، والله لا أذهب بمرارتها، وتذهبون بحلاوتها ؛ فقالت له أمّه : لوددتُ إنك حَيضة ، قال : أنا والله وددت ذلك.

قالوا : ومنّا سليمان بن عبد الملك الذى هدَم الديماس [1] وردّ المسيَّرين ، وأخرج المسجُونين ، وترك القريب . واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلا صاحب سلامة ودَعة وحبٍّ للعافية وقرب من الناس ، حتى سُمِّىَ المهدىَّ ، وقيلت الأشعار فى ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز ، شبه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر ، وباسمه سُمِّىَ ؛ وهو أشجّ قريش المذكور فى الآثار المنقوله فى الكُتب، العدل فى أشدّ الزمان، وظلَف [2] نفسه بعد اعتياد النّعم ، حتى صار مثلا ومفخَرا . وقيل للحسن : أما رويتَ أن رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : لا يزداد الزّمان إلّا شِدّة ، والناس إلّا شُحًّا ، ولا تقوم الساعةُ إلّا على شرار الخلق ! قال : بلى ؛ قيل : فما بال عمرَ بن عبد العزيز وعدله

---

(١) الديماس : سجن كان للحجاج .

(٢) ظلف نفسه : منعها .

وسيرته ! فقال : لابدّ للناس من متنفَّس . وكان مذكورا مع الخطباء ، ومع النُّسَّاك ، ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبدُ الملك بن عمرَ بن عبد العزيز ، كان ناسكا زكيّا طاهرا ، وكان من أتقى النّاس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً مايعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعوص ، إسماعيل بن أمية ابن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ وهو الذى قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلىّ من الأمر شيء لجعلتُها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص .

قالوا : ومن نُسّاكنا أبو حراب من بنى أمية الصغرى ، قتله داود بن علىّ ، ومن نُسّاكنا يزيد بنُ محمد بن مروان ، كان لا يُهدِب [1] ثوبا ولا يصنفه ، ولا يتحلّق بخَلوق [2] ، ولا اختار طعاما على طعام ، ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلّف ، وينهى عنه .

قالوا : ومن نُسّاكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ؛ أراد عمر أخوه أن يجعله ولىّ عهده لما رأى من فضله وزهده ، فسما فيهما جميعا .

ومن نُسّاكنا عبد الرحمن بنُ أبان بن عثمان بن عفّان ، كان يصلّى كلّ يوم ألف ركعة ، وكان كثير الصدقة ، وكان إذا تصدّق بصدقة قال : اللهمّ إنّ هذا لوجهك ، فخفِّف عنّى الموت . فانطلق حاجّا ، ثم تصبّح بالنوم فذهبوا يُنبِّهونه للرّحيل ، فوجدوه ميتا ، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعبُ فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبّة من طين ، فالتدم [3] مع النِّساء ، وكان إليه محسنا .

ومن نُسّاكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

---

(١) يهدب : يقطع .

(٢) الخلوق : الطيب .

(٣) التدم مع النساء : ضرب صدره معهن فى النياحة .

قالوا : فنحن نعدّ من الصلاح والفضل ما تجمعونه ، وما لم نذكره أكثر ، وأنتم تقولون : أميّــة هى الشجرة الملعونة فى القرآن ، وزعمتم أنّ الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيّب ، كما أنّ الطيّب لا يثمر الخبيث ، فإن كان الأمر كما تقولون ، فعثمانُ بنُ عفّانَ ثمرةٌ خبيثة . وينبغى أن يكون النبي صلى الله عليه وآله دفع ابنتيه إلى خبيث ، وكذلك يزيدُ بن أبى سفيان صاحبُ مقدّمة أبى بكر الصدّيق على جيوش الشام ، وينبغى لأبى العاص بن الربيع زوج زينبَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون كذلك ، وينبغى لمحمد ابن عبد الله المدبّج أن يكون كذلك ، وإن ولدته فاطمةُ عليها السلام ، لأنّه من بنى أمية ، وكذلك عبدُ الله بنُ عثمان بنِ عفّان سِبطُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، الذى مات بعد أن شدَن[1] ونقر الديكُ عينه فمات ، لأنّه من بنى أمية ، وكذلك ينبغى أن يكون عتّاب بنُ أسيد بنِ أبى العيص بنِ أمية وإن كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولاه مكّة أمّ القرى وقبلةَ الإسلام ، مع قوله عليه السلام « فتيانِ أضنُّ بهما عن النار : عتّاب ابنُ أسيد ، وجُبَيرُ بنُ مُطعِم » . وكذلك ينبغى أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز شبيهُ عمرَ بنِ الخطّاب كذلك ، وكذلك معاويةُ بنُ يزيدَ بن معاوية ، وكذلك يزيدُ الناقص ؛ وينبغى ألّا يكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم عدّ عثمانَ فى العَشَرة الذين بشّرهم بالجنّة ؛ وينبغى أن يكون خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص شهيد يوم مَرْج الصُّفّر[2] والحبيس فى سبيل الله ، ووالى النبيّ صلى الله عليه وسلم على اليمن ، ووالى أبى بكر على جميع أجنادِ الشام ، ورابع أربعةٍ فى الإسلام ، والمهاجر إلى أرض الحَبَشة كذلك . وكذلك أبانُ ابنُ سعيدِ بنِ العاص المهاجر إلى المدينة ، والقديم فى الإسلام ، والحبيس على الجهاد ، ويجب أن يكون ملعونا خبيثا ، وكذلك أبو حذيفة بنُ عُتْبة بنِ ربيعــة ، وهو بدْرىّ من المهاجرين الأوّلين ، وكذلك أمامة بنت أبى العــاص بنِ الربيع ، وأمّها زينب بنتُ

---

(١) شدن : قوى وترعرع ؛ وأصله فى الظباء .

(٢) مرج الصفر : موضع .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك أمُّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يُخرِجها من المغازي ، ويضرب لها بسَهْم ، ويُصافحها ، وكذلك فاطمةُ بنتُ أبي مُعيطٍ ، وهي من مهاجرة الحبشة .

قالوا : ومما نفتخر به وليس لبني هاشم مثله ؛ أنّ منا رجلا وُلِّي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاويةُ بنُ أبي سُفيان . ولنا أربعة إخوةٍ خلفاء : الوليد ، وسليمان ، وهشام ، بنو عبد المَلِك ، وليس لكم ويزيد ، إلا ثلاثة إخوة : محمّد ، وعبد الله ، وأبي إسحاق أولاد هارون .

قالوا : ومنا رجل ولده سبعةٌ من الخلفاء وهو عبدُ الله بنُ يزيد بن عبد الملكِ بن مروان ، أبوه يزيدُ بنُ عاتكة ، خليفة ، وجدُّه عبد الملك خليفة ، وأبو جدّه مروان بن الحكم خليفة ، وجدّه من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيدُ بن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سُفيان وهو خليفة ، فهؤلاء خمسة ، وأمّ عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بنِ عثمانَ بن عفّان ، وحفصةُ بنتُ عبد الله بن عمر بن الخطّاب ؛ فهذان خليفتان ، فهذه سبعة من الخلفاء وَلَدوا هذا الرّجل .

قالوا : ومنا امرأةٌ أبوها خليفة ، وجدّها خليفة ، وابنُها خليفة ، وأخوها خليفة ، وبعلها خليفة ، فهؤلاء خمسة ، وهي عاتكة بنتُ يزيدَ بن معاوية بن أبي سُفيان ، أبوها يزيدُ بن معاوية خليفة ، وجدّها معاويةُ بنُ أبي سفيان خليفة ، وابنُها يزيد بنُ عبدِ الملك بن مَرْوان خليفة ، وأخوها معاويةُ بنُ يزيدَ خليفة ، وبَعلُها عبد الملك بنُ مَرْوان خليفة .

قالوا : ومن وَلَد المديّج محمّد بنُ عبدِ الله الأصغر امرأةٌ ولَدَها النبيّ صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمرَ وعثمانَ وعليّ وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنتُ محمّد بن عبدِ الله بن عمرو ابنِ عثمان بن عفّان ، وأمّها خديجةُ بنتُ عثمانَ بن عُرْوة بن الزبير ، وأمّ عروة أسماء ذاتُ النّطاقين بنت أبي بكر الصدّيق ، وأم محمّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان — وهو

المدبَّج ـ فاطمةَ بنتَ الحُسَين بن علىّ عليه السلام ، وأمّ الحُسَين بن علىّ عليه السلام فاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وأمّ فاطمة بنتِ الحُسين بن علىّ عليهما السلام أمّ إسحاق بنتِ طلحةَ بن عبدِ الله ، وأمّ عبدِ الله بن عَمرو بن عُثْمان بن عفّان ابنةُ عبدِ الله بن عُمَر بن الخطّاب .

قالوا : ولنا فى الجمال والحسْن ما ليس لكم ، منا المدبّج ، والدِّيباج ، قيل ذلك لجماله . ومنّا المطرَّف ، ومنّا الأرجُوان ، فالمُطرف وهو عبدُ الله بنُ عمرو بنِ عُثْمانَ ، سُمّى المطرَّف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

عَا الفاروقُ إلك وابن أروَى أبُوكَ فأنتَ مُنصدِع النّهارِ

والمدبّج هو الدِّيباج ، كان أطولَ الناس قياما فى الصّلاة ، وهَلَك فى سجْن المنصور .

قالوا : ومنّا ابنُ الخلائف الأربعة ، دعى بذلك وشُهِر به ، وهو المؤمّل بنُ العبّاس ابن الوليد بن عبد الملك ، كان هو وأخوه الحارثُ ابْنَى العبّاس بن الوليد من العجاءة بنتِ قَطَرِى بنِ الفجاءة ، إمام الخوارج ، وكانت سُبِيتْ فوقعتْ إليه ، فلمّا قام عُمر بنُ عبدِ العزيز أتتْ وخوه بنى مازن وفيهمْ حاجبُ بنُ ذُبْيان المازنىّ الشاعر ، فقال حاجب :

أتينـــاكَ زُوّارا ووَفْداً إلى التى	أصاحت فلا يَخْفَى على الناس نُورُها
أبُوها عبيـــدُ الحقّ جَمْعًا وأمُّها	من الحَنظليات الكِرام حُجُورُها
فإن تكُ صارتْ حين صارتْ فإنّها	إلى سبِ زاكٍ كرام نَفِـــيرُها

فبعثَ عمرُ بنُ عبد العزيز إلى العبّاس بن الوليد إما أن تردّها إلى أهلها ، وإما أن تزوّجها ، فقال قائل ذاتَ يوم للمؤمّل : يابن الخلائف الأربعة ، قال : وَيلكَ مَن الرابع !

قال : قَطَرِى ، فأما الثلاثة فالوليدُ وعبدُ الملك ومروان ، وأما قَطَرِىّ فبُويع بالخلافة ، وفيه يقول الشاعر :

« وأبو نعامـــةَ سيّد الكفّارِ »

قالوا : ومن أين صار محمّد بنُ علىّ بن عبد الله بن العبّاس أحقّ بالدّعوة والخلافة من سائر إخوته ! ومن أين كان له أن يضعها فى بيته دون إخوته ! وكيف صار بنو الأخ أحقّ بها من الأعمام !

وقالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يُسْتَحقّ بالميراث ، فالأقرب إلى العبّاس أحقّ ، وإن كان بالسّنّ والتجربة فالعمومة منك أولى .

قالوا : فقد ذكرنا جملا من حال رجال فى الإسلام ، وأمّا الجاهلية فلنا الأعياص والعنابس [١] .

ولنا ذو العصابة أبو أُحَيْحة سعيدُ بنُ العاص كان إذا اعتمّ لم يعتمّ [٢] بمكّة أحَد ، ولنا حَرْب بن أميّة رئيسُ يوم الفِجار ، ولنا أبو سُفْيان بنُ حَرْب رئيسُ أُحُد والخَنْدق ، وسيّد قريش كلّها فى زمانه .

وقال أبو الجَهْم بنُ حُذيفة العدوىّ لعمرَ حين رأى العبّاس وأبا سُفيان على فراشه دون الناس : مازلنا نستريح من بنى عبدِ مناف على حال ! قال عمر : بئس أخو العَشِيرة أنتَ ! هذا عمّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وهذا سيّد قريش .

(١) فى الأغانى ١ : ١٤ (طبعة دار الكتب) بسنده عن الزبير بن بكار عن شيوخه : « الأعياص : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص ؛ ومنهم العنابس ، وهم : حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ؛ وإنما سموا العنابس ؛ لأنهم ثبتوا مع أخيهم حرب بن أمية بعكاظ ، وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً ؛ فشبهوا بالأسد ، والأسد يقال لها : العنابس ، واحدها عنبسة » .

(٢) اعتمّ : أرخى عمامته .

قالوا : ولنا عُتْبة بنُ رَبيعة ، ساد مملقا ، ولا يكون السَّيِّد إلّا مُتْرفا ، لولا ماراَوا عنده من البَراعة والنُّبل والـكمال . وهو الذى لمّا تحاكت بَجيلة وكَلْب فى مُنافَرة جرير والفرافصة ، وتَراهَنوا بسُوق عُكاظ ، وضَعوا الرّهن على يدِه دونَ جميع مَن شَهِدعلى ذلك المشهَد ، وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ونظر إلى قريش مُقبِلة يومَ بدر : « إن يكن منهم عند أحد خيرٌ فمند صاحب الجمل الأحمر » ، وماظنُّك بشَيْخ طَلَبوا له من جميع العسكر عنــد المُبارَزة بيضة لم يَقدروا على بَيْضة يُدْخِل رأسَه فيهــا ، وقد قال الشاعر :

• وإنّا أناسٌ يمــلأ البَيْض هامُنا •

قالوا : وأمَيّة الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس ، قال الشاعر :

من الأعْياص أو مِن آل حَرْبٍ أغرّ كغُرّة الفَرَسِ الجوادِ[1]

سُمّوا بذلك فى حَرْب الفجار حين عَقَروا لأرجلهم الجمائر وثبتوا فيها ، وقالوا : نموت جميعًا أو نظفر . وإنما سُمّوا بالعنابس لأنّها أسماء الأسود ، وإنما سُمّوا الأعياص لأنها أسماء الأصول ، فالعنابس : حَرْب وسُفْيان وأبوسُفْيان وعَمْرو ، والأعياص: العِيص، وأبو العِيص ، والعاص، وأبوالعاص وأبوعمرو ، ولم يعقِب من العنابس إلا حَرْب، وماعقَّب الأعياصُ إلا العِيص ، ولذلك كان معاويةُ يشكو القلّة .

قالوا : وليس لبنى هاشم والمطّلب مثل هذه القِسْمة ، ولا مِثْل هذا اللقب المشهور . وهذا ماقالته أميّةُ عن نفسها .

• • •

---

(١) من أبيات فى الأغانى ١ : ١٤ – ١٦ وينسبها إلى عبد الله بن فضالة الأسدى .

[ذكر الجواب مما فخرت به بنو أمية]

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ، ونضيفُ إليه مِن قِبَلنا أموراً لم يذكرها ، فنقول : قالت هاشم : أما ذكرتم من الدّهاء والمكر فإنّ ذلك من أسماء فجّار العُقلاء ، وليس من أسماء أهلِ الصواب فى الرأى من العُقلاء والأبرار ، وقد بلغ أبو بكر وعُمر من التدبير وصوابِ الرأى ، والخبرة بالأمور العامّة ، وليس من أوصافهما ولا مِنْ أسمائهما أن يقال : كانا داهِيَيْن ، ولا كانا مَكِيرين . وما عامَل معاوية وعمرُو ابنُ العاص عليّا عليه السلام قطّ بمعاملةٍ إلا وكان علىٌّ عليه السلام أعلَمَ بها منهما ، ولكنّ الرجل الذى يُحارِب ولا يَستعمل إلّا ما يحلّ له أقلّ مذاهب فى وُجوهِ الحِيَل والتدبير مِنَ الرّجل الذى يَستعمِل ما يحلّ وما لا يحلّ ، وكذلك من حدّث وأخبر ، ألا ترى أنّ الكذّاب ليس لكذبه غاية ، ولا لها يُولَد ويَصنع نهاية ، والصّدُوق إنما يحدّث عن شىء معروف ، ومعنى محدود ؟ ويدلّ على ماقلنا أنكم عددتم أربعة فى الدّهاء ، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين فى طريق المتقين ، ولو كان الدّهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تقدّمُ هؤلاء الجميع السابقين الأوّلين عيبا شديدا فى السابقين الأوّلين ، ولو أن إنسانا أراد أن يمدَحَ أبا بكر وعمر وعثمان وعليّا ثم قال : الدُّهاة أربعة، وعدّهم ، لكان قد قال قولًا مرغوبا عنه ، لأنّ الدهاء والمكر ليس من صِفات الصالحين ؛ وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميعُ العُقلاء ، ألا ترى أنه قد يَحسُن أن يقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أكرمَ الناس ، وأحلمَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولا يجوز أن يقال : كان أمكرَ الناس ، وأدهى الناس ، وإن علمنا أنّ عِلمه قد أحاط بكل مَكرٍ وخديعة ، وبكل أدبٍ ومَكيدة !

وأما ماذكرتم من جود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، فأين أنتمْ من عبد الله ابن جعفر ، وعُبيدِ الله بن العباس ، والحسن بن علىّ ! وأين أنتم من جُودِ خُلفاء بنى

العبّاس ، كمحمّد المهديّ ، وهارون ، ومحمد بن زُبيدة ، وعبدالله المأمون ، وجعفر المقتدر ! بل لعلّ جود بعض صنائع هؤلاء كبني بَرْمَك وبني الفُرات ، أعظم من جُود الرَّجلين اللَّذين ذكرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خُلفاء بني أمية .

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية ، فلو شئنا أن نجعل جميعَ ساداتنا حلماء لكانوا مُحتمِلين لذلك ، ولكنّ الوجه في هذا ألّا يُشتَقّ للرجل اسمٌ إلّا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلّا أن يتبيّن بذلك عند أصحابه حتّى يصير بذلك اسما يسمّى به ، ويصيرَ معروفا به ، كما عُرف الأحنفُ بالحِلم ، وكما عُرِف حاتمٌ بالجود ، وكذلك هَرِم ، قالوا : هَرِم الجواد ، ولو قلتم : كان أبو العاص بن أميّة أحلمَ الناس، لقلنا : ولعلّه يكون قد كان حليما ، ولكن ليس كلّ حلم يكون صاحبُه به مذكورا ، ومن إشكاله بائنا .

وإنكم لتظلمون خصومَكم في تسميتكم معاويةَ بالحلم ، فكيف من دونه ، لأنّ العرَب تقول : أحلم الحلماء ألا يتعرّض ثم يحلم ، ولم يكن في الأرض رجلٌ أكثر تعرّضا من معاوية ، والتعرّض هو السَّفه ، فإن ادّعيتم أنّ الأخبار التي جاءت في تعرّضه كلّها باطلة ، فإنّ لقائلٍ أن يقول ، وكلّ خبرٍ رَوَيْتموه في حِلمه باطل ، ولقد شُهر الأحنف بالحلم ، ولكنه تكلّم بكلامٍ كثير يَجرَح في الحِلْم ويثلِم في العِرض[1] ، ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العباسِ بن عبد المطّلب ولا عن الحسَن بنِ عليّ بن أبي طالب لفظا فاحشا ، ولا كلمة ساقطة، ولا حرفا واحداً مما يُحكَى عن الأحنف ومعاوية.

وكان المأمونُ أحلمَ الناس ، وكان عبدُ الله السّفاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصفَ هاشماً أو عبد المطّلب بالحِلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتّى يسمّيه بذلك، ويخصّ به دون كلّ شيء فيه من الفَضْل ! وكيف وأخلاقهم متساوية ، وكلّها في الغاية ! ولو أنّ رجلا كان أظهرَ الناسِ زُهْدا ، وأصدَقَهم للعدوّ لِقاء ، وأصدَقَ الناس لسانا ؛

(١) يثلم في العرض ؛ أي ينال منه ويقع فيه .

وأجودَ الناسِ كفًا ، وأفصَحهم مَنطقا ، وكان بكلِّ ذلك مشهورا ، لمنعَ بعضَ ذلكِ من بعض ، ولما كان له إسمُ السّيد المقدَّم ، والكامل المعظَّم ، ولم يكن الجوادُ أغلبَ على اسمه ، ولا البيان ولا النّجدة .

وأمّا ماذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنّسب ، فقد عَلِم الناس أن بني هاشم فى الجلة أرقُّ ألسِنةً من بنى أميّة ، كان أبو طالب والزّبير شاعرَين ، وكان أبو سُفْيان بنُ الحارث بن عبد المطّلب شاعرا ، ولم يكن من أولاد أميّة بنِ عبدِ شمس لصُلْبه شاعر ، ولم يكن فى أولاد أميّة إلا أن تعدّوا فى الإسلام العرْجىَّ مِنْ وَلَد عثمانَ ابن عفّان ، وعبد الرحمن بن الحكَم ، فنعدّ نحن الفضلَ بنَ العبّاس بن عتبة بن أبى لهب ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، ولنا من المتأخرين محمد بنُ الحسين بن موسى المعروف بالرضىّ ، وأخوه أبو القاسم ، ولنا الحِمّانى ، وعلى بن محمد صاحب الزَّنج ، وكان إبراهيم ابن الحسَن صاحب باخَمرى[1] أديبا شاعرا فاضلا ، ولنا محمد بنُ علىّ بن صالح الذى خرج فى أيام المتوكل .

قال أبو الفرج الأصفهانى : كان من فِتيان آل أبى طالب وفُتّاكهم وشُجْعانهم وظُرَافهم وشعرائهم ، وإن عددتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدّوا كعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ولا كعبدالله بن العباس ؛ ولنا من الخطباء زيد بن علىّ بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وجعفرُ بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علىّ بن عبد الله بن العباس ، وداود وسليمان ابنا جعفر ابن سليمان .

قالوا : كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن علىّ بن الحُسين فى الوصيّة ،

---

(١) باخمرى : بلدة قرب الكوفة بها قبر إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على .

وكان الناسُ يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمانُ بنُ جعفر بن سليمان بن علي والي مكة، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أميرٌ إلّا وسليمان أبين منه قاعداً، وأخطب منه قائماً . وكان داود إذا خطب استحنفر [١] فلم يردّه شيء .

قالوا : ولنا عبدالملك بن صالح بن علي ، كان خطيباً بليغاً، وسأله الرشيد ــ وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران ــ فقال له : كيف رأيتَ أرضَ كذا ؟ قال : مسافي ريح ، ومنابت شيح . قال : فأرضَ كذا ، قال : هضبات [٢] حُمْر ، وربوات [٣] عُفْر ، حتى أتى على جميع ماسأله عنه ، فقال عيسى لسليمان : والله ماينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدُّون من الكلام .

قالوا : وأما ماذكرتم من نُسّاك الملوك ؛ فلنا عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، وزُهده ودينه يضرب المثل ، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بني العباس ، وهو الملقب بالمهتدي ، كان يقول : إني لأستحيي لبني العباس ألا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز، فكان مثله وفوقه . ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر ، ولنا القائم عبدالله بن القادر ، كانا على قدم عظيمة من الزهد والدّين والنُّسُك ، وإن عددتم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين ! وأين أنتم عن عليّ بن عبدالله بن العباس ! وأين أنتم عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، الّذي كان يقال له: عليّ الخير ، وعليّ الأغر ، وعليّ العابد، وما أقسم على الله بشيء إلّا وأبرّ قَسَمه ! وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ! وأين أنتم عن عليّ بن محمد الرضا، لابس الصوف طولَ عمره، مع سَعة أمواله ، وكثرةِ ضياعه وغلّاته !

---

(١) استحنفر الرجل في منطقة : مضى فيه .
(٢) الهضبات : جمع هضبة ؛ وهي الجبل الطويل الممتنع ، ولايكون ذلك إلا في حمر الجبال .
(٣) الربوات : جمع ربوة ، وهي أعلى الجبل .

وأما ما ذكرتم من الفُتوح، فلنا الفتوح المعتصميّة التي سارت بها الرُّكبان، وضُربت بها الأمثال، ولنا فتوحُ الرّشيد، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرّمي بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة. وإن شئت أن تعدّ فتوحَ الطالبيّين بإفريقيّة ومصر وما ملكوه من مُدُن الرّوم والفرنج والجلالقة[1] في سِنِي ملكهم، عددتَ الكثير الجمّ الذي يخرجُ عن الحصر، ويحتاج إلى تاريخ مُفرَد يشتمل على جلودٍ كثيرة.

فأما الفِقه والعلمِ والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد، وكان لنا فيه مِثل علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وعبدِ الله بنِ العباس، وزيد بنِ علىّ، ومحمد بن علىّ، ابن علىّ بن الحسَين بنِ علىّ، وجعفر بن محمد الذى ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذتِه، وكذلك سُفيان الثَّورىّ، وحسبُك بهما في هذا الباب، ولذلك نسب سُفيان إلى أنه زيدىُّ المذهب، وكذلك أبو حنيفة.

ومَنْ مِثلُ علىّ بن الحسين زين العابدين! وقال الشافعىّ فى الرسالة فى إثبات خَبَر الواحد: وجدتُ علىَّ بن الحسَين وهو أفقه أهل المدينة يُعوِّل على أخبار الآحاد.

ومَن مثل محمّد بن الحنفيّة وابنه أبى هاشم الذى قرّر علومَ التوحيد والعَدْل! وقالت المعتزلة: غلبْنا الناسَ كلّهم بأبى هاشم الأوّل، وأبى هاشم الثانى!

وإن ذكرتم النجدة والبسالة والشجاعة فمن مثلُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وقد وقع اتّفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البَشَر!

ومَن مثل حمزةَ بن عبدالمطّلب أسد الله وأسد رسوله! ومَن مِثل الحسَين بن علىّ عليهما السلام! قالوا يوم الطّفّ: ما رأينا مكثوراً[2] قد أفرِد من إخوته وأهله وأنصاره أشجعَ منه، كان كالليث المحرَب، يحطِم الفرسان حَطْما. وما ظنّك برجل أبَتْ نفسُه الدنيّةَ وأن يعطىَ

---

(١) الجلالقة: أهل جلق، وهى دمشق.
(٢) المكثور: المغلوب فى الكثرة.

بيدِه ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ هو وبنوه وإخوته وبنو عمّه بعد بذل الأمان لهم ، والتوثقةِ بالأَيْمان المغلَّظة ، وهو الذى سنَّ للعرب الإباء . واقتدى بعده أبناء الزبير وبنو المهلّب وغـيرهم .

ومن لكم مِثل محمد وإبراهيم بن عبد الله ! ومن لكم كزيدِ بن علىّ ، وقد علمتم كلمته التى قالها حيث خرج من عند هشام : ما أحبَّ الحياةَ إلا مَنْ ذَلَّ ؛ فلمّا بلغتْ هِشاما قال : خارجٌ وربِّ الـكعبة ! فخرج بالسيف ، ونهى عن المنـكر ، ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قُتِل صابرا محتسباً .

وقد بلغتـكم شجاعةُ أبى إسحاق المعتصم ، ووقوفُه فى مشاهِد الحرب بنفسِه حتّى فَتَح الفتوح الجليلة . وبلغتكم شجاعةُ عبدِ الله بنِ علىّ ؛ وهو الذى أزال مُلْكَ بنى مَرْوان ، وشَهِدَ الحروبَ بنفسِه ، وكذلك صالح بنُ علىّ ، وهو الذى اتبع مروان بنَ محمّدٍ إلى مصر حتى قتله .

قالوا : وإن كان الفَضْل والفَخْر فى تواضُع الشريف ، وإنصاف السّيد ، وسَجَاحة[1] الخُلُق ولِين الجانب للعَشِيرة والموالى ، فليس لأحدٍ من ذلك ما لبنى العبّاس ؛ ولقد سألنا طارقَ بنَ المبارك ـ وهو مولًى لبنى أُميّة ، وصنيعةٌ من صنائعهم ـ فقلنا : أىُّ القبيلتين أشدّ نخوةً وأعظَم كِبْرياء وجَبرِيّةً ؛ أبنو مَرْوان ؟ أم بنو العبّاس ؟ فقال : واللهِ لَبَنو مَرْوانَ فى غير دولتِهم أعظَم كِبْرياءً من بنى العبّاس فى دولتهم ، وقد كان أدركَ الدولتَين، ولذلك قال شاعرُهم :

إذا نابهٌ من عبدِ شمسٍ رأيتَه   يَتيهُ فرَشِّحه لـكلِّ عظيمِ

---

(١) سجاحة الخلق : سهولته ولينه .

وإن تاهَ تَيَّاهٌ سِواهمُ فإنّمــا　　يَتيهُ لنوكٍ أو يتيه لِلُومِ[1]

ومن كلامهم : مَن لم يكن من بنى أميّة تَيّاها فهو دَعِىّ .

قالوا : وإن كان الكِبْرُ مَفخَرا يمدَح به الرجالُ ويُعَدّ من خِصال الشرف والفَضْل ، فمولانا عمارة بنُ حمزةَ أعظمُ كِبْراً من كلّ أمَوىّ كان ويكون فى الدنيا ، وأخبارُه فى كِبْره وتيهه مشهورة متعالَمة .

قالوا : وإن كان الشرف والفخرُ فى الجمال وفى الكمال وفى البَسطة فى الجسم وتمامِ القَوام ، فمن كان كالعبّاس بنِ عبد المطلب !

قالوا : رأينا العبّاسَ يطوف بالبيت وكأنه فُسطاط[2] أبيض .

ومن مِثل علىّ بنِ عبد الله بن العبّاس وَوَلَدِه ، وكان كلّ واحد منهم إذا قام إلى جَنْب أبيه كان رأسُه عند شحمة أُذُنه ، وكانوا من أطوَل الناسِ ، وإنك لتجد ميراث ذلك اليومَ فى أولادهم .

ثم الذى رواه أصحاب الأخبار وحُمّال الآثار فى عبدِ المطلب من التَّمام والقَوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالقَمَر لجماله ، ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكما رواه الناسُ أنّ عبد المطلب وَلَدَ عَشَرةً كان الرجلُ منهم يأكل فى المجلس الجَذَعة[3] ويَشرَب الفرق[4] ، وترد آنفهم قبل شفاههم ، وإن عامرَ بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جِمالٌ جُون[5] قال : بهؤلاء تُمنَع مكّة ، وتشرف مكّة !

وقد سمعتم ما ذكره النــاس من جمال السَّفّاح وحُسْنه ، وكذلك المهدىّ وابنُه هارون الرشيد ، وابنـه محمد بن زبيدة وكذلك هارون الواثق ، ومحمد المنتصر والزّبير المعتز .

---

(١) ب : « لنول » تصحيف ؛ وصوابه فى ا . والنوك : الحمق ، واللوم أصله « اللؤم » : بالهمزة ، وخفف للشعر .

(٢) الفسطاط : الخيمه .

(٣) الجذعة من الضأن : الصغيرة .

(٤) الفرق ، بكسر فسكون : مكيال بالمدينة ، يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا .

(٥) الجون من الإبل والخيل : جمع جون ، بفتح فسكون ، وهو الأدهم .

قالوا : مارُئِىَ فى العَرَب ولا فى العَجَم أحسَن صورةً منه ؛ وكان المكتفى علىّ بنُ المعتضد بارعَ الجمال ، ولذلك قال الشاعر يَضرِب المَثَلَ به :

واللهِ لا كلّمتُــــه ولو أنّهُ كالشّمس أو كالبَدْرِ أو كالمكتَفِى

فَجَعَله ثالثَ القمَرَين . وكان الحسَن بنُ علىّ عليه السلام أصبحَ الناس وَجْها ، كان يُشبَّه برسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه ، وكذلك عبد الله بنُ الحسَن المحْض .

قالوا : ولنا ثلاثة فى عَصْرٍ بنو عَمّ ، كلّهم يسمَّى عليًّا ، وكلّهم كان يَصلُح للخلافة بالفِقه والنُّسُك والمركَب ، والرأى ، والنحرِمة ، والحالِ الرّفيعة بين الناس : علىّ بنُ الحسَين بنِ علىّ ، وعلىّ بنُ عبد الله بن العبّاس ، وعلىّ بنُ عبد الله بن جعفر ، كلّ هؤلاء كان تامًّا كاملا بارعا جامعا . وكانت لُبابة بنتُ عبد الله بنِ العبّاس عند علىّ بن عبدالله بن جَعْفر ، قالت: مارأيته صاحِكاً قطولا ماشيا،ولا قال شيئا أحتاج إلى أن يعتذِر منه ، ولا ضَرَب عبداً قطّ ، ولا مَلَكه أكثرَ من سَنة .

قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثةٌ بنو عَمّ،وهم بنو هؤلاء الثلاثة،وكلّهم يسمَّى محمدا ، كما أن كلّ واحد من أولئك يسمَّى عليًّا،وكلّهم يَصلُح للخلافة،بكَرَم النّسب وشَرَف الخصال: محمّد بنُ علىّ بن الحسَين بنِ علىّ،ومحمّد بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس ،ومحمد بن علىّ ابنِ عبد الله بنِ جعفر .

قالوا : كان محمّدبنُ علىّ بن الحسين لا يُسمِع المبتلى الاستعاذة ،وكان يَنهى الجارِيةَ والغلامَ أن يقولا المِسكين : ياسائل ؛ وهو سيّد فُقهاء الحجاز ؛ ومنه ومن ابنه جعفر تعلّم الناسُ الفِقْه ، وهو المُلقَّب بالباقر ، باقرِ العِلْم ؛ لقّبه به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ولم يُخلَق بعد ، وبشّر به ، ووعد جابر بن عبد الله برؤيته ، وقال : ستراه طفلا ، فإذا رأيته فأبلِغه عنّى السلام ، فعاش جابرٌ حتّى رآه ، وقال له : ماوصّى به .

وتوعّد خالد بن عبدالله القَسْرىّ هشامَ بنَ عبدالملك فى رسالةٍ له إليه ، وقال : والله إنى لأعرف رَجُلا حِجازىّ الأصل ، شآمىّ الدّار ، عِراقىّ الهوى ، يريد محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العبّاس .

***

قالوا : وأمّا ماذكرتم من أمرِ عاتكة بنت يزيد بن معاوية فإنا نذكر فاطمة بنت رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وهى سيّدة نساء العالمين ، وأمُّها خديجةُ سيّدة نساء العالمين ، وبَعلُها علىّ بنُ أبى طالب سيّد المسلمين كافّة ، وابنُ عمِّها جعفر ذو الجناحَين ، وذو الهِجْرتين ، وابناها الحسَن والحُسَين سيّدَا شباب أهلِ الجنّة ، وجدُّهما أبو طالب بن عبدِ المطّلب أشدُّ الناس عارضةً وشكيمة ، وأجودُهم رأيا ، وأشهمُهُمْ نفسا ، وأمنَعُهم لما وَرَاء ظَهرِه ، منَعَ النبىّ صلّى الله عليه وآلِه مِن جميع قريش ، ثم بنى هاشم وبنى المطّلب ، ثم منَع بنى إخوته من بنى أخواته من بنى مخزوم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادُوا مع الإملال ، وهو مع هذا شاعر خطيب ، ومن يطيق أن يُفاخِر بنى أبى طالب ، وأمّهم فاطمة بنت أسَد بنِ هاشم ، وهى أوّل هاشميّة ولدتْ لهاشمىّ ، وهى التى رَبّتْ رسولَ الله فى حِجْرها ، وكان يدعوها أمّى ، ونزَل فى قبرها ، وكان يُوجب حقّها كما يُوجب حقّ الأمّ ! من يستطيع أن يُسامىَ رِجالا ولدهم هاشم مرتين من قِبَل أبيهم ومن قِبَل أمّهم .

قالوا : ومن العجائب أنّها ولدتْ أربعةً كلٌّ منهم أسَنّ من الآخر بعشرِ سنين : طالب ، وعَقِيل ، وجعفر ، وعلىّ .

ومن الذى يَعُدّ من قريش أو مِن غيرهم مايعُدّه الطالبيّون عشَرة فى نَسَق ؛ كلّ واحد منهم عالمٌ زاهد ناسك شجاع جَواد طاهر زاكٍ ، فمنهم خلفاء ، ومنهم مُرشَّحون : ابن ابن ابن ابن ، هكذا إلى عشَرة ، وهم الحسَن بنُ علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام ؛ وهذا لم يتّفق لبيتٍ من بُيوت العرب ولا من بُيوت العَجَم .

قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان وزينب بنتُ جحش ، فزينب امرأةٌ من بني أسد بن خزيمة ، ادعيتموها بالحِلْف[1] لا بالولادة ، وفينا رجل ولدته أمّان من أمهات المؤمنين ، محمد بنُ عبد الله بن الحسن المحض ، ولدته خديجةُ أمّ المؤمنين ، وأمّ سلمة أمّ المؤمنين ، وولدته مع ذلك فاطمةُ بنتُ الحسين بن علي ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمةُ بنت أسد بنت هاشم ؛ وكان يقال : خير النساء العواطمُ والفواطم وهن أمهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنسانا فليس أن نعدّ من ولده ما أتى به شريفا في نفسه ، مذكورا بما فيه دون ما في غيره ، فلتم لنا : عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة في نفسها كامرأة من عرض قريش ، ليس فيها في نفسها خاصة أمرٌ تستوجب به المفاخرة . ونحن نقول : منّا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، وكذلك أمها خديجة الكبرى ، وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وآله وذكر إحداهما القرآن ، وهنّ المذكورات من جميع نساء العالم من العرب والعجم .

وقلتم لنا : عبدالله بنُ يزيد بن عبدالملك بن مروان ولده سبعة من الخلفاء ؛ وعبدالله هذا في نفسه ليس هناك ، ونحن نقول : منّا محمد بنُ علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلهم سيّد ، وأمه العالية بنتُ عبيد الله بن العباس ، وإخوته داود وصالحٌ وسليمان وعبدُ الله رجالٌ كلهم أغرُّ محجّل ، ثم ولدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر ، ومن جاء بعدهما من خلفاء بني العباس .

وقلتم : منّا عبد الله بن يزيد ، وقلنا : منّا الحسينُ بنُ علي سيّد شباب أهل الجنة ،

---

(١) الحلف ، بكسر الحاء وسكون اللام : العهد بين القوم .

وأولى الناس بكلّ مكرُمة ، وأطهرهم طهارةً ، مع النّجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأنَف(١) ، وأخوه الحسن سيّد شباب أهل الجنة ، وأرفع الناس درجة ، وأشبههم برسول الله خَلْقاوخُلُقا ،وأبوهماعلىّ بنُ أبى طالب .

قال شيخنا أبوعثمانَ : وهو الذى تركُ وصفه أبلغ فى وصفه، إذ كان هذا الكتابُ يعجز عنه ، ويحتاج إلى كتابٍ يفرد له ، وعمّهما ذو الجناحين ، وأمّهما ، فاطمة وجدّتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقيّة وأمّ كلثوم ، وجدّتاهما آمنةُ بنتُ وَهْب والدةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وجدّهما رسولُ الله صلّى الله عليه وآله المخرس لكلّ فاخر ، والغالبُ لكلّ منافر ، قل ماشئت ؛ واذكر أىّ باب شئت من الفضل ، فإنك تجدهم قد حووْه .

وقالت أميّة : نحن لاننكر فخرَ بنى هاشم وفضلهم فى الإسلام ، ولكنّ لافرق بيننا فى الجاهلية ، إذ كان الناسُ فى ذلك الدّهر لايقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشمٌ وأميّة ، بل يقولون : كانوا لايزيدون فى الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميزهم فى أمر علىّ وعثمان فى الشورى ، ثم ما كان فى أيام تحزّبهم وحرْبهم مع علىّ ومعاوية .

ومن تأمل الأخبارَ والآثار علم أنه ما كان يذكر فرقٌ بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف ؛ ألا ترى أن أبا قحافة سمع رَجّةً شديدةً ، وأصواتا مرتفعة ، وهو يومئذ شيخٌ كبيرٌ مكفوف ، فقال: ماهذا ؟ قالوا: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فاصنعتْ قريش ؟ قالوا: ولّوا الأمر ابنك؛ قال : ورضيتْ بذلك بنو عبد مناف ؟ قالوا : نعم. قال: ورضى بذلك بنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا مُعطىَ

---

(١) الأنف بفتحتين ؛ مثل الأنفة ؛ ومعناها الشمم والإباء .

لما منعَ ا ولم يقل : أرضىَ بذلك بنو عبد شمس ؟ وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال .

وهكذا قال أبو سُفيان بن حَرْب لعلىّ عليه السلام ، وقد سَخِط إمارة أبى بكر : أرضيتم يابنى عبد مناف أن يَلِىَ عليكم تَيْمٌ ! ولم يقل : أرضيتم يابنى هاشم ؟ وكذلك قال خالد بنُ سعيد بن العاص حين قَدِم من اليمن وقد استخلِف أبو بكر : أرضيتم معشرَ بنى عبد مناف أن تلىَ عليكم تيم ؟

قالوا : وكيف يُفرِّقون بين هاشم وعبد شمس ، وهما أخَوان لأب وأمّ ! ويدلّ على أن أمرهما كان واحدا ، وأنّ اسمهم كان جامعا ، قولُ النبى صلى الله عليه وآله وصنيعُه حين قال : « منّا خيرُ فارسٍ فى العرب » عُكّاشة بن محصن » وكان أسديًّا ، وكان حليفاً لبنى عبد شمس ، وكل من شهد بدْرا من بنى كبير بن داود كانوا حلفاء بنى عبد شمس ، فقال ضرارُ بن الأزور الأسدى : ذاك منا يارسول الله ، فقال عليه السلام : « بل هو منّا بالحلف » ، فجعل حليف بنى عبدِ شمس حليفَ بنى هاشم ، وهذا بيّنٌ لا يحتاجُ صاحبُ هذه الصفة إلى أكثر منه .

قالوا : ولهذا سكح هدا البيت فى هذا البيت ، فكيف صِرْنا نتزوج بنات النبى وبنات بنى هاشم على وجه الدهر إلا وعن أكْفاء ، وأمْرنا واحدٌ ! وقد سمعتم إسحاقَ بنَ عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بنى عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد : لولا حىٌّ أكرمهم الله بالرسالة ، لزعمت أنك أشرف الناس ؛ أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلّا بالرسالة !

قالت هاشم : قلتم : لولا أنا كُنّا أكفاءكم لما أسكحتمونا نساءكم ، فقد نجد القوم يستوون فى حسب الأب ، ويفترقون فى حسب الأنفس ، وربّما استوَوْا فى حسب أبى

القبيلة ، كاستواء قُريش فى النضر بن كِنانة، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤىّ ، وعامر ابن لؤىّ ، وكاختلاف ابن قصىّ وعبد مناف وعبد الدار وعبد العُزّى ، والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً فى وجوه ، ويفارقونهم فى وجوه ، ويستجيزون بذلك القَدْر منا كحتهم ، وإن كانت معانى الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملتْ فيمن زوّجهم ، وقد يزوّج السيّد ابن أخيه وهو حارض ابنُ حارض[1] على وجه صِلة الرّحم ، فيكون ذلك جائزاً عندهم ، والوجوه فى هذا الباب كثيرة ، فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه، وإن كنّا قد زوّجناكم وساويناكم فى بعض الآباء والأجداد . وبعد ، فأنتم فى الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرَب ، أفتزعمون أنهم أكفاؤكم عَيْناً بعين ! وأما قولكم : إن الحيّين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضا مع غيرهما من قريش وغيرها : بنو النّضر . وقال الله تعالى : ﴿ وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبين ﴾[2] ، فلم يدع النبىّ صلّى الله عليه وآله أحداً من بنى عبد شمس، وكانت عشيرته الأقربون بنى هاشم وبنى المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف وفوق ذلك قُصىّ ، ومن ذلك أن النبىّ صلّى الله عليه وآله لما أُتِىَ بعبد الله بن عامر بن كُرَيز بن حبيب بن عبد شمس — وأمّ عامر ابن كُرَيز أمّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم — قال عليه السلام : هذا أشبه بنا منه بكم ، ثم تفل فى فيه فازدرده ، فقال : أرجو أن تكون مشفيا ، فكان كما قال . ففى قوله : «هو أشبه بنا منه بكم» خصلتان : إحداهما أنّ عبد شمس وهاشما لو كانا شيئا واحدا كما أن عبد المطلب شىء واحد لما قال : « هو بنا أشبه به منكم » ، والأخرى أن فى هذا القوْل تفضيلا لبنى هاشم على بنى عبد شمس، ألا ترون أنه خرج خَطيباً جواداً نبيلا وسيّدا مشفيا ، له مَصانعُ وآثار كريمة ، لأنه قال : « وهو بنا أشبَهُ به منكم» وأُتِىَ عبد المطلب

---

(١) الحارض : الرجل الرذل الفاسد . (٢) سورة الشعراء ٢١٤ .

عامر بن كُرَيز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فتأمله ، وقال : وعظامِ هاشم ما ولدْنا ولداً أحرضَ منه ، فكان كما قال عبدُ الله يُحمِّق ، ولم يقُل « وعظام عبدِ مناف » لأن شرف جدّه عبد مناف له فيه شُركاء ، وشرف هاشم أبيه خالصٌ له .

فأمّا ما ذكرتم من قول أبى سُفيان وخالد بن سعيد : أرضيتمْ معشرَ بنى عبد مناف أن تلىَ عليكم تيم ! فإن هذه الكلمة كلمةُ تحريض وتهييج ، فكان الأملع فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب ، وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا متفرقين ، وهذا المذهب سَديد ، وهذا التدبير صحيح .

قال معاوية بنُ صَعصَعة للأشهب بن رُمَيلة ، وهو نَهشَلىّ وللفرَزدَق بن غالب ، وهو مُجاشِعىّ ولمسكين بن أنيف وهو عَبْدلىّ : أرضيتم معشرَ بنى دارم أن يَسُبَّ آباءكم ويشتُمَ أعراضكم كلب بنى كُلَيب ! وإنما نَسَبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتمل على آباء قبائلهم ليستوُوا فى الحَمِيّة ويتفقوا على الأنف ، وهذا فى مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدلّ على ماقلنا ماقاله الشعراء فى هذا الباب قبل مَقتل عثمان وقبلَ صِفّين ؛ قال حسّان بنُ ثابت لأبى سُفيان الحارث بن عبدِ المطلب :

وأنتَ منوط نيطَ[1] فى آلِ هاشمٍ   كما نيطَ خلفَ الراكب القَدَحُ الفرْدُ

لم يقل : « نيط فى آلِ عبدِ مناف » .

وقال آخر :

ما أنتَ من هاشمٍ فى بيتِ مَكرُمةٍ   ولا بنى جُمَحِ الخُضرِ الجلاعيدِ[2]

(١) ب : « نيط » تحريف .   (٢) الجلاعيد : الصلاب الشداد .

ولم يقل : « ما أنتَ من آلِ عبد مناف » ، وكيف يقول هــذا ، وقد علِمَ الناسُ أن عبد مناف ولد أربعةً : هاشما والمطلب وعبدَ شمس ونَوْفلا ؛ وأن هاشما والمطلب كانا يداً واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة ، وكان مما بطأ ببني نوفلٍ عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حثّ بني المطلب على الإسلام فضل محبّتهم لبني هاشم ؛ لأن أمرَ النبيّ صلّى الله عليــه وآله كان بيّناً ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسَد والبِغْضة ، فمن لم يكن فيه هــذه العلّة لم يكن له دون الإسلام مانع ، ولذلك لم يَصحب النبي صلى الله عليــه وآله من بني نوفل أحدٌ فَضلًا أن يشهدوا معه المشاهِدَ الكريمة ، وإنما صَحِبه حُلفاؤهم كيَعلَى بن مُنْيَه وعُتبة بن غَزْوان وغيرهما ، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدْرى : عبيد ، وطُفَيل ، وحُصَين ؛ ومن بني المطلب مِسْطح بن أثاثة بدْرىّ .

وكيف يكون الأمرُ كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعِم بنِ عدِى بن نوفل في أمر النبي صلّى الله عليه وآله ، لمّا تمالأتْ قريشٌ عليه :

جَزَى اللهُ عنّا عبدَ شمس ونَوْفلًا ... جزاء مُسِيء عاجلاً غيرَ آجلِ
أمُطعِم إمّا سامَنِى القَوْم خُطةً ... فإنّى متى أُوكَلْ فلستَ بآكِلِ
أمطعِم لم أخذُلْكَ في يوم شِدّةٍ ... ولا مشهدٍ عند الأمور الجلائل

ولقد قَسَمَ النبيّ صلى الله عليه وآله قسمةً فجعَلها في بني هاشم وبني المطلب ، فأتاه عثمانُ بنُ عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبدِ شمس بن عبدِ مناف ، وجُبير بن مُطعم ابن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف ، فقالا له : يا رسول الله ، إن قرابتنا منك وقرابة بني المطّلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبيُّ صلّى الله عليه وآله : « إنا لم نزل وبني المطلب كهاتَين » ، وشبّك بين أصابعه ، فكيف تقولون : كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذى يجمعنا واحداً !

ثم نرجع إلى افتخار بنى هاشم ، قالوا : وإن كان الفخر بالأَيْدِ[1] والقوة ، واهتصار[2] الأقران ومُباطشة الرجال ، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفيّة ، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على دِرْع فاضلة ، فجذَبها فقطع ذيلَها ما استدار منه كلّه . وسمعتم أيضا حديث الأيِّد[3] القوىّ الذى أرسلَه مَلِك الروم إلى معاوية يفخَر به على العرب ، وأن محمدا قعدَ له ليقيمَه فلم يستطِع ، فكأنما يحرِّك جبلًا ، وأن الرّومى قصد ليقيمَه محمّد فرفعه إلى فوق رأسه ، ثم جَلَد به الأرض ؛ هذا مع الشجاعة المشهورة ، والفقه فى الدِّين والحلم والصبر والفصاحة والعِلم بالملاحم والإخبار عن الغُيوب ، حتى ادّعى له أنه المهدىّ ، وقد سمعتم أحاديثَ أبى إسحاق المعتصم ، وأن أحمد بنَ أبى دُوَادٍ عضّ ساعدَه بأسنانه أشدَّ العضّ فلم يؤثّر فيه ، وأنه قال : ما أظنُّ الأسنّةَ ولا السّهام تؤثّر فى جسَده ، وسمعتم ما قيل فى عبدِ الكريم المُطيع ، وأنه جذب ذَنَبَ ثورٍ فانسلّ من بين وركيه .

وإن كان الفخر بالبِشر وطلاقة الأوجه وسجاحة الأخلاق ، فمن مِثلُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقد بلَغ من سَجاحة خُلُقه وطلاقة وَجهه أنْ عيبَ بالدُّعابة ! ومَن الذى يسوِّى بين عبد شمس وبين هاشم فى ذلك ! كان الوليدُ جبّارا ، وكان هشام شَرِسَ الأخلاق ، وكان مَرْوَانُ بنُ محمد لايزال قاطبا عابسا ، وكذلك كان يزيدُ بنُ الوَليد الناقص ، وكان المهدىّ المنصورُ أسْرَى خلق الله وأطلَقَهم خُلُقا ، وكذلك محمّد الأمين وأخوه المأمون ، وكان السفّاح يُضرَب به المَثَل فى السّرو وسَجاحة الخُلُق .

قالوا : ونحن نعدُّ من رَهطنا رجالا لاتَعُدّون أمثالَهم أبداً ، فمنّا الأمراء بالدّيلم الناصر الكبير ، وهو الحسن الأطروش بن علىّ بن الحسَن بن عمر بن علىّ بن عمر الأشرف

---

(١) الأيد (بفتح فسكون) : القوة . (٢) اهتصر القرن : جذبه بشدة .
(٣) الأيد : الشجاع الشديد .

ابن زيد العابدين، وهو الذي أسلمت الديلم على يده، والناصر الأصغر وهو أحمد بن يحيى ابن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، وأخوه محمد بن يحيى، وهو الملقب بالمرتضى، وأبوه يحيى بن الحسن وهو الملقب بالهادي. ومن ولد الناصر الكبير الثائر، وهو جعفر ابن محمد بن الحسن الناصر الكبير، وهم الأمراء بطبرستان وجيلان وجرجان وما وراء النهر وسائر ممالك الديلم؛ ملكوا تلك الأصقاع مائة وثلاثين سنة، وضربوا الدنانير والدراهم بأسمائهم، وخطب لهم على المنابر، وحاربوا الملوك السامانية، وكسروا جيوشهم، وقتلوا أمراءهم، فهؤلاء واحدهم أعظم كثيراً من ملوك بني أمية، وأطول مدة وأعدل وأنصف وأكثر نسكاً وأشد حضاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يجري مجرى الداعي الأكبر والداعي الأصغر ملكا الديلم، فادا الجيوش. واصطنعا الصنائع.

قالوا: ولنا ملوك مصر وإفريقية، ملكوا مائتين وسبعين سنة، فتحوا الفتوح واستردوا ما تملك عليه الروم من مملكة الإسلام، واصطنعوا الصنائع الجليلة.

ولهم الكتاب والشعراء والأمراء والقواد، فأولهم المهدي عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وآخرهم العاضد، وهو عبدالله بن الأمير أبي القاسم بن الحافظ أبي الميمون بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدي؛ فإن افتخرت الأموية بملوكها في الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك، واتصال ملكهم وحصولهم بإزاء ملوكنا بمصر وإفريقية، قلنا لهم: ألا إنا نحن أزلنا ملككم بالأندلس، كما أزلنا ملككم بالشام والمشرق كله، لأنه لنا ملك قرطبة

الظافرُ من بنى أمية وهو سليمان بنُ الحكم بن سليمان بنِ عبد الرحمن الملقب بالناصر ، خرج عليه علىّ بن حميد بن ميمون بن أحمد بن علىّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقتله ، وأزال مُلكه . وملك قُرطُبة دارَ ملك بنى أمية ، ويلقب بالناصر . ثم قام بعده أخوه القاسم بنُ حمّود ، ويلقب بالمعتلى ؛ فنحن قتلناكم وأزلنا مُلككم فى المشرق والمغرب ، ونحن لكم على الرَّصد[1] حيث كنتم ؛ اتبعناكم فقتلناكم وشرّدناكم كلّ مشرّد ، والقهرُ الغالب على المغلوب ، بهذا قضت الأمم قاطبة .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله ، منّا يحيى بنُ محمد بن على بن عبدِ الله بن العبّاس ، كان شُجاعا حَرِبيّا[2] وهو الذى وَلِىَ المَوْصِلَ لأخيه السفاح فاستعرض أهلها ، حتى ساخت[3] الأقدام فى الدماء .

ومنّا يعقوب بنُ إبراهيم بن عيسى بن أبى جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحا ، وهو المعروف بأبى الأسباط ، ومنّا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علىّ ، كانا أعظم من ملوك بنى أمية ، وأجلّ قدْرا وأكثرَ أموالا ومكانا عند الناس . وأهدى محمد بنُ سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة فى يدِ كلّ واحدة منهن جامٌ[4] من ذهب وزنُه ألفُ مثقال ، مملوء مِسكا ، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السُّودان خاصّة ، فكم يكون ليتَ شعرى غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رُئى جعفر بنُ سليمان راكبا قطّ إلّا ظُنّ أنه الخليفة .

ومن رجالنا محمد بنُ السّفّاح ، كان جوادا أيّداً شديد البَطْش ، قالوا ما رُئىَ أخوان

---

(١) على الرصد : مترصدون لكم .
(٢) فى ب : « حربا » تصحيف .
(٣) ساخت : غاصت .
(٤) الجام : إناء من الذهب أو الفضة .

أشدّ قوة من محمد وريْطة أخته وَلدَى أبي العبّاس السّفّاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هي فتردّه .

ومن رجالنا محمد بن إبراهيمَ طَبَاطَبَا صاحب أبي السَّرَايا ، كان ناسكا عابدا فقيهاً عظيم القَدْر عند أهل بيته وعند الزيدية .

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبدِ الله بنِ العباس ، وهو الذى شيّد مُلْكَ المنصور وحاربَ ابنَيْ عبدِ الله بن حسن ، وأقام عمودَ الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحا أديبا شاعراً .

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، حَجّ بالناس وَوَلِيَ الشّام ، وكان فصيحا خطيبا .

ومن رِجالِنا عبد الله بن موسى الهادى ، كان أكرمَ الناسِ وَجواداً ممدُوحا أديبا شاعرا ، وأخوه عيسى بن موسى الهادى ، كان أكرمَ الناسِ ، وأجودَ الناسِ ، كان يلبس الثياب ، وقد حدَّد ظُفُرَه فيُعرِّقها بظفره لئلا تُعادَ إليه . وعبد الله بنُ أحمد ابن عبدِ الله بن موسى الهادى ، وكان أديبا ظريفا .

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله ، كان أوحدَ الدّنيا فى الشّعرِ والأدَب والأمثال الحكمية والسُّؤدد والرياسة ، كان كما قيل فيه لمّا قُتِل :

لله دَرُّكَ من مَيْتٍ بمَضيعَةٍ ناهيكَ فى العِلمِ والأشعارِ والخطبِ[1]
ما فيــــه لَوٌّ ولا لَوْلَا فتنقُصَه وإنمـــا أدركَتْهُ حِرفَةُ الأدبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الحسين بنُ موسى شيخُ بنى هاشم الطالبيّين والعبّاسيّين فى عصره ، ومن أطاعه الخلفاء والملوك فى أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله ، وابناه عليّ ومحمد وهما المرتضى والرضى ، وهما فريدا العَصْر فى الأدب والشّعْر والفقه والكلام ، وكان الرّضى شجاعاً أديباً شديد الأنف .

---

(١) لعلى بن بسام ، ابن خلكان ١ : ٢٥٩ .

ومن رجالنا القاسمُ بن عبدِ الرحيم بن عيسى بن موسى الهادى ، كان شاعراً ظريفا .

ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا . صاحب المصنّفات والوَرَع والدّعاء إلى الله وإلى التوحيد والعَدْل ومنابذة الظالمين ، ومن أولاده أمراء اليَمَن .

ومن رجالنا محمّد الفأفاء بن إبراهيم الإمام ، كان سيّدا مُقدَّما ، ولى الموسمَ وحجّ بالناس ، وكان الرشيد يُسايره ، وهو مقنّع بطيلسانه .

ومن رجالنا محمد بن محمّد بن زيد بن على بن الحسين صاحب أبى السّرايا ، سادَ حَدَثا ، وكان شاعرا أديبا فقيها ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولمّا أُسِرَ وحُمِل إلى المأمون أكرمَه وأفضل عليه ، ورَعَى له فضلَه وسِنّه .

ومن رجالنا موسى بن عيسى بن محمّد بن على بن عبد الله بن العباس ، كنيتُه أبو عيسى ، وهو أجلّ ولدِ عيسى وأنبهُهم ، ولى الكوفة وسَوَادَها زمانا طويلا للمهدِى ، ثم الهادى ، ووَلِىَ المدينة وإفريقيّة ومصرَ للرشيد ، وقال له ابن السّماك لمّا رأى تواضعه : إنّ تواضعَك فى شرَفك لأحبُّ إلىّ من شرَفك ! فقال موسى : إنّ قومنا ــ يعنى بنى هاشم ــ يقولون : إنّ التواضع أحدُ مصايدِ الشّرف .

ومن رجالنا موسى بنُ محمد أخو السّفّاح والمنصور ، كان نبيلاً عندهم ، هو وإبراهيمُ الإمام لأمّ واحدة ، رأى فى منامه قبل أن يصير من أمرهم ما صارَ أنّه دخل بستانا فلم يأخذ إلّا عنقوداً واحدا عليه من الحبّ المتراصّ ما رَئُك به علِيم ، فلم يُولَد له إلا عيسى ، ثم وُلِد لعيسى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكرا وعشرون أنثى .

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وهو عبدُ الله المحض ، وأبوه الحسن بن الحسن ، وأمّه فاطمة بنتُ الحسين ، وكان إذا قيل : مَنْ

أجمل الناس ؟ قالوا : عبد الله بنُ الحسن ، فإذا قيل : مَنْ أكرم الناس ؟ قالوا : عبد الله ابن الحسن ، فإذا قالوا : مَنْ أشرف الناس ؟ قالوا : عبدُ الله بنُ الحسن .

ومن رجالنا أخوه الحسن بنُ الحسن ، وعمّه زيدُ بنُ الحسن وبنوه محمد وإبراهيم وموسى ويحيى ؛ أمّا محمد وإبراهيم فأمرُهما مشهور، وفضلُهما غيرُ مجحود ، في الفقه والأدب والنُّسك والشجاعة والسؤدُد. وأما يحيى صاحبُ الدَّيلَم فكان حسَنَ المذهب والمدى، مقدّما في أهل بيته ، بعيدا ممّا يُعابُ على مثله، وقد روى الحديثَ وأكثر الرواية عن جعفر بن محمد ، وروى عن أكابر المحدّثين ، وأوصى جعفر بن محمد إليه لما حضرته الوفاة وإلى ولده موسى بن جعفر . وأمّا موسى بن عبدالله بن الحسن ؛ فكان شاعرا نحويا صبورا شجاعا سخيًا شاعرا .

ومن رجالنا الحسن المثلث، وهو الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، كان مُتألِّها[1] فاضلاً ورعاً ، يذهب في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مذهبَ أهله . وإبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، كان مقدّما في أهله ، يقال : إنه أشبهُ أهل زمانه برسول الله صلّى الله عليه وآله .

ومن رجالنا عيسى بن زيد ، ويحيى بن زيد أخوه ، وكانا أفضلَ أهل زمانهما شجاعة وزُهداً وفقها ونُسكاً .

ومن رجالنا يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد صاحب الدعوة . كان فقيها فاضلا شجاعا فصيحا شاعرا ، ويقال : إن الناس ما أحبّوا طالبياً قطّ دعا إلى نفسه حبّهم يحيى ، ولا رثي أحد منهم بمثل ما رثي به .

---

(١) متألها : متعبداً .

قال أبو الفَرَج الأصفهانى : كان يحيى فارساً شجاعاً شديدالبَدَن ، مجتمِع القلب ، بعيدا عن زَهو الشباب وما يُعابُ به مثله ، كان له عمودٌ حديدٌ ثقيلٌ يَصحبه فى منزله ، فإذا سَخِطعلى عبدٍ أوأمة من حَشمه لَواه فى عُنقه فلا يَقدِرأحدٌ أن يحلّه عنه حتى يحلّه هو[1].

ومن رجالنا محمد بنُ القاسم بن علىّ بن عمر بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام صاحب الطالَقانِ ؛ لُقِّب بالصوفىّ لأنّه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض ، وكان عالما فقيها ، ديِّناً زاهدا ، حسنَ المذهب، يقول بالعدْل والتوحيد .

ومن رجالنا محمد بنُ علىّ بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام . كان من فتيان آل أبى طالب وُفتّاكهم وشُجْعانِهم وظُرَفائهم وشُعَرائهم ،وله شعرٌ لطيف محفوظ .

ومنهم أحمد بنُ عيسى بن زيد ، كان فاضلا عالما مُقدّما فى عَشيرته ، معروفا بالفضل؛ وقد رَوى الحديث ورُوِىَ عنه .

ومن رجالنا موسى بنُ جعفر بن محمد ـ وهو العبد الصالح ـ جَمَع من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر . وابنه علىّ بن موسى المرشح للخلافة ، والمخطوب له بالعَهْد ، كان أعلم الناس ، وأسخَى الناس ، وأكرمَ الناس أخلاقا .

* * *

قالوا : وأمّا ما ذكرتم من أمر الشَّجَرة الملعونة ، فإنّ المفسِّرين كلّهم قالوا ذلك ورَوَوْا فيه أخبارا كثيرةً عن النبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قادرين على جَحْد ذلك،وقد عرفتم تأخّرَكم عن الإسلام وشدّة عداوتكم لرسول الداعى إليه ، ومحاربتكم فى بَدْر وأُحُد والخندق، وصدّكم الهدْىَ عن البيت ، وليس ذلك مما يوجب أن يمسَّكم اللّعن حتى

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٤٠ .

لايغادر واحدا ، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدّى . وأمّا اختصاصُ محمد بن علىّ بالوصية والخلافة دون إخوته؛ فقد علمتم أن وراثة السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثة الأموال؛ ألا ترى أن المرأة والصبى والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب؛ وسواء فى الأموال، كان الابن حارصا[1] نائرا ، أو بارعاً حاسما .

وقيل : وراثة للقمّـــام سبيلٌ ورثة اللواء ، دفع رسول الله صلّى الله عليــه وآله لواء بنى عبــد الدار إلى مُصعب بن عمير ، ودَفع عمر بن الخطاب لواء بنى تميم إلى وكيع بن بشر ، ثم دفعــه إلى الأحنف حين لم يوجد فى بنى زرارة مَنْ يستحق وراثة اللواء ؛ فإن كان الأمر بالسنّ فإنه كان بين محمد بن علىّ وأبيه علىّ بن عبد الله أربع عشرة سنة ، كان علىّ يخضب بالسّواد ، ومحمد يخضب بالحمرة ، فكان القادم يقدُم عليهما ، والزائر يأتيهما ، فيظنّ أكثرهم أن محمدا هو علىّ ، وأن عليا هو محمد ، حتى ربما قيل لعلىّ : كيف أصبح الشيخ من علّته ؟ ومتى رَجَعَ الشيخ إلى منزله ؟ وأحرى أنّ أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس ، فقد ولَدَه العبّاس مرتين ، وولده جوادُ بنى العبّاس ؛ كان والده خيرَهم وحَبْرَهم ؛ ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك . وكان مصرع والدِ محمد أسَنّ من عامة والدِ علىّ ، وولِدَ محمدُ المهدى بن عبد الله المنصور والعبّاس بن محمد بن علىّ فى عام واحد ، وكذلك محمد بن سليمان بن علىّ ، ولم يكن لأحد من ولدِ علىّ بن عبد الله بن العباس — وإن كانوا فُضَلاء نجباء كُرَماء نبلاء — مثل عقله ولا كماله ؛ كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناسُ على أبواب دُورهم والنّساء على سطوحهنّ للنظر إليه، والتعجّب من كماله وبهائه ، وقد قاتل إخوته أعداءه فى دَفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبَرين ؛ على أن محمدا إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسّس ، وقاعدةٍ مقرّرة ، ووصيّةٍ انتقلت إليه من أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة ، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد، وأخذها محمد عن علىّ بن أبى طالب أبيه .

---

(١) الحارص : القاصد .

قالوا : لما سمت بنو أمية أبا هاشم مَرِض فخرج من الشام وَقِيذا [١] يؤمّ المدينة ، فمرّ بالحميمة [٢] وقد أشفى ، فاستدعى محمّد بن على بن عبدِ الله بنِ العباس فدفع الوصيّة إليه ، وعرّفه ما يصنع ، وأخبَرَه بما سيكون من الأمر ، وقال له : إنّى لم أدفعها إليك من تلقاء نفسى ، ولكنّ أبى أخبرنى عن أبيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام بذلك ، وأمرنى به ، وأعلمنى بلقائى إياك فى هذا المكان ، ثم مات فتولّى محمّد بنُ على تجهيزَه ودفنه وبثّ الدُّعاة حينئذ فى طلب الأمر ، وهو الذى قال لرجال الدّعوة ، والقائمين بأمر الدولة ، حين اختارهم للتوجّه ، وانتخبهم للدّعاء ، وحين قال بعضهم : ندعو بالكوفة ، وقال بعضهم : بالبَصْرة . وقال بعضهم : بالجزيرة . وقال بعضهم بالشام . وقال بعضهم : بمكّة وقال بعضهم : بالمدينة. واحتجّ كلُّ إنسان لرأيه ، واعتلّ لقوله ـ فقال محمّد : أمّا الكوفة وسوادُها فشيعةُ علىّ وولده ، وأمّا البَصْرة فعُثمانية تَدين بالكَفّ ، وقَبيلُ عبدِ الله المَقتول يَدينون بجميع الفِرَق ، ولا يُعينون أحد ، وأمّا الجزيرة فحَرورية مارقة ، والخارجيّة فيهم فاشية ، وأعراب كأعلاج [٣] ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأمّا الشام فلا يَعرِفون إلا آل أبى سُفيان ، وطاعة بنى مَرْوان ، عداوةً راسخةً ، وجهلًا متراكمًا ؛ وأمّا مكّة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعُمَر ، وليس يتحرّك معنا فى أمرنا هذا منهم أحد ، ولا يقوم بنَصْرنا إلّا شيعتنا أهل البيت ، ولكن عليكم بخُراسان ، فإنّ هناك العَدَدَ الكثير ، والجلد الظاهر ، وصُدوراً سليمة ، وقلوبا مجتمعة ، لم تتقسّمها الأهواء ، ولم تتوزّعها النِّحَل ، ولم تَشغَلها ديانة ، ولا هدم فيها فساد ، وليس لهم اليوم هم [٤] العَرَب ، ولا فيهم تجارب كتجارب الأتباع مع السادات ، ولا تحالُفٌ كتحالف القبائل ، ولا عَصَبيّة كعصبيّة العشائر ، ومازالوا يُنالُون ويُمتَهنون ، ويُظلَمون فيَكظِمون ، ويَنتظِرون الفرج ، ويؤمّلون

---

(١) الوقيذ : المريض المشرف على الهلاك .

(٢) الحميمة : كجهينة بلد بالبلقاء . (٣) الأعلاج : جمع علج ؛ الرجل من كفار العجم :

(٤) ا : « هم » .

دَوْلة ، وهم جندٌ لهم أبدان وأجسام ، ومَناكبُ وكواهل ، وهامات ولِحًى ، وشواربُ وأصوات هائلة ، ولُغات فخمة ، تَخرج من أجواف مُنكَرة .

وبعد ، فكأنّي أتفاءلُ جانبَ المَشرق فإنّ مطلَع الشمس سراجُ الدّنيا ، ومصباح هذا الخَلْق . فهذا الأمرُ كما دبّر ، وكما قدّر ، ممن كان الرأى الذى رأى صَوابًا فقد وافق الرشاد ، وطبّق المِفْصَل ، وإن كان ذلك عن رواية متقدّمة ، فلم يتلقّ تلك الرواية إلا عن نبوة .

قالوا : وأمّا قولكم : إنّ منا رجلا مكَثَ وأربعين سنة أميراً وخليفة ، فإنّ الإمارة لا تعدّ في مواضع الخلافة ، ولا تُضمّ إليها ، ونحن نقول : إن مِنّا رجلامكَث سبعاًوأربعين سنة خليفة ، وهو أحمد الناصرُ بن الحسن المستضىء ؛ ومِنّا رجلٌ مكث خمسا وأربعين سنةً خليفةً ، وهو عبد الله القائم ومكث أبوه أحمد القادر ثلاثا وأربعين سنة خليفة ، فملكهما أكثر من مُلك بنى أمية كلِّهم ، وهم أربع عشرةَ خليفة . ويقول الطالبيون : منّا رجلٌ مكَثَ ستين سنة خليفة ، وهو معدّ بن الطّاهر صاحبُ مصر ، وهذه مُدّة لم يبلُغها خليفة ولا مَلِك من مُلوك العَرَب في قديم الدّهْر ولا في حَديثه .

وقلتم لنا : عاتكة بنت يزيد يكتنِفُها خمسةٌ من الخلفاء ، ونحن نقول : لنا زُبيدة بنتُ جَعْفر يكتنِفُها ثمانية من الخلفاء ، جدّها المنصورُ خليفة ، وعمُّ أبيها السفّاح خليفة وعمُّها المهدىّ خليفة ، وابنُ عمّها الهادى خليفة ، وبعلها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنا بعلها المأمونُ والمعتصمُ خليفتان .

قالوا : وأما ماذكرتموه من الأعياص والعَنابس فلسنا نُصدّقكم فيما زَعمْتموه أصْلا بهذه التّسْمية ، وإنما سُمّوا الأعياص لمكان العِيص وأبى العِيص والعاص وأبى العاص ، وهذه أسماؤهم ، الأعلام ليست مشتقّةً من أفعالٍ لهم كريمة ولا خسيسة . وأما العنابس ،

فإنما سُمّوا بذلك لأنّ حَرْب بنَ أميّة كان اسمُه عَنْبَسة ؛ وأما حَرْبٌ فلَقبه ، ذكَر ذلك النّسّابون ، ولمّا كان حَرْب أمثَلهم سَمّوْا جماعتهم باسمه ، فقيل : العَنابس ، كما يقال : المَهالِبة والمَناذِرة ، ولهذا المعنى سُمّي أبو سفيان بن حَرْب بن عَنْبَسة ، وسُمّي سَعِيدُ بنُ العاص ابن عَنْبَسة .

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ويليه
الجزء السادس عشر



فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .



فهرس الموضوعات*

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .